



هَذَا الْقُرْآنُ

تأليف:
عبد الجي العمري

1403 هـ — 1983 م

نُطبع هذا الكتاب تحت إشراف اللجنة المشتركة لنشر إحياء التراث الإسلامي
بين حكومة المملكة المغربية وحكومة دولة الإمارات العربية المتحدة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« تصدير »

(هذا القرآن) كتاب الفه العلامة عبد الحي العمراني احد علماء فاس ، وخريج جامعة القرويين ، بمناسبة احتفال المملكة المغربية بمرور اربعة عشر قرنا على نزول القرآن الكريم ، على سيد المرسلين محمد بن عبد الله عليه افضل الصلاة وازكى التسليم ، تلك المناسبة الكريمة التي خلدها المغرب سنة 1387 هجرية ، موافق 1968 ميلادية ، ودعى اليها نخبة من جهابذة العلم والفكر والتفسير ، من كافة اقطار العالم الاسلامي ، فكانت مشاركة هذه النخبة مشاركة فعالة بعدد من المقالات والابحاث والدراسات القرآنية ، نشرتها وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية في حينها ، بالعدد الخاص من (دعوة الحق) بذكرى نزول القرآن .

هذا هو موضوع الكتاب الذي بين ايدينا ، والذي تناول فيه مؤلفه نماذج خاصة من اخلاق القرآن وفضائل النضال والتضحية من أجل العقيدة والايمان ، وموضع العلم والعمل والشورى والحكم والمساواة في شريعة القرآن ومنهجية الاسلام مما يعين القارئ على فهم القرآن الكريم فهما حقيقيا ودقيقا لموضوعات تتضمن تسجيل لمسات تبدد حيرة المسلمين ، وتهديهم في عصرنا الحاضر سواء السبيل في دنياهم وآخرتهم .

(أن هذا القرآن يهدي للتي هي اقوم ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات) فهو حبل الله المتين الذي لا تلتبس به اللسن ، ولا

يخلف على كثرة الرد ، ولا تنقضي عجائبه ، ولا يشبع منه العلماء ، من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعى اليه هدى الى الصراط المستقيم ، ومن تركه من جبار قصمه الله ، ومن أتبع الهدى في غيره أضله الله ، قال تعالى : (فاما ياتينكم مني هدى فمن أتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ، ومن اعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ، قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا ، قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى) .

فالقرآن رسالة دائمة ومستمرة وخالدة مدى الحياة ، لهداية البشر ، ولمحاربة الشرك والاثوان ، ولتكريم الانسان ، وتحريره من الرق والعبودية ، الا الله الواحد الاحد .

كما انه العروة الوثقى لا انفصام لها ، الرابطة بين المسلمين في الماضي والحاضر والمستقبل ، والموحدة بين صفوفهم ، والمزجحة العراقيل عن طريقهم ، والقاضية كل القضاء على الصفائن والمشاحنات المتواجدة بينهم ، والتي عرفتها مجتمعاتهم الحين بعد الحين فأزالها القرآن عنهم ورد عليهم جميل اعتبارهم كمسلمين على صعيد واحد ، فلا عنصرية ، ولا لونية ، ولا عرقية ، ولا طائفية ، بينهم . كلهم من آدم وآدم من تراب ، ولا فضل لعربي على عجمي الا بالتقوى ، مصداقا لقول الله تبارك وتعالى : (يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم) .

هذا وان وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية اذ تقدم كتاب (هذا القرآن) الى القراء الكرام في اطار الصندوق المشترك بين المغرب وابو ضبي . ويامر من امير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله وأخيه الجليل الامير الشيخ زائد بن سلطان آل نهيان حفظه الله . كما يشرفها كل الشرف ان تواصل العمل في هذا الصدد من اجل خدمة كتاب الله ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وان تضعهما امام الناشئة من ابناء الاسلام والمسلمين بهذا البلد الامين ، وكافة بلاد المسلمين ، والحمد لله رب العالمين .

وزير الاوقاف والشؤون الاسلامية
الهاشمي الغلالى امين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كلمة أولى :

خلد الشعب المغربي المسلم ذكرى من أعظم الذكريات الإسلامية وأجلها باحتفاله بمرور أربعة عشر قرنا على بدء نزول القرآن الكريم على رسول الإسلام محمد (ص) ، وكان الاحتفال عاطرا وشيقا وحافلا بوفود العلماء المسلمين القادمين من مختلف الدول الإسلامية لمشاركة المغرب المجاهد في هذا الحدث الفريد ولا يبرز هذه الذكرى المجيدة في تاريخ المسلمين واعطائها ما تستحقه من الاهتمام .

ولما كان نزول القرآن في شهر رمضان المبارك كما ذكر القرآن الكريم في قوله : « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » جاء الاحتفال في ذات الشهر من عام ألف وثلاثمائة وسبعة وثمانين هجرية الموافق لشهر يناير من سنة ألف وتسعمائة وثمان وستين ميلادية . وفي هذا الشهر يعود المسلمون الصادقون لانفسهم ليتدبروا ويعتبروا ويتخلصوا من العقد والشوائب والادران ويستوحوا من ذكريات القرآن ما يدفع بهم الى المضي في تحقيق رسالة القرآن وما تتطلبه من تضحية ونضال وجهاد وتغلب على شروخ النفس وأهوائها لتستمر رسالة القرآن نيرة بينة واضحة هادفة في جميع مرافق الحياة من سياسية واجتماعية واقتصادية ، وبهذا التفكير يستطيع المسلمون بناء قوتهم وتحرير أوطانهم من الاحتلال السياسي والاقتصادي

ومن الذل والانكماش والتراجع والجهل والفقر وكل أنواع الابتلاء . وفي مقدمة ما يستعجلهم للثوب والصمود أرض مسجد الاسراء بفلسطين السلبية المدنسة برجس الصهيونية المتآمرة .

والقرءان هو العروة الوثقى التي تربط بين جميع المسلمين وتوحد صفوفهم وتزيح العراقيل من طريقهم وتقضي على النزوات الطائشة فيما بينهم .

ان أرض المغرب منذ استمسكت بعروة القرءان وهي تقف سدا حاجزا للحفاظ عليه ، بل وتنشره بكل قوة وحزم وتدافع عن أهدافه وتستبسل من أجله حتى نفذ الى أعماق أفريقيا ومجاهلها وتخطى حاجز البحر لينفذ الى أوروبا النصرانية ويقيم على أرضها حضارة اسلامية زاهرة تراجعت لما تراجع المسلمون عن رسالتهم وركبوا أهواءهم وشهواتهم حتى انفكت عرواتهم وارتخت أوامرهم فانفصم ما بينهم وبين رسالتهم الخالدة وطمع فيهم أعداؤهم فأخرجوهم من اوطانهم واستعبدوا بها من بقي منهم فيها وأذاقوهم شر أنواع الاذية ، وشككواهم في قرآنهم الذي ينادي ويلح في النداء بأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . فهل كانت أحوال المسلمين ستصير الى ما صارت اليه لو تشبثوا بمفاهيم القرءان العميقة واكتشفوا أسرارهم واتخذوا من آياته دستوراً عملياً وهو الكتاب الجامع للقيم الانسانية والعقيدة النظيفة والتشريعات البينة والاشارات العلمية ، ويحفظ على استعمال العقل وعلى النظر والتفكير والاعتبار ، ويدعو الى تأسيس حكم شورى نزيه ، لا عنصرية فيه ولا لونية ولا طائفية ، يقوم على التقوى والرحمة والعدل الذي يجب أن يربط بين الحاكمين والمحكومين ، لا تشوبه نزعات ولا انقسامات ولا أحقاد ورائية لكون كلمة الله هي الجامع الرابط مهما حصل من خلاف أو نزل من شقاق .

ومهما نصر المسلمون قرآنهم وكافحوا عنه وخضعوا لأوامره واجتنبوا نواهيه الا وتعززوا بالنصر كما يقول القرءان الكريم : « ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » .

وجلالة الحسن الثاني نصره الله حينما دعا الى الاحتفال بمرور أربعة عشر قرناً على بدء نزول القرءان ووجه دعوته الكريمة الى مجموعة من

جهاذة علماء الاسلام من دول اسلامية متعددة فعل ذلك من موقفه الاسلامي ومن تاريخ وطنه الحافل بالامجاد الاسلامية ، وهو موقن بأن لا صلاح للمسلمين الا بالرجوع الى دينهم والتشبث بفضائله ومزاياه ووضعهم في مكان العمل والتطبيق ، وهو الملك المسلم المدرك لما في الاسلام من قدرة على الاستيعاب ، ومن مرونة نادرة يمكن بها التغلب على مشاكل الحضارة المعاصرة في مختلف الشؤون ، كانت مالية او اقتصادية او سياسية او اجتماعية ، ويعلم يقينا ان المغرب حصن منيع للاسلام ، على صخرته تحطم الغزو الصليبي والاحتلال الاستعماري .

لقد اتخذ جلالة الملك بادرته كقائد اسلامي متميز ، وكأمير للمؤمنين له من المسؤوليات ما ليس لغيره .

ورجاؤنا في الله أن تكون خطوة جلالته خطوة موفقة حتى يعود للاسلام مجده وقوته وعزته ، وياخذ مكانته في العمل والتطبيق .

هَذَا الْقُرْآنُ

ان هذا القرآن يهدي المسلمين للتي هي اقوم في دنياهم وأخراهم ، ويخط لهم طريق الاصلاح والصلاح ، وينظم لهم شؤونهم تنظيما محكما سديدا قيما بترو وحكمة حصيفة ، بعيدة عن التسرع والزيف والارتكاس .

هذا القرآن الذي سنحاول ان نسجل لمسات منه ، لان الاحاطة بجوانبه تنوء بالعصبة اولى القوة ، ان لم تكن ضربا من المحال ، فلك ان القرآن كثير الجوانب ، متجدد الحركات ، كم كتب فيه الكتاب ، وكم شرح الشراح ، ومع ذلك لا زالت معانيه تتجدد مع الايام ، ولا زالت عجائبه تنكشف مع العلم والاختراع .

هذا القرآن الذي اخذ في هذا العصر جانبا هاما من البحوث التي تصدر في كل من اوروبا وامريكا ، ويذهب كل باحث في بحثه عن القرآن ، والاسلام مذاهب متنوعة ومتباينة ، اذ كل واحد يتحدث حسب مشربه وتأثره واتجاهه وسلوكه ، فمن مصيب ومن مخطئ من حاقده ومن مسالم ، من باحث عن الحقيقة ، ومن مدلس ، من مستعمر ومن متطاول ، ولكنهم في مجملهم لا يكادون يفهمون حقيقة القرآن دون ان يتأثروا بتأثير ما ، ولو اخلصوا في البحث والاستقصاء ، لان الاخطاء المسلمة المنتشرة بينهم تسد عليهم أبواب الوصول الى الهدف الاسما للقرآن الذي كان خاتمة الكتب السماوية التي ربطت بين المادة والروح رباطا خرج بالانسانية من الزحزحة والضلال الى طريق الهدى والفلاح . وكثير من الباحثين تاهوا في مجاهيل الفلسفات يلقبونها على وجوها ليقولوا قوله أو رأيا في القرآن حسب ما ظهر لهم من بحثهم ، ثم منهم من يقوم بالمقارنات والاحصاءات بين ديانات مختلفة كالاسلام والمسيحية والبوذية ، وديانات أخرى لا تقوم على الدعوة كالهندوكية والشتية واليهودية .

وقد استطاع القرآن وحده ان يقف في وجه كل أولئك الذين درسوه عن سوء نية واستطاع ان يفرض وجوده بمذهبه وأن ينتزع الاعجاب والتقدير بالرغم عنهم جميعا . ويقول سدني فيشر في كتابه (الشرق الاوسط في العصر الاسلامي) : « ان القرآن صوت حي يروع فؤاد العربي

وتزداد روعته حين يتلى عليه بصوت مسموع ، ولكنه لا يفهم هذه الروعة كما لم يفهمها زملاؤه الذين سبقوه الى الاعتراف ببلاغة القرآن اعتمادا على اثره البليغ في قلوب قرائه وسامعيه ، ثم يقفون عند تقرير هذه البلاغة بشهادة السماع . انه كتاب تربية وثقيف ، وليس كل ما فيه كلاما عن الفرائض والشعائر ، وان الفضائل التي يحث عليها المسلمين من أجمل الفضائل وأرجحها في موازين الاخلاق ، وتتجلى هداية الكتاب في نواحيه ، كما تتجلى في أوامره ، فلا يجوز للمسلم أن يشرب الخمر ولا أن يقامر ولا أن يعتدي وأن لا يستسلم للترف والرذيلة . . . » .

هذا القرآن السماوي وحده الذي لم يدخله تغيير دون بقية الكتب السماوية الاخرى ، وبقي مرفوع العماد دون سواه منذ أربعة عشر قرنا من الزمن .

هذا القرآن الذي يريد للمسلمين أن يكونوا قوة في أنفسهم وعلى أعدائهم ، لا يظلمون ولا يعتدون ، ولكن عليهم أن يردوا الظلم والاعتداء ، ثم لا يستزيّدون .

هذا القرآن الذي يريد للبشرية أن لا تبتعد - مهما بلغت من العلم - عن النبع الالهي الذي لا ينضب حتى لا تضل طريقها في مهامه الحياة المادية الجافة القاحلة ، التي تضطرها الى السفالة الاخلاقية التي لا تحترم قانونا ولا تومن بقيم ولا تحترم واجبت ، وليس أدل على ذلك مما عم وانتشر ، لا في العالم غير الاسلامي ، بل وحتى في العالم الاسلامي من ركوب الى الخمر والمخدرات والجنس ، هروبا من الاحساس بالفراغ الروحي الذي أصبح سمة من سمات الحضارة العصرية المادية .

هذا القرآن الذي اذا تفهمه المسلم على حقيقته وعلم أهدافه استطاع أن يبتعد عن الجاهلية الرعناء بكل ما تحمله من مفاصد وضلالات .

والجاهلية في عرف هذا القرآن ليست من الجهل المتعارف عليه بين الناس بل انها تقصد أن يبتعد المسلم عن كل ما يشينه ظاهرا وباطنا ، وان يجعل الايمان بالله وسيلته للنضال في هذه الارض التي استخلفه الله فيها لتعميرها واصلاحها لا لتدميرها وتخريبها .

هذا القرآن الذي لا يمكن أن يفهمه المسلم حق فهمه إذا لم يعيش مع آياته البينات يستشفها ويفوص في دررها وتوجيهاتها القيمة السديدة .

وكيف يستطيع المسلم أن يفهم هذا القرآن إذا لم يكن مهياً لفهمه فهما صحيحاً قوياً بعيداً عن نزعات اليهودية ودسائس النفاق وأحقاد الصليبية وبغضاء الاستعمار ونفثات المستشرقين المسمومة .

هذا القرآن الذي لم يترك ذرة من ذرات هذا الوجود إلا وردها إلى مصدرها الأول ، وهو الباري جل وعلا ، ولم يعللها بعلل من يدعون لانفسهم التعقل والحكمة والادراك ، فيستنتجوا من الاستنتاجات ما تكشف الأيام على أنهم ضالون مضلون .

هذا القرآن الذي كرم الإنسان بخصائصه المميزة له وشرفه عن أن يكون من سلالة القردة كما يريد له الدرويون وجعله نفحة من الروح الاسما حيث يقول : « فإذا سويته ونفخت فيه من روحي » .

هذا القرآن الذي وجد معارضة عنيفة من أصحاب المطامع والشهوات والامتيازات فصارعهم في غلوائهم ، فكانت معارك قاسية بين الرشد والغي ، والهدى والضلال ، والنور والظلام ، والحقائق والأوهام ، والكفر والإيمان ، وبقي في عراكه مستميتاً رغم التقلبات والطعنات ، فزادته المعركة اشراقاً على اشراقه وجدة على كر الأيام .

هذا القرآن المنزل من عند الله الذي خلق كل شيء فقدره تقديراً ولن تجد لسنته تبديلاً ولا تحويلاً .

هذا القرآن الذي إذا رجع إليه المسلمون وتفهموه على وجهه الصحيح استطاعوا بناء أمة قوية تقدر على خوض معركة الحياة الضارية بعزم وحزم وهي متسلحة بسلاح العلم والمعرفة والتقوى والإيمان والفضائل والأخلاق التي لم يعد لها مكان في الحضارة المادية المتغلبة على القلوب والعقول .

هذا القرآن الذي ينادي بالعمل والخير مع اليسر والاعتدال ، وأن الذين لا يهتدون بهديه ويركبون أهواءهم لفي ضلال بعيد .

هذا القرآن الذي يبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ان لهم اجرا كبيرا بالايمان والعمل والتقوى والنضال . فهو يهدي المؤمنين الى معرفة الله والى معرفة أسرار الكون ، اما الكافرون الجاحدون فلهم فيه مصيرهم من العذاب الاليم لتكذبهم عن الطريق القويم .

وفي سورة الاسراء : « ان هذا القرآن يهدي للتي هي اقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ان لهم اجرا كبيرا وان الذين لا يؤمنون بالآخرة اعدنا لهم عذابا اليما » .

هذا القرآن الذي جاء بالحق ليقرأ على مهل وتدبر وتمعن كما تقول آية الاسراء : « وبالحق أنزلناه وبالحق نزل وما أرسلناك الا مبشرا ونذيرا وقرأنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا » . وقد استقبله المكذبون به استقبالا عنيفا محاولين ايقاف زحفه حفظا على مكاسبهم ، ورغم ذلك فمنهم من كان يشعر بعظمته وسموه .

ولم يستطع موقفهم العنيد ايقاف زحف رسالة القرآن الذي كونا أمة وأنشأها وأقام لها كيانا ونظاما حتى استطاعت أن تصل به الى الالوج وحققت الكثير من أهدافه ، وعليها أن تتابع رسالتها بعد ما تردى العالم في جاهلية المادة والجحود ، ولن يتأتى ذلك للامة الاسلامية اليوم الا بعد تفهم مقاصد القرآن أولا .

والمسلمون اليوم يتلون القرآن بلسانهم ويحتفلون به ، ولكنهم يهملون معانيه ومحتوياته .

روى عن الصحابي المقرئ عبد الله بن مسعود قال : « كان الرجل منا اذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن » .

هذا القرآن الذي نزل في أحسن حلة وأجمل مظهر وأغزر معنى كتاب متناسق الآيات لا اختلاف فيه ولا تضارب ولا تناقض ، يشبه بعضه بعضا في الحسن والجمال ودقة التعبير ، مثاني تكرر فيه المواعظ والقصص . فهذا القرآن اذا تكررت مقاطعه وقصصه وأحكامه فهي لا تختلف ولا تتعارض ، وتكرارها لفائدة تقتضي ذلك ، وتكرار القرآن حلو

بليغ ، أخاذ بالنفس ، تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ويتقونه ، ثم بهذا مطمئنة لايمانها واستقامتها فتلين لذكر الله عز وجل ..

قال تعالى في سورة الزمر : « الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضل الله فما له من هاد » .

وفي هذا القرآن تقول سورة النساء : « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كبيرا) .

هذا الخطاب العام المستمر لتدبر القرآن وامعان النظر فيه . هذا القرآن الذي اذا تدبره الانسان فسيجد فيه مبتغاه ، وسيلحظ فيه عدم التناقض والاختلاف ، سواء من جهة فنيته وصنعتة أو مما اشتمل عليه من قواعد واحكام بخلاف كلام البشر ، فانه قابل للنقض لفظا وللتضارب معنى .

والتناقض الذي قد يترأى فيه اما أنه راجع لسوء فهم اللغة التي جاء بها أو لعدم الاحاطة بالموضوع المتحدث عنه في جميع الآيات أو لعدم ادراك المقصد الذي وردت فيه الآية في المكان المنظور فيه .

ولا شك ان علم الله محيط لا تخفى عليه خافية ، فالتقص لا يرجع لكلام الله ، وانما يرجع الى الناظر فيه .

ولا يدخل في موضوع الآية ما ورد في القرآن من المتشابه لكون التشابه لا يعد تناقضا لاحتمالاته . والعقل البشري مهما ادعى من العلم والمعرفة فعلمه لا يقاس الى علم الله لكونه خلق ضعيفا قاصرا ، ثم مصيره الغناء ، ومن كان هذا شأنه يدرك أمورا وتخفى عيله أمور أخرى ، ويدرك جانبا وتخفى عليه جوانب ، وقد لا يدرك مكان العبرة في الآية فيدعى ان في القرآن تناقضا .

ويقول القرآن في سورة يونس : « وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين أم يقولون افتراه قل فاتوا بسورة مثله وادعوا من أستطعتم

من دون الله أن كنتم صادقين بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين .

فلقد كان الكفرة يتقولون بأن القرءان مفترى من دون الله ، ومنهم من كان يقول ذلك عنادا ويعتقد خلاف ما يقول ويمنعه جحوده من الصدع بالحقيقة كما يتصورها ، ورب القرءان عليم بخفايا أولئك وهؤلاء ، فتحذاهم جميعا سواء منهم من جحده من أساسه معتقدا ذلك ، أو من جحده ظاهرا وهو في نفسه لا يعتقد ما يظهره بأن يأتوا بسورة مثله وهم أهل بلاغة وفصاحة وقدرة على القول .

وهذا التحدي القرآني هنا يظهر الكفرة جميعا بمظهر العجز والتقول والافتراء ويقوي عزم الرسول (ص) ويثبت فؤاده ليصبر على صدمات الشرك واليهودية والنفاق .

فهذا القرءان الذي زحزح مكاسب الشرك واليهودية جاء تاما ، شكلا وموضوعا وعمقا ، وتصورا وتصورا وتنظيما وتحديثا وشرحا وتوضيحا وبيانا ومن شأنه كذلك ، وعجز خلاص البلاغة والبيان عن معارضته وطعنه كما عجز أهل المعرفة وقتئذ من دحضه وتسفيهه وتمييعه ، لا شك أنه كلام من عند الله تلي عليهم فبهزم ثم لا زال يتلى علينا ، ولا زلنا نجد فيه كل طراوة وجدة واشراق ، ولا زلنا نقف أمام آياته البينات ، مبهرين ، ولا زلنا نستنبط منه ، بل أن الكفرة من المستشرقين لا زالوا يبحثون هذا القرءان ويتحدثون عنه وعن عجائبه ، بل انشئت لهذا القرءان كراسي خاصة في جامعاتهم العلمية لبحثه وبحث حضارته ومقاصده وأهدافه ومراميه ، وكل هذا يدل على ما في القرءان من حيوية متدفقة ، وصمود لم يستطع البحث الحديث أن يتحداه ، كما لم يستطع كفرة القرون الخوالي .

فكيف يقبل أن يكون هذا القرءان مفترى ؟

وكيف يمكن لشركة الصهاينة والصليبيين والاستعماريين أن يوقفوا زحفه ولو تجمع شرهم وكيدهم ومكرهم ، وللقرءان أمته ولكنها لا تستطيع تحقيق رسالة القرءان إلا اذا سلكت به نفس المنهج الذي سلكه الرسول الكريم (ص) وصحبه الأبرار ، ومن خلفهم من الصادقين .

وهذا القرآن ليس بدعا من الرسالات السماوية فهو يقرر الكثير من أحكامها ثم يفوقها بكونه رسالة انسانية عامة خالدة باقية ختمت كل اتصال بين الارض والسماء وقررت حكم الله النهائي للبشرية في حياتها الدنيا وفي الآخرة .

وفي سورة هود : « أم يقولون افتراه قل فاتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله أن كنتم صادقين » .

ان القرآن يتحدى المعاندين في صورتين من أنواع التحدي بحسب الحال ، فهو قد تحداهم بأن يأتوا بمثل هذا القرآن وتحداهم بأن يأتوا بسورة من مثله ، وتحداهم بأن يأتوا بعشر سور من مثله مفتريات ، فكانوا يعجزون دائما .

وليس القصد العدد لذاته وإنما القصد التحدي لأن يأتوا بنوع من الكلام يشبه نوع القرآن ويشتمل على مثل بلاغته وأعجازه وأحكامه ، أو فليؤلفوا قرآنا من نوع آخر فيه اتجاه معين ومذهب معين متكامل ، ويشبه أسلوب القرآن في صفائه وقوته وبيانه .

وتزيد هذه الآية في تحديهم بأن يتعاونوا على ذلك ويجمعوا له بلغاءهم وفصحاءهم وحكماءهم وعلماءهم أن كانوا صادقين .

وما أقساه من تحد يدفع أولئك الجاحدين وأمثالهم في كل زمان ومكان .

ان هذا القرآن لو عرض على قلوب المؤمنين الصادقين لhez مشاعرهم هذا القرآن الذي لو عرض على الصخر الجامد لاهتز خاشعا لله كما تقول آية سورة الحشر : (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الامثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » فهذه الآية تمثيل لحقيقة القرآن وأثره ، فهو حقيقة رائعة ثابتة ، لا تتزعزع ولا تتقهقر .

وأن المؤمن الصادق ليهتز ويخضع من اثر هذا القرآن ، وتلك الامثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون .

وفي سورة الاسراء : « ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين الا خسارا » .

ففي هذا القرآن شفاء ورحمة لكل من آمن به بصدق وعمل حسب أوامره ونواهيه وتوجيهاته وتشريعاته ليطمئن من هول الحياة وقساوتها وضراوتها وقلقها وحزنها وحيرتها وأطماعها وأتاعها .

وفي هذا القرآن ضمانات للمؤمن به من أي انحراف أخلاقي أو سياسي أو اجتماعي أو مالي أو شعوري أو مذهبي .

وفي هذا القرآن عدل وحرية ونظام وبيان لكل شيء .

هذا القرآن العظيم الذي بدأ نزوله في ليلة القدر من شهر رمضان المعظم على قلب الرسول محمد (ص) فكانت تلك الليلة ليلة خالدة في تاريخ البشرية كلها .

قال تعالى في سورة القدر : (أنا أنزلناه في ليلة القدر وما أدراك ما ليلة القدر ليلة القدر خير من ألف شهر تنزل الملائكة والروح فيها بأذن ربهم من كل أمر سلام هي حتى مطلع الفجر » .

ويقول في سورة الدخان : « أنا أنزلناه في ليلة مباركة أنا كنا منذرين فيها يفرق كل أمر حكيم أمراً من عندنا أنا كنا مرسلين رحمة من ربك أنه هو السميع العليم » .

هذه الليلة المباركة التي بينت شهرها سورة البقرة في الآية الكريمة : « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » .

هذه الليلة المباركة التي هي خير من ألف شهر ، والعدد هنا لا يقصد به سوى الكثير ، فهي ليلة عظيمة خالدة مشرقة نيرة تنزل فيها الملائكة .

وكان صاحب الوحي جبريل عليه السلام ينزل بالقرآن على محمد (ص) بكل ما يحمله من معان سامية وقيم أنسانية عالية .

هذه الليلة التي تستحق من المسامحين أن يتدبروا مغزاها ومعناها
وأن يحتفلوا بها ويخلدوا ذكرها ليظل القرآن نبراسا لهم وهاديا . وقد
قال (ص) : من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه .

هذا القرآن الذي ذكرت آية سورة النحل آداب تلاوته حيث قالت :
« فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم أنه ليس له سلطان
على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين
هم به مشركون وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت
مفتري بل أكثرهم لا يعلمون قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت
الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه
بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين)) .

فالقارئ للقرآن عليه أن يستعيز من الشيطان الرجيم قبل الشروع
في التلاوة تطهيرا لنفسه من الوسوس وتوجيها لقلبه للتدبر والخشوع .

والوسوسة لا تجد طريقها إلا إلى قلوب الذين ينفصل تفكيرهم عن
الإيمان وتميل قلوبهم إلى الجحود والنكران أولئك الذين يستسلمون
للشهوات والشرو والآنثام . ومن هذه الطائفة المشركون الذين يقولون
على القرآن ورسوله بالكذب والبهتان . فإذا بدل الله آية ونسخها بآية
بعد استنفاد غرضها قالوا : إنما أنت مفتري لأنهم جاهلون بمقاصد الشريعة
ومراميها فلا يعلمون أسرارها واتجاهاتها .

وتؤكد الآية صحة هذا القرآن فتقول : « قل نزله روح القدس من
ربك بالحق . فليس هذا القرآن بمفتري . ليثبت الله به المؤمنين
ويهديهم إلى سواء السبيل » .

ثم تزيد الآية فتقول في الرد على المفتريين : ((ولقد نعلم أنهم يقولون
إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين)) .
وهذا الزعم باطل أيضا ولا حجة تصدقه وهم يعلمون ذلك ويدركونه ولكنهم
يقولون ويشيعون الكذب والبهتان .

وقد روت كتب الأحاديث والسير أن المشركين زعموا أن النبي (ص) كان يجنس لرجل (1) أعجمي لا يتقن العربية فيعلمه القرآن ولكن كذب هذه الفرية واضح ، فالشخص الذي زعموا أن النبي (ص) يجلس له لا يستطيع بعجمته أن يأتي بهذه الآيات البينات الواضحات الفصيحات .

وفي سورة الاعراف : « وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون » .

هذا القرآن المقدس الجليل القدر المتعبد بتلاوته ، إذا تلي وجب الانصات اليه لمكانته وجلاله وكونه من كلام الله عز وجل .

ويجب مع الانصات التدبر في معناه والعمل بما يرد فيه من أوامر واجتناب ما يرد فيه من نواه . وقد جاء في سورة الانفال : « إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً » .

هذا القرآن الذي ألفت المؤلفات الضخمة في أعجازه وأجريت المناقشات والمباحثات والمناظرات في أسلوبه ، ولا يشك بليغ في أعجاز القرآن البياني ، ولكن أعجازه الحقيقي في نظامه وشكله وموضوعاته التي لا زالت مفاهيمها تتجدد مع الأحداث والأيام ولا زالت بين أيدينا نتدبرها ونهتدي بهديها كلما قدر لنا أن نرجع الى القرآن بالدرس والتمحيص والتدبر .

هذا القرآن الذي هو هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب وقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون .

هذا الذي يجمع الى محتواه الخالد تعبيراً رائعاً وقوة بيان ودقة تركيب ونصاعة وضوح .

وكتوضيح لتعابير القرآن الرائعة نقتطف من سورة البقرة قوله تعالى : « فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة » .

(1) اختلفت الروايات في اسم هذا الشخص ، ف قيل اسمه جبر وقيل يعيش ، وقيل بلعام ، وكان نصرانياً .

حيث التصوير البديع والاعجاز الفائق الاخاذ فجعل الذين مصيرهم الى النار بمنزلة الوقود لها هذه النار الشديدة التي تحرق حتى الحجارة الصلبة الصلدة .

ولنقرأ كذلك قوله تعالى في سورة الرعد : « له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء الا كباسط كفه الى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين الا في ضلال » .

دعوة الله هي الحق والهدى والرشاد ، اما الدعوات الجاهلية فهي الى الباطل والفي والضلal وهي دعوات يصورها القراء تصويرا فنيا ممتازا حيث يجعلهم في جاهليتهم كظمان يبسط كفيه يرفع الماء الى فيه ولكنه لا يبلغه . فهؤلاء الذين يدعون من دون الله لا يبلغون الى غاية ولا يحققون مطلباً .

وفي سورة الاسراء : « قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن ياتوا بمثل هذا القراء لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس الا كفورا » .

فهذا القراء في اعجازه وبيانه ومحتوياته معجزة فريدة لا يقدر الخلق على تقليده والاتبان بمثله ولو تضافرت على ذلك عوالم متعددة ومخلوقات متنوعة .

ولو أنها استطاعت أن تأتي بكلام يحوي بلاغة وبياناً وعلماً لما استطاعت أن تأتي بكلام كامل مؤلف على نهج يشبه نهج القراء .

والقراء قد أتى بأمثال موضحة وبيانات شارحة ، ومع ذلك أبى الكفرة الا ان يستمروا في كفرهم فلم تنفعهم أمثال القراء وحكمه .

وكم في القراء من أمثال رائعة في بلاغتها سلسلة في فصاحتها شيقة في تعابيرها .

وحاول الكفرة أن يشككوا في القراء لضربه الامثال بالاشياء الحقيرة والصغيرة ، ولذلك رد عليهم القراء في سورة البقرة بقوله : « ان الله لا

يستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم ، وأما الذين كفروا فيقولون ما ذا أراد الله بهذا مثلاً يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون .

ولننقل بعضاً من أمثال القرآن لما فيها من الإشراف البلاغي والموعظة والذكـرى .

فمن الأمثال التي ضربها القرآن لتصوير نفسية المنافقين وحالتهم المضطربة القلقة قوله تعالى في سورة البقرة « مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون صم بكم عمي فهم لا يرجعون أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم أن الله على كل شيء قدير » .

فالمثل الأول يصورهم في صورة من استحب العمى على الهدى فلم ينتفعوا بما في القرآن من هدى وإرشاد ، بل اختاروا الغواية والضلال .

والثاني يصورهم في اضطرابهم وفزعهم بمن أصيب بمطر فيه ظلمات ورعد وبرق فدخلهم الرعب والخوف حتى جعلوا أصابعهم في آذانهم من شدة الصواعق حذراً من الموت ، ويكاد البرق يخطف بصرهم من شدته وعنفه ، فكلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا .

ويضرب القرآن مثلاً آخر في سورة البقرة للكفرة من مشركين ويهود في عنادهم ومروقهم وأنحرافهم فيقول : « ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمي فهم لا يعقلون » .

فهم في كفرهم وعنادهم وجحودهم كالبهيمة التي لا تعقل ولا تعي ما يلقي إليها حتى إذا ما صاح بها صائح لا تفقه ما يقول ولا تسمع إلا صوتاً وكفى ، بل أن القرآن يجعل هؤلاء المارقين غير الواعين في حالة تجعلهم

أضل من السوائيم لكونهم لا يستعملون عقولهم وتفكيرهم للاهتمام الى ما ينفعهم .

وفي سورة ابراهيم : « مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء ، ذلك هو الضلال البعيد .

فيضرب الله مثلا في هذه الآية للذين كفروا وكذبوا بآيات الله بأن أعمالهم هباء لكونها تفتقد عنصر الايمان ، فهي لا تفيدهم مع الله شيئا ولو بلغت ما بلغت فهي كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف . والرماد اذا اشتدت به الريح في يوم عاصف يتبدد ويتشتت ولا يقدر أصحابه على الإمساك به .

وفي سورة الحج : « يا ايها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب » .

فيعلن القرءان للناس كافة في هذه الآية مشهدا في مثل عجيب يقرر فيه ان الذين يعبدون من دون الله ويتعلقون بهم لن يستطيعوا ان يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا لذلك وتعاونوا عليه . وهل يقبل ان يعبد من كان عاجزا عن خلق اتفه مخلوق كالذبابه ؟

والله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها اظهارا لعجز غيره عن الخلق والايجاد .

فهؤلاء الذين يدعون من دون الله لو اجتمعوا وتعاونوا على خلق ذبابه ما استطاعوا ، فما بالك بخلق ما هو اعظم قدرا منها .

ولا يعرف معنى هذا المثل حق معرفته الا من درس علم الاحياء وتراكيب الاجسام ، وخصائياتها وانها في الطبيعة لشيء عجاب .

ثم تزيد الآية في بيان ضعفهم وعجزهم عن الخلق فتقول : « وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه » . فأصغر مخلوق كالذباب وما له من الأثر في الحياة ، يدل على قدرة الخالق وتفرد بالالوهية ، والمختصون

في العلوم الحيوانية والحشرية كما قلنا يدركون معنى هذا المثل في الآية أكثر من غيرهم ، والأطباء يعلمون جيدا أن الذباب قد يؤدي إلى الموت بما يحمله من ميكروبات فينقلها ولا تدركها الابصار .

وضرب المثل بالذباب دون غيره من المخلوقات ذات الحجم الأكبر يظهر من ضرب لهم المثل بمظهر اضعف والعجز ، إذ لو ضرب المثل بحيوان كنشر كالسبع مثلا لكان في ذلك من القوة ما لا نحسه في التعبير بالذبابة المحتقرة الضعيفة التي لا تلفت النظر ولا تستوجب الوقوف . ضعف الطالب والمطلوب .

وتقول آية سورة العنكبوت : « مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون » .

في معرض الكلام عن الكفر والظلم والفسق والبلوى والفتنة يأتي هذا المثل ليصور أن القوات المدعاة ليست شيئا أمام قوة الله الحقيقية ، فهي كالعنكبوت الضعيفة الواهية ليتدبر أصحاب الجاه والسلطان والحكم والمال ، أنهم ولو بلغوا في تعاليهم ما بلغوا فانما ذلك خديعة لانفسهم ، فهم من الضعف بمكان . وكذلك بالنسبة للماديين الذين يفقدون أنهم قد سيطروا على الأكوان بعلمهم وتديبرهم ويسقطون من حسابهم قدرة الخالق وعظمته وبطشه بالجبارين بعد امهالهم وترك الفرص لهم عليهم أن يتوبوا إلى رشدهم ويرجعوا عن غيهم .

مثل هؤلاء جميعا كمثل العنكبوت التي تبني بيتها من خيوط رخوة واهية لا تحمل ثقلا ولا تصمد لصدمة وهي في رخاوتها كلا شيء مع أنها في عملها آية من آيات هذا الكون ، فهي تبني بيتها بخيوط حريرية دقيقة يعجز الإنسان عن صنعها وتفزلها وتنسجها بنفسها . فمن علم العنكبوت الغزل ؟ ومن علمها صناعتها الدقيقة ؟ ومن أرشدها للتغذية بالذباب عن طريق صيده بشباكها الحريرية اللزجة ؟ فليتدبر المتجربون والطفاء عظمة الخالق وضعفهم الانساني أمام تلك العظمة التي تستطيع أن تسحقهم وتحيلهم إلى عدم ، كما يستطيع أي واحد أن يحطم بيت العنكبوت بدون أدنى مجهود . وأن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون .

وفي سورة آل عمران : « أن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون » .

هذا المثل أيضاً كالمثل في سورة إبراهيم ، يبين أن ما ينفقه الكافر لا يغني عنه من الله شيئاً ، لأنه يفتقد عنصر الإيمان الذي جعله الله وسيلة لقبول الصالحات ، وهؤلاء الكفرة لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً ، ولا تنجيهم من عذابه .

ويضرب القرآن هنا لذلك مثلاً بالريح تحمل عاصفة بردية تهلك الحرث والنسل وتصيب الأرض المخصصة فتركها ياباً ، فكذلك ما ينفقه الكافر في الحياة ، قاصداً به الخير والإحسان .

والأولاد حسنة من حسنات آبائهم ، وينقطع عمل المرء بعد موته إلا من ثلاث ، كما قال (ص) : ومنها ولد صالح يدعو له ، فإذا كان الولد كافراً كآبائه فلا يفيد ولا يستفيد .

وفي سورة الاعراف : « وأتل عليهم نبأ الذي آتيناه في آياتنا فانسأخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الفاوين ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا » .

وترد هذه الآية في معرض الكلام عن التوحيد والشرك ، وما أخذ الله من ميثاق عن البشر ليؤمنوا به ويوحده يوم كانوا في عالم الغيب وأشهدهم على أنفسهم أن لست بربكم فقالوا بلى ولكنهم انحرفوا عن فطرة الإيمان ونقضوا العهد فأشركوا بالله وكفروا .

وتأتي هذه الآية بمثل رائع في تصوير انسأخ الجاحدين وبين يديهم الآيات البينات على الوهية الله وانفراده بالوحدانية ، فهم يتبعون هواهم أو يقلدون إبائيل آبائهم وأجدادهم فغدوا كمن أريد له الرفعة وأبى إلا الهبوط والضعفة والمسأخ فهو كالكلب يلأزمه اللهث في أحواله سواء طورد أو لم يطارد .

وهذا من أمثال القراءان .عجيبة المصورة للاحوال الانسانية المتبعة
لاهوائها المتخيلة عن طريق الهدى .

ومن انحرف عن الجادة وركب هواه وأغلق قلبه فمن الصعب أن تجد
الهداية طريقا اليه ويصبح حاله كحال الكلب أن تحمل عليه يلهث أو تتركه
يلهث .

وفي سورة يونس : ((انما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء
فاختلط به نبات الارض مما ياكل الناس والانعام حتى اذا أخذت الارض
زخرفها وأزمنت ،وظن أهلها أنهم قادرون عليها اناها امرنا ليلا أو نهارا
فجعلناها حصيدا كان لم تغن بالامس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون » .

هذه الآيات تمثل الدنيا في مظاهرها ومتاعها وانغمار الناس في
المتاع واغفالهم للخير والصلاح بالماء الذي ينزل من السماء فيمتصه
النبات فيخضر ويزهر وينتج ، وفي هذه الحالة تشاهد الارض في حللها
الزاهية وفي زينتها وما يخرج من نعيم للناس والانعام فيظنون أنهم هم
الذين جعلوها في حلتها بقدرتهم ومعرفتهم فيأتيها أمر الله ليلا ونهارا
فيجعلها حصيدا كأن لم تغن بالامس . وان زمنا قصيرا ياتي فيه وباء أو
برد أو فيضان أو حريق قد يحطم كل بهجة وزينة ، وهكذا حال الدنيا قد
يستغرق جمع حطامها من انشخص وقته كله بشره ونهم ونذالة ولؤم بدون
أن يفكر في مصيره ولا في أبواب الخير ، وقد يكون قاسيا في معاملاته
وبهذا الشره يصبح وكأنه لم يخلق الا ليجمع الحطام ويدخره بلسون
حساب .

ان المثل في القراءان يأتي ليميز الحق من الباطل أو ليكشف عن
شيء بلايضاح والبيان ونحو ذلك ، ومن ذلك ما ورد في سورة الرعد :
« أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا
ومما توقدون عليه في النار ابتغاء حيلة أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله
الحق والباطل ، فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في
الارض ، كذلك يضرب الله الامثال)) .

هذا المثل يبين قوة الله وتدبيره ، فهو بقدرته ينزل الماء من السماء
على الارض فتسيل به الوديان ، كل بحسب قدره فتحمل في سيرها

وإندفاعها ما يصادفها من غثاء يتحرك بقوة الدفع فيظهر منه شيء كالزبد يطفو على وجه الماء وهو منتفخ .

وكما تقع هذه الصورة عند نزول المطر وطفو الزبد فوق الماء تقفع شبيهتها عند صهر المعادن لتصاغ منها الحلي أو الآلات ونحو ذلك ، فإن الغثاء يطفو على سطح المعادن ولكنه يذهب ليبقى المعدن نظيفا صالحا كما يبقى الماء تحت الزبد صالحا للسقي .

كذلك الحق مع الباطل ، فالباطل له صولة ظاهرة ، ولكنه لا يلبث أن تختفي صولته ليظهر الحق بينا ناصعا .

ومن نواميس الكون أن الباطل يحاول دائما أن يتغلب على الحق ولكنه لا يستطيع الاستمرار في ظهوره ، لأن الحق يكبته مهما طال أمده ، ولا يحتاج ذلك إلا للصبر والعمل والنضال .

وأحداث التاريخ كلها تشهد بصولة الباطل ثم انهزامه وخفوت الحق ثم انتصاره .

والاسلام عند ظهوره صادف من عقبات الباطل ما جعل بعض النفوس تشفق على مصيره ، ولكن صاحب الدعوة الاسلامية برسوخ ايمانه وتصديقه بوعد الله حقق نصر الله الذي وعد به المؤمنين الصادقين .

وهذا شأن كل دعوة اصلاحية لا بد لها ان تصادف عقبات الباطل وبهتانه وباصبر والثبات والصمود تحقق المبتغى والمرتجى .

وورد في سورة البقرة : « مثل الذين ينفقون اموالهم في سبيل الله كمثل حبة اُنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم » .

فيمثل القرءان الذين ينفقون اموالهم في سبيل الله بحبة يبارك الله في انتاجها الى سبعمائة حبة ، وليس القصد العدد والحصر ، بل هناك معنى اسما يقصد اليه القرءان وهو ان الله سبحانه يبارك للمنفقين في سبيله الفاعلين للخير والمعروف .

والمثل ما هو الا شيء محسوس يقرب المعنى للذهان التي قد لا تدرك فضل الله عليها وتظن ان أنفاقها ينقص من مكسدساتها .

والله سبحانه لا يقبل عطاء المرابين وانما يتقبل عطاء الصادقين التوابين الذين لا يتبعون عطاءهم منا ولا اذى لما فيهما من الخسة والضعفة والسقوط النفسي الدفين ، اولئك الذين يقصدون بالعطاء اهدار انكرامات ومس العواطف واخضاع الرقاب وقهرها ، وهو سبحانه لا يرضى ذلك لعباده ولا يقبل من العطاء الا ما كان خالصا لوجهه بعيدا عن النذالة والاسفاف .

ثم تزيد الآية فتقول : « الذين ينفقون اموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا ادنى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها اذى والله غني حليم ، يا ايها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالامن والاذى كالذي ينفق ماله رياء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صاددا لا يقدرعون على شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين ومثل الذين ينفقون اموالهم ابتغاء مرضاه الله وتشتيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فان لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير » .

ان قول المعروف والمغفرة خير من الصدقة التي يتبعها الاذى ، وتؤكد الآية على المؤمنين الصادقين ان لا يبطلوا صدقاتهم بالامن والاذى كالمتظاهرين بالمعروف الذين لا يحسون بحلاوة الايمان لتكبرهم وجفائهم وتضرب لذلك مثلا بصفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صاددا اي حجرا لا ينبت ، كان عليه شيء من تراب فنزل عليه مطر غزير فأزال ما عليه من تراب وتركه بارزا كما هو في حقيقته .

فالذي ينفق ماله قصد التظاهر والتعظيم لا يستفيد منه ثوبا لكونه لم ينفق كما اراد الله منه أن ينفق فبقي كالحجر الصلد الذي لا خصب فيه . وعلى العكس من ينفق ماله في سبيل الله بدون رياء ولا من يولى اذى فمثله كمثل جنة خصبة تقوم على ربوة ، فاذا جاءها المطر انتجت واتت بالخير والبركات ، وجاء اكلها ضعفين ، فاذا لم يصبها وابل غزير وانما أصابها طل فانه يفيدها ويخصبها ، فهي على كل حال منتجة مفيدة .

وورد في سورة ابراهيم : « ألم تركيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار .

فيضرب القرءان مثلا هنا للكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة . فالأولى كالشجرة الطيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها . والثانية كالشجرة الخبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار .

والكلمة الطيبة تحمل معنى عاما يشمل النطق الاخلاقي الكريم وقول الحق والصبر على الاذى من أجله .

والكلمة الخبيثة تحمل معنى عاما كذلك فتشمل كل نطق فيه جفاء وضمور وجفاف وأذى وتفاضي عن الحق والاصلاح .

ان الكلمة الطيبة ذات اصل ثابت فهي رفيعة العماد مفيدة مثمرة ، لا تزحزها أعاصير الباطل وهيجانه .

وأن الكلمة الخبيثة من ذات أصل خبيث ، لا ثبات لها ، فلا تلبث أن تجثت من فوق الأرض وتتلاشى ، ولا عبرة بهيكلها الذي قد يفر ضعاف العقول الذين لا يميزون بين المفيد وغير مفيد .

فالخير ثابت واو طعنه الباطل . والشر مزحزح ولو رصع بالاكاليل والتلفيقات السخيفة .

وهكذا يضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون .

وورد في سورة النور : « الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاج كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم .»

فالنور قوام الحياة وعصبها ، فاذا كان الماء أصل الحياة فبالنور تتم الحياة وتزدهر ، وبالكشف عن أسرار النور استطاع الانسان أن يصل الى

مكنونات في الوجود عظيمة . ومن دعاء النبي (ص) : (أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت به الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة) .

ويضرب القرءان هنا مثلا لنور الله الذي يعجز البشر عن أدراكه وسره ليقرب لعقله الضعيف معنى يدركه بحسه .

فمثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المشكاة هي النكة غير النافذة ، فاذا كان المصباح في مشكاة فان نوره يكون أقوى وأبين لتجمع الاشعة في دائرة محدودة . ويزيد تألقه بكون المصباح في زجاجة صافية لامعة كأنها كوكب دري منسوب الى الدر لشدة صفائه . وهذا المصباح يوقد من شجرة مباركة زيتونة . وزيت الزيتون صافي اللعان . وسماها القرءان مباركة لما فيها من الفوائد التي تعود على الانسان . وهذه الزيتون المباركة ليست شرقية ولا غربية أي لا يحجبها عن الشمس أي حاجز لا شرقي ولا غربي ، فتكون ثمرتها ناضجة وطيبة ، وهو بيان للتقريب والايضاح لا غير .

ويعرف رجال الفلاحة أن شجرة الزيتون لا تكون منتجة الا اذا كانت في أمكنة معينة وعلى ارتفاع معين وتتمتع بحرارة الشمس ، لانها لو كانت مظلمة لما أنتجت ، او لانتجت نتاجا سيئا . يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسه نار . ويدرك هذا جيدا من يعرف زيت الزيتون الصافية جدا عند ما تكون في زجاجة شفافة .

أن هذا المثل رائع حقا في تصوير نور الله وهدايته .

والله يهدي لنوره من يشاء من أولئك الذين تتفتح قلوبهم وعقولهم .
وهكذا يضرب الله الامثال للناس والله بكل شيء عليم .

والآية تخاطب قوما لم يكونوا يعرفون ضياء الكهرباء ، ومع ذلك فالمثل يحلق في سماء البلاغة والبيان المعجز ويصور النور تصويرا رائعا حتى في عصر الكهرباء . وهذا من أعجازات القرءان الذي ينتزع من الطبيعة صورا ليقدمها للبشر لعلهم يرشدون .

وما أجمل هذا التصوير القرآني الذي أبرز النور في صورة رائعة .

ثم بعد ذلك تصور لنا الآية تصويرا أخاذا مشهدين للكفر الذي يعيش صاحبه في ظلام من الضلال والجهالة والانحراف ، وذلك في مقابل

صورة الاشراق والنور فتقول : « والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب أو كظلمات في بحر لجي يفشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله نورا فما له من نور » .

فأعمال الكفار كسراب بأرض متسعة ومنبسطة ولا نبات فيها ، تلتهم فيتبعها الظامئ متوقعا الماء بها حسب الرؤية فإذا وصل لا يجد شيئا يروي عطشه .

فهؤلاء الكفرة أعمالهم التي ظاهرها خير ، إذا كان يوم الحساب وجدوها كسراب بقيعة فلا يجازون عليها ، فهي أشبه حالا بالسراب الذي يظنه العطشان ماء ولا يجده كذلك ، ووجدوا يوم البعث الله سبحانه فوقاهم حسابهم على كفرهم وجحودهم وهو سبحانه سريع الحساب .

أو كظلمات في بحر لجي كثير الماء لا يدرك قعره متموج يفشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض .

وهذا المشهد أيضا يصور بطلان أعمال الكفرة ، وكأنه قذف بها في بحر لجي متراكم الفيوم شديد الظلام والهول .

فالكفر ظلام دامس مهول لانقطاع صاحبه عن نور الايمان والطريق السوي ، فلا يكاد يميز النور ، فيرتكس في الظلام والاهوال . ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور .

وهكذا يضرب القرءان الامثال الرائعة البليغة المعبرة عن الكثير في جمل قليلة .

وفي سورة الكهف : « ولقد صرفنا في هذا القرءان للناس من كل مثل وكان الانسان اكثر شيء جدلا » .

فيضرب الله الامثال للناس ليتدبروا ويفتحوا عقولهم ويصرفوا قلوبهم على الكفر والجحود .

والكفرة لم يتوجهوا الوجهة التفكيرية السليمة لينظروا في القرآن ويتدبره شأنهم في ذلك كشأن الجاهليين اليوم بل أخذوا يجادلون ويكثرون من الجدل السخيف البعيد عن الحق والهدى .

والآية تظهر نزعة من نزعات الإنسان ، فهو كثير الجدل ، كثير الغرور ، لا يكاد يستقر على حال .

وكما ساق القرآن الامثال ساق القصص في مواضع مختلفة أيضا ولم يسقها لمجرد الحكاية أو التاريخ ، وانما ساقها لعبرة أو لاقامة حجة ، لكون القرآن ليس كتاب تاريخ بالمعنى التاريخي المعروف .

وتتميز القصة في القرآن بمميزات خاصة تجعلها متناسقة مع ما تنشده الدعوة الاسلامية من بناء وتكوين روحي وموضوعي ونفسي .

وقد نجد قصة واحدة تكررت في القرآن في مواضع شتى لدواعي ملحة قد يغفل عنها القاصرون فيظنون أن في ذلك تكرارا لا فائدة فيه .

ومن الناحية الفنية فالتكرار للقصة في القرآن ليس على نسق واحد لدواعي توجب ذلك ، وبالاخص في موضع الصراع بين الدعوة وخصومها ، وفي اقامة الحجة والبرهان على وجود الخالق ، وتصرفه المطلق في هذا الكون تصرفا قد يخرج بالاشياء عما اعتادت أن تسير عليه من نواميس معينة .

والقرآن عند ما يعرض القصة لا يعرضها الا بقدر الاحتياج الذي يقتضيه المقام ويترك ما عدا ذلك .

وقد اعتنى القرآن اعتناء خاصا بقصص الانبياء وجهادهم في سبيل العقيدة وموقف قومهم منهم موقفا عنيدا قاسيا شريرا ، يعبر عما في النفس الانسانية من جحود وعزوف عن الحق اذا اصطدم بالمصالح الخاصة أو بما آلفه الناس من تقليد بدون أن يحاولوا الاستعمال لتفكيرهم وعقلهم ، ولذلك نجد القرآن يحض على استعمال العقل كلما عرض الى صراع من هذا النوع .

ولا نكاد نجد قصة من قصص الانبياء في القرآن لا تماشي الامتداد الايماني الذي يلهمه الله للناس عن طريق رسله وانبيائه . ثم يخلص لنتيجة واحدة هي وجوب الايمان بالله الذي هو محور الدعوات كلها منذ عهد نوح الى رسالة الاسلام الخالدة .

القرءان الكريم

منذ نزل القرءان وهو محل اكبار واجلال ، لا من المسلمين وحدهم ، بل حتى من اولئك المشركين الذين كانت تاخذهم بلاغته وفصاحته وبيانه وسلامة تعبيره فيصفون صاحبه بالسحر لقدرة تأثيره بالقرءان على العرب الذين كانوا يدخلون في الاسلام سرا وجهرا .

وتاخذ الدعوة الاسلامية طريق نجاحها ، وينتقل النبي (ص) من مكة موطن المشركين الذين اعمتهم الغواية عن التفكير وصرفهم حب الرياسة عن تفهم المعاني السامية التي كان يرشدهم اليها محمد (ص) بآيات القرءان المعجزات الى المدينة حيث وجد الاسلام خصوبة عقول قوم سمعوا القرءان بقلوبهم وافهامهم ، فأطاعوا معانيه السامية وخضعوا لاحكامه الواحدة ، وفي هذا الجو الاسلامي الرائع سجل القرءان انتصاره على غلاظ الاكباد ورعائن الوثنية لينشر الاسلام والاخوة بين البشرية قاطبة وليبني للمؤمنين دولة يطمئنون تحت رايها ، لما في شريعته من أنظمة رائعة تنشئ المحبة والعدل والمساواة والاخوة .

ولم يرق لليهود بالمدينة ان ينتصر القرءان ، ولم تسمح لهم نفوسهم الشريرة برؤية محمد (ص) ينتقل بدينه من مكة الى مدينة يثرب لينشر قرآنه ويكتل حوله جماعات طالما تقاتلت وتخاصمت ولم يستطع احد ان يوحد كلمتها حتى جاء القرءان بنظامه واحكامه ليحقق بينهم الوحدة ، ومع غيرهم من الذين كانت تغمرهم القبلية والعصبية . واخذ اليهود على انفسهم ان يحاربوا الاسلام والمسلمين بالسلاح ان وجدوا السبيل ، فان لم يجدوا فبالمكر والدس والوقعة والاختلاق ، وهي امور يجيدها اليهود منذ كانوا حتى ان علماءهم لم يتورعوا في كيدهم عن أن يدسوا في كتابهم السماوي ما يماشي هواهم ويحقق طيشهم . ولم يكن موقف النصارى على قلتهم بالجزيرة وقتئذ من الاسلام مثل موقف اليهود ، بل كان من بينهم من ينتظر ظهور نبي العرب حسب تنبؤات كتبهم ليدخلوا في دينه وليؤمنوا برسالاته .

والقرءان لم ينزل دفعة واحدة ، وانما نزل منجما حسب الوقائع والاحداث لاصلاح الاحوال وبناء دولة متميزة بتجديدها الانسانية .

والقرءان ككتاب دعوة اسلامية شاملة للعقيدة والشرعية اشتمل على بيان العقيدة في صفائها وعلى وضع أسس التشريع في مختلف الجوانب التي تمس حياة العباد . فرجل التوحيد والفلسفة يبحث فيه عما يؤيد نظريته ، والفقيه يستنبط منه الاحكام ، سواء ما يرجع منها للعبادة ، كالصلاة والصوم والزكاة والحج ، او ما يرجع منها الى الامور المدنية ، كالبيوعات والاجارات ، او الى الجنائية كالسرقة والقتل ، او الى نظام الاسرة والاحوال الشخصية كالزواج والطلاق والارث ، او الى علاقات المسلمين مع بعضهم او مع غيرهم كالقتال واحكام المحاربين والفنائم واليهود . وفيه الوعد للمؤمنين بالاجر والفلاح ، والوعيد للكافرين والمنحرفين الضالين بما يخوفهم من كفرهم وضلالهم ليتوبوا ويرجعوا ، فاذا فعلوا وجدوا ثواب الله وغفرانه وعفوه . وفيه قصص وأخبار لتذكير المتطاولين حتى ياخذوا العبرة ممن سبقهم من الامم ، ولذلك كانت القصة في القرءان قصيرة ، فهي لم يؤت بها لتسجيل التاريخ ، لان القرءان ليس مؤلفا تاريخيا بقدر ما هو كتاب دعوة وتوجيه . وفيه مواعظ وأمثال يضربها الله لمن تاهوا ووقعوا في الاثم والفجور ، كما تضرب أمثال القرءان لاصحاب الفكر ليعتبروا ويتذكروا . ويرجع للقرءان علماء النحو واللفظة والبلاغة والبيان لياخذوا من تركيبه ما يفيدون به اللغة العربية التي حفظت بالقرءان وبقيت آياته من دلائل الفصاحة والبلاغة والابداع . الى غير ذلك مما يشتمل عليه القرءان ككتاب مقدس معجز في أسلوبه ومعانيه .

فأسلوب القرءان لا يضارعه أسلوب ، فهو نسيج وحده في حلاوة أسلوبه وبديع نظمه وعلوبة وضعه وروعة دلالاته وتنوع طرقه وقوة خطابه وانفراده بالدقة في اللفظ والمعنى . « أفلا يتدبرون القرءان ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » .

أما معاني القرءان ، فمنذ نزل والبشر يدرسه ويستنبط منه ويبحث ذخائره وعجائبه حتى جاء العصر الحديث حيث توجه لدراسته جمهور من غير المسلمين ، وأخذتهم الدهشة من هذا الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

ولما كان أعجاز القرءان البياني يتبين في لفظه العربي الدال على معاني دقيقة وتعابير خالدة ، فقد امتنعت ترجمته الاعجازية ، فهو اذا ترجم لفظه فقد قوته التعبيرية ودقة معانيه .

ورسالة القرآن هي رسالة اصلاح وتوجيه الى الخير والرشاد
وابعاد عن المشقة والضيق والحر والجمود ، والتشريع القرآني تشريع
ميسر لا مشقة فيه ولا جمود ، قليل التكاليف ، متدرجا فيما يفرضه من
أحكام .

والمسلمون جميعا عنوا بالقرآن عناية خاصة ، فحفظوه ورتلوه
ودونوه ودرسوه من جميع الجوانب حتى أصبحت دراسته تتطلب الاطلاع
على علوم شتى تجتمع مع القرون التي قطعها الاسلام ، مما يطول التعرض
اياه بتفصيل ، فليرجع الى كتب علوم القرآن وفي مقدمتها الكتاب الجليل :
(الاتقان في علوم القرآن) للحافظ جلال الدين السيوطي .

والقرآن في الفاظه ومعانيه وأساليبه جار على أساليب اللغة العربية
فهو كتاب عربي صميم نزل على رجل عربي أصيل ، قال تعالى :

« أنا جعلناه قرآنا عربيا » .

« قرآنا عربيا غير ذي عوج » .

« نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي
مبين » .

« ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون اليه
اعجمي وهذا لسان عربي مبين » .

والدعوة الاسلامية لما أخذت طريقها الى الانتشار كان لزاما أن
ينتشر القرآن وان تنتشر لفته العربية ، وهكذا احتلت اللغة العربية مكان
الصدارة في العالم على عهد صعود الحضارة الاسلامية وأصبحت بسبب
القرآن لغة العلم والعمران .

ودعوة القرآن دعوة شاملة عامة لا تتقيد بقبيلة ولا جماعة ولا شعب
ولا أمة معينة ، ولذلك فالقرآن ، ولو كانت لفته عربية فأحكامه وتعاليمه
لا تخص العرب وحدهم ، ولكن لا بد لفير العرب اذا ما أرادوا أن يفهموا
كتاب الله على حقيقته وأعجازه فلا بد لهم من تعلم لغة القرآن ، هذا

القرءان الذي فسح لهم الطريق عند جهلهم بلغته وعدم تعلقهم باعجازه أن يتعبدوا به ويتدارسوه حسبما تيسر لهم بلغاتهم .

قال الامام الشافعي بعد ما تكلم على لغة العرب في الخاص والعام :
« فمن جهل هذا من لسانها ولسانها نزل القرءان وجاءت السنة فتكلف القول في علمها تكلف ما يجهل لفظه ، ومن تكلف ما جهل وما لم تثبت معرفته كانت موافقته للصواب ان وافقه غير محمود ، وكان في تخطئته غير معذور ، اذ نظر فيما لا يحيط علمه بالفرق بين الصواب والخطا فيه » .

وقال الشاطبي في الاعتصام تعليقا على قول الشافعي :

« وما قاله حق ، فان القول في القرءان والسنة بغير علم تكلف ، وقد نهينا عن التكلف والدخول تحت معنى الحديث حيث قال (ص) : (حتى اذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالا) الحديث ، لانهم اذا لم يكن لهم لسان عربي يرجعون اليه في كتاب الله وسنة نبيه ، رجع الى فهمه الاعجمي وعقله المجرد عن التمسك بدليل فيضل عن الجادة . وقد خرج ابن وهب عن الحسن انه قيل له : ارايت الرجل يتعلم العربية ليفهم بها لسانه ويصلح بها منطقها ؟ قال : نعم فليتعلمها ، فان الرجل يقرأ الآية فيعيا بوجهها فيهلك . وعن الحسن قال : اهلكتهم العجمة يتأولونه على غير تأويله ...
لزم كل من اراد أن ينظر في اكتاب والسنة أن يتعلم الكلام الذي به أدبت وان لا يحسن ظنه بنفسه قبل الشهادة له من أهل علم العربية بأنه يستحق النظر وان لا يستقل بنفسه في المسائل المشككة التي لم يحط بها علمه دون أن يسأل عنها من هو من أهلها ... » .

فالقرءان نزل بلسان عربي مبين ، ولا يستطيع ان يغوص في معانيه الا من كان ذا مقدرة على تفهم اللغة العربية وأساليبها تفهما قويا وصحيحا وهو شيء يحتاج الى الدراسة الواعية العميقة .

اما في عهد النبوة فقد كان العرب من الصحابة يسمعون الآية فيأخذهم بيانها ، فمنهم من كانت له القدرة على فهم المعنى كله ، ومنهم من كان دون ذلك ، وهناك ثلة من الصحابة كعبد الله بن عباس وعلي ابن ابي طالب وعمر ابن الخطاب وأضرابهم كانت لهم قدرة راسخة في تفهم القرءان وتفهم أسراره ، ومع ذلك لم تكن فيهم الجرأة على أن يتقولوا على كتاب الله بمجرد

الاعتماد على ما ظهر لهم فيما كان في احتياج الى زيادة الاطلاع والتفكير والبحث ، أو ما كان متشابها لا يسمح لهم دينهم ان يتقولوا فيه بمجرد الظن .

ومحمد (ص) الذي نزل عليه القرآن عربي صميم من أفصح العرب فشرحه للقرآن بصفته نبيا وعربيا هو اصح شرح ، وكذلك شروح علماء الصحابة الذين جرى الخطاب على لسانهم وما اعتادوه في كلامهم . ((ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أعجمي وعربي » .

ولا يمكن ان يفهم القرآن فهما صحيحا الا لمن كانت له القدرة العربية على فهمه ، فالذين لا يعرفون العربية من الاجانب او من العرب الذين قصر بهم الحال عن تفهم اللغة العربية ، هؤلاء جميعا يعتمدون في تفهمهم للقرآن اما على مطلق الظن ، والظن لا يفني من الحق شيئا ، او على مجرد ما قاله غيرهم والتقليد في مثل هذا لا يليق بالعلماء والباحثين .

قال الشاطبي في الموافقات تلخيصا من رسالة الامام الشافعي :

فان قلنا ان القرآن نزل بلسان العرب وانه عربي وانه لا عجمة فيه فبمعنى انه نزل على لسان معهود العرب في الفاظها الخاصة واساليب معانيها ، وانها فيما فطرت عليه من لسانها تخاطب بالعام يراد به ظاهره ، وبالعام يراد به العام في وجه والخاص في وجه ، وبالعام يراد به الخاص وظاهر يراد به غير الظاهر ، وكل ذلك يعرف من أول الكلام او وسطه او آخره ، وتكلم بالشيء يعرف بالمعنى كما يعرف بالاشارة ، وتسمى الشيء الواحد بأسماء كثيرة ، والاشياء الكثيرة باسم واحد وكل هذا معروف عندها لا ترتاب في شيء منه ولا من تعلق بعلم كلامها ، فاذا كان كذلك فالقرآن في معانيه واساليبه على هذا الترتيب ، فكما ان لسان بعض الاعاجم لا يمكن ان يفهم من جهة لسان العرب ، كذلك لا يمكن ان يفهم لسان العرب من جهة فهم لسان العجم لاختلاف الاوضاع والاساليب هـ ا .

وقال الحسن البصري : اهلكتهم العجمة يتأولونه على غير تأويله .

وكان أئمة المسلمين رغم تبجرهم في معاني اللغة العربية يتخذون كامل الحيلة عند تفهم معاني القرآن حتى لا يحرفوا الكلم عن مواضعه

ولو بحسن نية ، اذ قد تخفى على الواعي أحيانا بعض مسالك الكلام فيحتاج الى كثير من التروي وتقليب الكلام على وجوهه المختلفة .

قال ابن عباس (ض) : كنت لا ادري ما فاطر السماوات والارض حتى اتاني اعرابيان مختصمان في بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتهأى أنا ابتدأتهأ .

وروي عن عمر (ض) أنه سأل وهو على المنبر عن معنى قوله تعالى : « أو يأخذهم على تخوف » . فأخبره رجل من هذيل أن التخوف عندهم هو التنقص .

فابن عباس وعمر من الصحابة الواعين ، ومع ذلك توقفا في فهم بعض آيات القرآن ، ولا ضير في ذلك ، فاللغة العربية متسعة الجوانب وكتاب الله البليغ يقلب الكلام على الوجوه العربية البانية ، والزلق في فهم القرآن خطير ، وبالاخص ممن هو في مكان القدوة ، ومن أجل هذا كان المخلصون من المسلمين يتخذون الحيلة قبل أن يدلوا بالرأي ، ولنسقط من حسابنا المتنطعين الذين لا يتورعون عن القول حسب هواهم ومشيتهم .

والقرآن كما هو معروف وضع للاسلام اتجاهه العام وكميات قواعده وترك للمجتهدين القادرين من المسلمين أمر التصرف في تطبيق أحكام الكليات على الجزئيات الطارئة ، ولا يتوفر ذلك الا فيمن علم لغة القرآن ومقاصد الشريعة الاسلامية الفراء .

وقد برا الله سبحانه القرآن من أن يكون فيه تضاد في معانيه حيث قال سبحانه : « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » .

وكيف يمكن أن يعرف عدم الاختلاف من لم تكن له القدرة على جمع الآيات بعضها لبعض وتفهمها فهما صحيحا . ولو أن القرآن كان فيه تضارب لتنبه له أولئك الاقحاح الذين بذلوا محاولات لمعارضة القرآن فعجزوا وتحداهم القرآن تحديا صارخا ليقم الحجة عليهم وليستفيد من ذلك التحدي الخلف عند تدبره للقرآن .

والاختلاف في وجهة نظر المجتهدين في فهم القرآن لا يستوجب أن في القرآن تضارباً ، لأن القرآن إنما يقرر معنى واحداً لا يختلف في نفسه ولكن فهم الدلالة في اللسان العربي يفتح المجال للعقل الذي أقره القرآن وحض المسلمين على استعماله ، وهذا يدل على عظمة هذا القرآن وتوجيهه القويم .

واختلاف الآراء رحمة بالعباد ، غير أن هذا الاختلاف إذا تفاحش لا بد أن يرد إلى الله ورسوله كما قال تعالى : « فان تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً » .

والرد إلى الله ورسوله بالرجوع إلى الكتاب والسنة الصحيحة ومقاصد الشريعة وتوجيهات الاسلام العامة التي هي صراط الله المستقيم .

وقد تعرض علماء الاسلام إلى ازالة الشبهة عن بعض الآيات القرآنية التي قد تظهر وكأنها متناقضة كقوله تعالى : « وأقبل بعضهم على بعض يتسائلون » مع قوله سبحانه : « فاذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون » .

وقد أوضح ابن عباس أنه لا تناقض هنا بقوله : فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون في النفخة الاولى : « ونفخ في الصور فصعق من في السماوات والارض الا من شاء الله فلا أنساب بينهم عند ذلك ولا يتساءلون » ثم في النفخة الاخرى : « ثم نفخ فيه اخرى فاذا هم قيام ينظرون . اقبل بعضهم على بعض يتساءلون » .

ان الفاظ اللغة العربية قد تكون واضحة في دلالتها لا تحتمل تأويلاً وحيث يجب أن تفهم حسب دلالتها واما أن تحتمل التأويل ، وهناك تختلف الآراء ، ولكن يجب أن لا تخرج في اختلافها عن مفاهيم الاسلام ومقاصده ، ولذلك نرفض قبول التفسير بالإشارة لانه لا يماشى الدلالة العربية ويختلف مع القرآن نفسه الذي نص على انه نزل بلسان عربي مبين .

والتفسير الاشاري هو ان يؤول القرآن بغير ظاهره لإشارة خفية تظهر لأرباب السلوك والتصوف .

ورغم أن الدلالة اللغوية تختلف مع هذا النوع من التفسير فقد اختلف العلماء فيه ، فمنهم من أجازوه ومنهم من منعه .

قال الزركشي في البرهان : « كلام الصوفية في تفسير القرآن ، قيل انه ليس بتفسير ، وإنما هو معان ومواجد يجدونها عند التلاوة كقول بعضهم في قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار » ان المراد النفس اذ أقرب شيء الى الانسان نفسه » .

وكتفسير أهل الإشارة لقوله تعالى : « واذا قل موسى لقومه ان الله يامرکم ان تذبحوا بقرة » . ان ذبح البقرة اشارة الى ذبح النفس البهيمية ، فان ذبحها حياة القلب الروحانية .

قال السيوطي في الاتقان : « وأما كلام الصوفية في القرآن فليس بتفسير » .

ذلك أن ما يفسرون به لا يتفق ومدلول اللغة العربية ومفاهيم الشريعة .

ومثل هذا التفسير يشوه معاني القرآن ويسيء الى اللغة العربية ويفسد بيان القرآن وبلاغته واعجازه .

قال أبو الحسن الواحدي : « صنف أبو عبد الرحمن السلمي حقائق في التفسير ، فان كان قد اعتقد ان ذلك تفسير فقد كفر » .

وقال النسفي في عقائده : « النصوص على ظواهرها والعدول عنها الى معان يدعيها أهل الباطل الحاد » .

وقال التفتزاني : « سميت الملاحدة باطنية لادعائهم أن النصوص ليست على ظاهرها ، بل لها معان لا يعرفها الا المعلم ، وقصدهم بذلك نفي الشريعة بالكلية » .

قال ابن عطاء الله : « أعلم ان تفسير هذه الطائفة لكلام الله وكلام رسوله بالمعاني الغريبة ليس احالة للظاهر على ظاهره ولكن ظاهر الآية مفهوم منه ما جاءت الآية له ودلت عليه في عرف اللسان ولهم أفهام باطنة تفهم عند الآية والحديث لمن فتح الله قلبه ، وقد جاء في الحديث لكل آية

ظهر وبطن فلا يصدنك عن تلقي هذه المعاني منهم أن يقول لك ذو جدل ومعارضة : هذا أحالة لكلام الله وكلام رسوله (ص) فليس ذلك بأحالة وإنما يكون أحالة لو قالوا : لا معنى للآية إلا هذا ، وهم لم يقولوا ذلك ، بل يقررون الظواهر على ظواهرها مراداً بها موضوعاتها ويفهمون عن الله ما المهمم » .

ولننبه الى أن هذا الكلام صادر عن رجل صوفي ، والصوفية ينحون منحى التفسير الاشاري وهم أهل وجدان وشطحات ، ولو ان الاسلام أسس على الوجدانيات والشطحات لما استطاع ان يؤسس حكماً ولا ان يقيم دولة ولا ان يخوض معارك الحياة على اختلافها ، ولكن قد انقرض منذ زمان كما تنقرض طوائف الدراويش وأحدة تلو الاخرى .

ويقول الاستاذ محمد عبد العظيم الزرقاني في كتابه : (مناهل العرفان في علوم القرآن) :

« ... ومن هنا يعلم الفرق بين تفسير الصوفية المسمى بالتفسير الاشاري وبين تفسير الباطنية الملاحدة ، فالصوفية لا يمنعون ارادة الظاهر بل يحضون عليه ويقولون : لا بد منه اولا اذ من ادعى فهم أسرار القرآن ولم يحكم الظاهر كمن ادعى بلوغ سطح البيت قبل ان يجاوز الباب . وأما الباطنية فانهم يقولون : أن الظاهر غير مراد أصلاً وإنما المراد الباطن ، وقصدهم نفي الشريعة » .

فالاستاذ الزرقاني يحاول ان يبرر اشارات الصوفية دون الباطنية بكون الصوفية لا يرفضون الظاهر بخلاف الباطنية ، وسواء رفض الظاهر أو لم يرفض فان الذي يفسر بالإشارة ينحرف بالقرءان عن مدلوله وهو شيء لا يقبل سواء صدر عن الصوفية أو عن الباطنية ، اذ كل ذلك تفسير بالإشارة .

ولم يثبت ان النبي (ص) كان يفسر القرءان عن طريق الإشارة وهو أعلم الناس بالقرءان ومعاني القرءان .

قال ابن تيمية : « يجب ان يعلم أن النبي (ص) بين لأصحابه معاني القرءان كما بين لهم الفاظه فيقول تعالى : « لتبين للناس ما نزل اليهم » . تناول هذا وهذا » هـ .

وقد كان الصحابة على عهد النبوة إذا تعلموا من النبي (ص) عشر آيات لا يتجاوزونها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل ، وكان النبي (ص) يعلمهم معاني القرآن حسب تنزيله ولم يلوث الصحابة الاولون كتاب الله بالتقولات والتخرصات . وانما كانوا يفهمونه كما تلقوه من صاحب الرسالة بدلالته العربية الواضحة .

وما روجه اليهود من الاسرائليات كان له كبير الخطر على تفسير القرآن ، اذ تأثر بذلك بعض المفسرين وادخلوا ذلك في تفسيرهم فأساءوا للقرآن وللإسلام ولو عن حسن نية . واطن ان التفسير بالاشارة ما هو الا ضرب من انتمسربات التي تسربت للإسلام عن طريق اليهود والمنافقين واحلاس الامم الذين دخلوا للإسلام وفي قلوبهم مرض .

ومن كلام الزركشي في البرهان مختصرا : « للناظر في القرآن لطلب التفسير مأخذ كثيرة أمهاتها أربعة : النقل عن النبي (ص) والاخذ بقول الصحابي ، فان تفسيره بمنزلة المرفوع الى النبي (ص) مما لا دخل للرأي فيه ، والاخذ بمطلق اللغة ، فان القرآن نزل بلسان عربي ، والتفسير بالمقتضى من معنى الكلام ، والمقتضب من قوة الشرع ، وهذا هو الذي دعا به النبي (ص) لابن عباس حيث قال : اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل . والذي عناه علي بقوله : الا فهما يؤتاه الرجل في القرآن . ومن هنا اختلف الصحابة في معنى الآية فأخذ كل برأيه على منتهى نظره ، ولا يجوز تفسير القرآن بمجرد الرأي والاجتهاد من غير أصل ، قال تعالى : « ولا تقف ما ليس لك به علم » . وقال : « وان تقولوا على الله ما لا تعلمون » وقال : « لتبين للناس ما نزل اليهم » . وقال (ص) : « من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار » ه .

وحديث لكل آية ظهر وبطن ، قد فهمه علماء الحديث وشرحوه حسب مشاربهم ، ولكن جلال الدين السيوطي في الاتقان ارتضى ما قاله أبو عبيد : من ان القصص التي قصها الله تعالى عن الامم الماضية وما عاقبهم به ظاهرها الاخبار بهلاك الاولين ، انما هو حديث حدث به عن قوم ، وباطنها وعظ الآخرين وتحذيرهم ان يفعلوا كفعلهم فيحل بهم مثل ما حل بهم ه .

وذكر ان المراد بالظاهر المفهوم العربي ، والباطن هو مراد الله تعالى من كلامه وخطابه .

وقيل الظاهر ظاهر التلاوة ، والباطن هو الفهم عن الله لمراده ، وكان المشركون والمعاندون للإسلام يفلون عن مراد الله في خطابه ، لأن الكفر والضلال طمس بصيرتهم عن الإدراك حيث أنهم لم يسمحوا لعقولهم بأن تفكر وتستنتج وأن كانوا بصفتهم عربا يفهمون ظاهر الدلالة ، وقد يعميهم كفرهم حتى عن فهمها ، والواقع يشهد بأن بعض الناس يسمعون كلاما يفهمونه ، ولكن لا يعونه كما يجب لتشتت عقولهم ، وقد قال تعالى : فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا .

وقال : « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لو جدوا فيه اختلافا كثيرا » .

ولا تفهم دلالة القرآن جيدا إلا باستقصاء معانيه المنبثة في عدة آيات وبمجموع تفهمها كلها يستطيع المرء أن يدرك مدلول الخطاب ، وعلماء الأصول قد تحدثوا بما يكفي ويشفي عن العام والخاص والمطلق والمقيد والمجمل والمبين ، وعن كل ما يدخل في مفهوم الدلالة القرآنية العربية من قواعد تكشف للدارس مفاهيم الدلالة .

والمجتهدون الذين استنبطوا من القرآن أحكاما شتى لم يقدروا على استنباطهم إلا بعد ما درسوا القرآن والسنة دراسة عميقة هي التي منحهم القدرة على تفهم الخطاب الكريم .

والإشارة القرآنية التي كان يفهمها الصحابة كعرب ليست من النوع الذي حاول المتصوفة ومن لف لفهم أن يقحمه على مدلولات القرآن العربية ، ومن أمثلة ذلك :

سئل ابن عباس عن معنى قوله تعالى : « إذا جاء نصر الله والفتح » فقال : إنما هو أجل رسول الله (ص) أعلمه الله آياه . وهو تفسير باطن ، أما ظاهر الدلالة أن السورة فيها أمر للنبي (ص) بتسبيح الله واستغفاره ، إذ نصره الله وفتح عليه .

وهذه الإشارة التي فسر بها ابن عباس مقبولة ولا تخرج بالقرآن عن اتجاهه .

ولما نزل قول الله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا » فرح المسلمون ، ولكن عمر بن الخطاب فهم ان الآية تشير الى قرب أجل النبي (ص) فبكى وقال : ما بعد الكمال الا النقصان ، وبالفعل توفي رسول الله (ص) بعد واحد وثمانين يوما من نزولها .

ولا يخفى على البصير باللغة العربية ان دلالتها تكون على الحقيقة والظاهر أو على أنواع المجاز والتعابير المختلفة ، ولذلك لا يمكن فهم القرآن الا ممن كانت له القدرة الكافية على فهم أساليب اللغة العربية ، وعلى هذا الأساس نستطيع أن نفهم مثل قوله تعالى : « تجري بأعيننا . وهو السميع البصير . والارض جميعا قبضته يوم القيامة . الرحمان على العرش استوى » .

وقال ابن عباس : ان القرآن ذو شجون وفنون وظهور وبطنون ، لا تنقضي عجائبه ولا تبلغ غايته ، فمن أوغل فيه برفق نجا ، ومن أوغل فيه بعنف هوى ، أخبار وأمثال وحلال وحرام وناسخ ومنسوخ ومحكم ومتشابه وظاهر وبطن ، فظهره التلاوة وبطنه التأويل ، فجالسوا به العلماء وجانبوا به السفهاء .

والتفسير بالاشارة فتح بابا من التأويلات المضللة والارجاف بالاقاويل التدجيلية واستغلال ذلك استغلالا بشعا حتى على الصعيذ السياسي كقول من قال في تفسير قوله تعالى : « حمسق » : ان الحاء حرب علي ومعاوية ، والميم ولاية مروانية ، والعين ولاية العباسية ، والسين ولاية السفيانية ، والقاف قدوة مهدي .

وفي تفسير قوله تعالى : « ولكم في القصص حياة يا أولي الالباب » أنه قصص القرآن .

وفي قوله تعالى : « ولكن ليطمئن قلبي » . ان ابراهيم كان له صديق وصفه بأنه قلبه أي ليسكن هذا الصديق الى هذه المشاهدة اذا رآها عيانا .

وفي قوله تعالى : « ربنا لا تحملنا ما لا طاقة لنا به » . أنه الحب والعشق .

وفي قوله تعالى : « الذي جعل لكم من الشجر الاخضر . يعني ابراهيم . نارا اى نورا وهو محمد (ص) . فاذا أنتم منه توقدون . تقتبسون الدين » .

وفي قوله تعالى : « ولا تقربا هذه الشجرة » . ان الآية لم ترد الاكل في الحقيقة وانما أرادت معنى مساكنة الهمة اى لا تهتم بشيء هو غيري . وفي قوله تعالى : « ان أول بيت وضع للناس » الآية أن باطن البيت قلب محمد (ص) .

وفي قوله تعالى : « والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل » . ان الجار ذي القربى القلب . والجار الجنب النفس الطبيعي . والصاحب بالجنب العقل المقتدى بعمل الشرع . وابن السبيل الجوارح المطيعة لله عز وجل .

الى غير ذلك من الترهات التي يجب ان تبعد عن كلام الله وعن مفاهيم الاسلام القويمة .

ان دلالة القراءان واضحة بينة في اللسان العربي ، وقد قال سبحانه : « ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون اليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين » . قيل في المراد بالبشر أنه سلمان الفارسي او حبر من أحبار النصارى دخل في الاسلام او غيرهما ، ممن لسانه ليس عربيا .

وعلى أي فالقراءان يصرخ في وجوه الذين يحاولون الادعاء بأن النبي (ص) كان يتلقى من أهل ديانات أخرى وفي نفس الوقت يثبت في الرد عليهم عربية القراءان وعجمة المشار اليهم ممن لسانهم ليس بعربي .

وقال تعالى : « ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أعجمي وعربي » .

قال الشاطبي في الموافقات : ... فاذا كل معنى مستنبط من القراءان ، غير جار على اللسان العربي ، فليس من علوم القراءان في شيء لا مما يستفاد منه ولا مما يستفاد به ، ومن ادعى فيه ذلك فهو في دعواه مبطل ... ربما أخذ تفسير القراءان على التوسط والاعتدال ، وعليه أكثر السلف المتقدمين ، بل ذلك شأنهم وبه كانوا أفقه الناس فيه وأعلم العلماء بمقاصده وبواطنه . وربما أخذ على أحد الطرفين الخارجين عن الاعتدال

أما على الإفراط وأما على التفريط ، وكلا طرفي قصد الامور ذميم . فالذين أخذوه على التفريط قصروا في فهم اللسان الذي به جاء وهو العربية ، فما قاموا في تفهم معانيه ولا قعدوا كما تقدم عن الباطنية وغيرها ، ولا اشكال في اطراح التعويل على هؤلاء . والذين أخذوه على الإفراط أيضا قصروا في فهم معانيه من جهة أخرى ...

والواقع ان المتأولين للقرآن والخارجين به عن دلالاته في معظمهم انما يفعلون ذلك لغرض ما كما فعل أصحاب السياسة حينما حاولوا أن يستغلوا القرآن لتأييد دعوتهم السياسية . وقد ذكروا ان عبيد الله المهدي رائد المملكة الفاطمية الشيعية كان له مناصران من كتامة ، يسمى أحدهما بنصر الله والآخر بالفتح فكان يقول لهما : أنتما اللذان ذكركما الله في القرآن حيث قال : « اذا جاء نصر الله والفتح » وهو الذي غير قول الله تعالى : « كنتم خير أمة اخرجت للناس » بقونه : (كتامة خير أمة اخرجت للناس) . اليس هذا تزويرا وكفرا وبهتانا ؟ وكيف ستصبح معاني القرآن لو أخذ كل ناعق يؤوله حسب هواه ونعرتة ؟ ، لقد فتح انحراف المتأولين والإشاريين والخارجين عن المدلول العربي أبوابا من البهتان جرت على الاسلام تقولات ما أنزل الله بها من سلطان .

ومهما يقل من شيء فان الدارس للقرآن يجب أن يكون مزودا بمعرفة اللغة العربية معرفة دقيقة وبمعرفة مقاصد الشريعة وأهدافها .

والصحابة الكرم كانوا لا يقولون على القرآن ولا يتكلمون فيه الا بمعرفة وإدراك ، فقد قال أبو بكر (ض) حينما سئل عن قوله تعالى : « وفاكهة وأبا » : أى سماء تظلني وأي أرض تظلني أن انا قلت في كتاب الله ما لا أعلم . ولكن ذلك لم يمنعه من ابداء الرأي عن بيينة واجتهاد ، فقد سئل عن الكلائة في قوله تعالى : « يستفتونك قل الله يفتكم في الكلائة » . فقال : أقول فيها برأيي فان كان صواب فمن الله وان كان خطأ فمني ومن الشيطان . وهو في شرحه للكلائة يعتمد على فهمه العربي وعلى مقاصد الشريعة ، وليس كأولئك المتأولين للقرآن حسب هواهم او كأولئك الذين دفعوا بالقرآن الى مجاهل غامضة وتأويلات مسرفة .

وروى ابن مسعود (ض) انه قال : ستجدون أقواما يدعونكم الى كتاب الله وقد نبذوه وراء ظهورهم ، فعليكم بالعلم ، وإياكم والتبذع ، وإياكم والتنطع وعليكم بالعتيق .

وقال عمر بن الخطاب : انما اخاف عليكم رجلين : رجل يتأول القرآن على غير تأويله ، ورجل ينافس الملك على أخيه .

وقال : ما اخاف على هذه الامة من مؤمن ينهاء إيمانه ، ولا من فاسق بين فسقه ، ولكني اخاف عليها رجلا قد قرأ القرآن حتى أذلّقه بلسانه ثم تأوله على غير تأويله .

فالذي يستطيع أن يفهم القرآن فهما حقيقيا لا بد أن يكون مزودا بالمعارف الكافية ، ولا بد أن يكون أيضا حسن النية والمقصد متفتح المدارك للخوض في دلالات اللغة وأساليبها وحتى الكلمات التي استعملها القرآن معربة قد أخضعها لأساليب العربية بحيث يسهل فهمها على العربي فلا يجد غضاضة في فهمها وهضمها . والدخيل في اللغة وتعدد القراءات كلاهما لا يقدر في مفهوم القرآن ، وكان النابهن من الصحابة يستطيعون فهمه بمجرد سماعه لكونه نزل بلغتهم ، وإن كان يوجد بينهم تفاوت في الإدراك ، لأن العقول مختلفة في درجات الوعي والذكاء بدليل أن الصحابة كان بعضهم يسأل بعضا عن معاني في القرآن . وتاريخ الصحابة يحدثنا عن جماعة من الواعين الذين كان يرجع اليهم ويؤخذ رأيهم في أشياء كثيرة تحتاج الى معرفة القرآن وشريعته كعلي بن أبي طالب وعبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود وأضرابهم .

وفي القرآن آيات متشابهات ، فما شرحه الرسول منها نتمسك بشرحه ، وما لم يشرحه بقى معرضا للتأويلات المختلفة ، وأظن أن بعض المتشابهات إنما تشابهت بالنسبة لنا لا بالنسبة للصدر الاول حيث كانت العقيدة صافية كصفاء اللجين ، ثم بعد أن أخذت تختلط بالمتسرّبات أخذ المتشابه يظهر وكأنه كان مختلفاً .

والقرآن يقرر وجود المتشابه فيقول سبحانه : « هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله الا الله والراسخون في العلم » . ومن أجل ذلك فإن بعض الآيات القرآنية لا تحتاج الى معرفة اللغة فحسب ، بل لا بد معها من معرفة أشياء أخرى .

ونحن ملزمون بتفهم الآيات المحكمات غير ملزمين بادراك حقيقة المتشابه ، لاننا لم نكلف بذلك وإن كنا لم نمنع من المحاولة .

ومهما يكن من أمر فإن الصحابة وحدهم من اقدر الناس على تفهم معاني القرآن ، اذ بلغتهم نزل وهم اعلم بأسباب نزوله ومكامن أسرارهم مع اعتبار ما بينهم من تفاوت في المعرفة ، وملازمة النبي (ص) . ثم خلفهم خلف أقحموا في تفاسير القرآن اشياء ، ثم منهم من ادعى أن كل شيء في القرآن حتى ما يرجع للعلوم ، وغاب عنهم أن القرآن كتاب دعوة قبل أن يكون كتاب علوم ، وأن من الاضرار بالاسلام أن نحشر القرآن فيما لم ينزل من أجله ، أما تفاسير الصحابة وشروحهم فقد كانت بعيدة عن كل المقحمات الطارئة .

وحاول المقحمون ان يستدلوا لعملهم بقوله تعالى : « ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء . ما فرطنا في الكتاب من شيء » . ولكن الواعين من المفسرين حملوها على ما يتعلق بحال التكليف والتعبد . ومن المفسرين من قال : ان المراد بالكتاب في الآية هو اللوح المحفوظ .

ولما كان القرآن كتاباً مقدساً عند المسلمين ومشتلاً على احكام دينهم وعقيدتهم وشريعتهم اهتموا به اهتماماً فائقاً وبحثوا عن معانيه وحفظوه وتدارسوه واستطلعوا معانيه ونشروها بين الناس .

وبعد الهجرة الى المدينة وتحقيق النصرة للاسلام بانتشاره بين القبائل أخذ القراء من الصحابة يذهبون الى هنا وهناك لينشروا القرآن ويوضحوا تعاليمه حتى كان عمر بن الخطاب يرسل الى القبائل قراءاً ويعاقب بعد ذلك من لم يحفظ شيئاً من القرآن ، ثم أصبح من سنة المسلمين أن يحفظوا القرآن ويعتقوا به . ذكر ان أبا الدرداء كان اذا صلى الصبح في جامع بني أمية بدمشق اجتمع الناس عليه للقراءة ، فكان يصفهم عشرة عشرة ويجعل على كل عشرة عريفاً حتى بلغ تلامذته اكثر من ألف وستمائة .

قال الامام الشافعي : رأيت سفيان بن عيينة قائماً على باب كتاب ، فقلت له : ما تصنع ههنا ؟ قال : أحب أن اسمع كلام ربي فمن هذا الفلام .

لقد حفظ المسلمون القرآن وحافظوا عليه بلفظه العربي المنزل على محمد (ص) لاشتماله على شؤون دينهم ولكونه متعبداً بتلاوته ، وقد تقللنا هذا القرآن بالتواتر ، فيكون القرآن الذي بين أيدينا هو القرآن الذي نزل على محمد (ص) بلفظه وجميع آياته من غير تحريف ولا تبديل ولا نقص ولا زيادة .

وتراكيب القرآن كلها عربية ، أما الفاظه فاختلف فيها ، فأجاز بعضهم أن يكون فيه الفاظ من أصل غير عربي ، ولا ضير في ذلك ، وقال بعض آخر : انه لا يوجد فيه شيء من غير لغة العرب ، وما يظن فيه أنه من غير اللغة العربية ، فهو مما تواردت عليه اللغات فتكلم به غير العرب كما تكلم به العرب .

وأظن أن الدخول في مثل هذه المجادلات مما لا طائل تحته ، فالقرءان ولو أن فيه ألفاظا معربة فهو عربي في دلالة ، وهذا هو المهم . ومن عظمة القرآن اشتماله على ذلك ، فهو ككتاب عظيم يظهر للبشرية على اختلافها تسامحه بتعريب كلمات من عدة لغات لكونه لم ينزل للعرب وحدهم وإنما نزل للبشرية قاطبة ، فهو وإن كان عربيا في وضعه يدخل السرور على غير العربي عند ما يجده يستعمل كلمات من لغته ، كما أن ذلك يجعل لغة القرآن تسود وتنتشر وتستوعب الحضارات وتجد آفاقا واسعة للازدهار .

أن القرآن معجزة الاسلام في لفظه ومعناه ، فلكونه معجزا في لفظه أمر الرسول بأن يتحدى به خلاص العرب ، ولكونه معجزا في معناه ففي خلوده واستمرار تعاليمه وتجدها كلما نظر فيها بامعان وتدبر ، ولا أدل على ذلك من صموده للضربات ووقوفه في عصرنا هذا ، عصر المخترعات في وجه كل مبدا أرضى مفتعل .

أن المذاهب تنقرض ولكن القرآن لا زال بتعاليمه يقف شامخا في وجه الأعاصير .

فإن كانت هناك عقائد ، فللقرءان عقيدته ، وإن كانت هناك أخلاق ، فللقرءان أخلاقه ، وإن كانت هناك مبادئ واتجاهات ، فللقرءان مبادئه واتجاهه ، وإن كان هناك تشريع ، فللقرءان تشريعه الخالد ، وإن كانت هناك قوانين للحكم والعدل والمساواة ، فالقرءان من السابقين في هذه الميادين بجانب أشياء أخرى كثيرة تنتشر في آياته البينات هنا وهناك .

ويجب أن لا نفعل أن القرآن ككتاب دعوة يخاطب الضمير ويفتح القلوب بميزة اختص بها وهي أنه يحث على التفكير ويدعو إلى استعمال العقل ويؤيد العلم ولا يعاديه كما فعلت الكنيسة في الماضي حينما كانت تدين المفكرين والعلماء .

ومن مميزات القراءان بالنسبة للمجتمعات انه جعل الحكم شوريا اي ديموقراطيا في أجمل صور الديموقراطية واحسنها ، ومنع السيطرة الفردية المطلقة لانه لا سيطرة الا لله ، والبشر انما هم خلفاء في الارض ، فلا ينبغي ان يتعدوا ما استخلفوا فيه ليصبحوا فراعنة متألّهين .

وشورية الاسلام في القراءان تخضع للرأي وتراعي الذمة والضمير والعهد والميثاق وتبتعد عن ضلال الشرك والوثنية ، وتمنع على المسلم ان يضل عن سبيل الله من أجل السياسة بخضوعه لمخلوق يسخره ويستعبده وتوجب عليه ان يامر بالمعروف وينهى عن المنكر في نفسه أولا ثم في غيره بالحكمة والموعظة الحسنة والاقناع ، واذا استنزف طرق الحكمة والاقناع فله ان يدفع الشر بالطرق التي يراها صالحة لدفعه .

والحاكم في نظر شريعة القراءان ما هو الا خادم لمصالح اخوانه ، فيجب ان يكون مخلصا فيما يليه من أعمال والا عد خارجا عن طاعة الله ورسوله وذمة المؤمنين ، وعلى المحكومين ان يعاونوا حكامهم الصادقين على الخير اذا استقاموا بما يصاح دينهم وديناهم .

والقراءان لا يقبل ان يثري الحكام او غيرهم على حساب عرق الناس ولذلك وزع الثروة توزيعا عادلا وحمل على المحتكرين ووعدهم بالعقاب والخسران ، فالمال مال الله والخلق عيال الله ، وعدالة الله اشرف وأكرم من ان تسمح بأن يسخر عياله كما تسخر البهائم والجمادات .

واذا كان القراءان يقر التفاوت في أشياء لا بد من التفاوت فيها فانه لا يقر التفاوت في الحقوق والواجبات والعادل والحرية والكرامة والمساواة .

ان العالم لا يستوي مع الجاهل ، والقادر لا يستوي مع العاجز ، والمصلح لا يستوي مع المفسد ، والمجد لا يستوي مع الخامل ، ولكن لا عصبية ولا جنسية ولا طائفية ولا محسوبية ولا تمييز في الحقوق والواجبات بين الرجل والمرأة الا فيما لا يمكن ان تكون المراه فيه رجلا او العكس .

ولما كان المسلمون مضطرين الى ان يرتبطوا بغيرهم ارتباطات دولية
أشار القرآن الى وجوب الوفاء بالعهد ما لم ينقض الطرف الآخر أو لم يف
بكل ما تعهد به .

والقرآن عند ما شرع الاحكام نص على العقوبات الزاجرة للمعتدين
ليستقيم مجتمعه ، وتضمن سلامته الصحية والعقلية والحكمية والاقتصادية
والعلمية ، ويحفظ من الفوضى والاضطراب ، والتنافس غير الشريف وهو
في ذلك يريد من المسلم ان يكون نظيف اليد والقلب واللسان والضمير ،
قوي الارادة ثابت العقيدة ، راسخ الايمان ، محافظا على فروضه ، بعيدا
عن الرهبانيات .

ومبادئ القرآن السامية هي التي جعلته ينتشر بقوة خارقة مما
أثار الضغينة والحقد عليه من أولئك الذين وقفوا منه موقفا لا يشرفهم ،
وبلغ بهم الحقد ان تقواوا على صاحب الرسالة بأقاويل يمجها الذوق
السليم .

والقرآن لم ينتصر بالقوة كما يزعمون وإنما انتصر بمبادئه وعمق
ايمان معتنقيه ، ولو أنه استعمل القوة والعنف لما ترك مغلوبيه أحرارا في
عقائدهم ، إذ كل أحداث الاسلام شهامة وتسامح لا نظير لهما ، تسامح مع
اليهود ، فدرسوا عليه ما شاءت لهم طويتهم الشريرة وأخلاقهم العارية عن
كل فضيلة ، وتسامح مع النصارى ، فجردوا عليه حملاتهم الصليبية التي
تشوه تاريخهم وتشكك فيه .

وهذه شهادات من علماء نصارى في الاسلام ودعوته :

يقول الدكتور غستاف لوبون في كتابه (حضارة العرب) :

... وقضى أعداء الاسلام من المؤرخين العجب من سرعة انتشار
القرآن العظيمة فعزوها الى ما زعموه من تحلل محمد وبطشه ، ويسهل
علينا ان نثبت ان هذه المزاعم لا تقوم على أساس ... وسيرى القارىء
حين نبحث في فتوح العرب وأسباب انتصاراتهم ، ان القوة لم تكن عاملا
في انتشار القرآن ، فقد ترك العرب المغلوبين أحرارا في أديانهم ، فإذا
حدث ان اعتنق بعض الاقوام النصرانية واتخذوا العربية لغة لهم فذلك لما

رأوا من عدل العرب الغالبين ما لم يروا مثله من سادتهم السابقين وبما كان عليه الاسلام من السهولة التي لم يعرفوها من قبل ...

ويقول روبرتسون في كتابه : (تاريخ شارلكن) :

« ان المسلمين وحدهم هم الذين جمعوا بين الفيرة لدينهم وروح التسامح نحو اتباع الاديان الاخرى ، وانهم مع امتشاقهم الحسام نشرا لدينهم تركوا من لم يرغبوا فيه أحراراً في التمسك بتعاليمهم الدينية » .

ويقول ميشود في كتابه (تاريخ الحروب الصليبية) :

« ان القراء ان الذي أمر بالجهاد متسامح نحو اتباع الاديان الاخرى ، وقد أعفى البطارقة والرهبان وخدمهم من الضرائب ، وحرم محمد (ص) قتل الرهبان لعكوفهم على العبادات ، ولم يمس عمر بن الخطاب النصارى بسوء حين فتح القدس ، فذبح الصليبيون المسلمين وحرقوا اليهود بلا رحمة وقتما دخلوها » .

ويقول الراهب ميشو في كتابه (رحلة دينية في الشرق) :

« ومن المؤسف أن لا تقتبس الشعوب النصرانية من المسلمين التسامح الذي هو آية الاحسان بين الامم واحترام عقائد الآخرين وعدم فرض أى معتقد عليهم بالقوة » .

ويقول جرجي زيدان في كتابه (تاريخ التمدن الاسلامي) :

« ... ومن العوامل الفعالة في سرعة نضج العالم في النهضة العباسية وكثرة ما ترجم في تلك المدة القصيرة ان الخلفاء أصحاب تلك النهضة كانوا يبذلون كل مرتخص وغال في سبيل نقل الكتب ويرغبون النقلة وغيرهم بالبذل والاكرام بقطع النظر عن مللهم او نحلهم او أنسابهم ، وقد كان فيهم النصراني واليهودي والصائىء والسامري والمجوسي ، فكان الخلفاء يعاملونهم كافة بالرفق والاكرام مما يصح ان يكون مثالا للاعتدال والحرية وقدوة لولاة الامور في كل العصور » .

ويقول الاستاذ فنسنك في كتابه (مسلم كريط) :

(ومع أن نصارى الشرق كان يقل عددهم باعترافهم الاسلام ، فقل منهم من أسلم كرها) .

ويقول الدكتور فيليب حتي :

« ونستطيع القول ان المسيحيين كأقلية في البلدان المسلمة لم يكن حظهم أقل من حظ الكثير من الاقليات حتى في البلدان المتمدنة الآن » .

ويقول هـ . ج . ولز في كتابه (معالم تاريخ الانسانية) :

« ... فهذا الاحاح على الرفق والرعاية في الحياة اليومية انما هو واحد من فضائل الاسلام الكبرى ، بيد أنه ليس الفضيلة الوحيدة فيه . ويعادل هذا في الاهمية التوحيد الذي لا هوادة فيه والذي يتجرد من كل اعتزال يهودي وهو توحيد يدعمه القرءان الكريم ، وكان الاسلام منذ البداية قوي المقاومة الى حد بعيد لعمليات الصقل والتفاصيل الهوتية التي اربكت المسيحية وفرقت كلمتها وقضت على روح عيسى ... ولا يزال للاسلام حتى يومنا هذا فقهاء ومعلمون ووعاظ ، ولكن ليس له كهنة ولا قساوسة . كان مليئا بروح الرفق والسماحة والاخوة ، وكان عقيدة سهلة يسيرة الفهم ، وقد وقفت ضده اليهودية ثم المسيحية ، كما حاربه المزدكية نحلة المجوس ... وقد أوصل محمد (ص) هذه المبادئ الجذابة الى سويداء القلوب دون اى رمزية مبهمه ودون اى تعميم للهياكل ولا ترتيب للقسوس » هـ .

هذه بعض من آراء حول الاسلام وقرآنه وما اكثرها ، اذ القرءان بنصاعته ومبادئه قد اجتذب كبار المفكرين اليوم ، كما اجتذبهم في الماضي ، وأصبح الاسلام في هذا العصر يحتل مكانة بارزة في الدراسات الغربية بحيث لا تكاد جامعة في أوروبا لا يحتل كرسي الاسلام فيها مكانة ، وكثرت الدراسات حول الاسلام كثرة لا تحصى من جميع جوانبه .

والمسلمون منذ اضاء لهم الاسلام معالم الطريق وهم يحلقون حول القرءان دارسين ومتقبين حتى غدت الدراسات القرآنية لديهم تمييز

بالعمق والتحليل والاستنباط ، والفت الكتب العديدة وقعدت القواعد
لدراسة القرآن وتفهمه والخوض في أسرارهِ وما أكثرها حتى بلغت
دراساتهم الى البحث في تعداد آيات القرآن وكلماته وحروفه وآداب
تلاوته ومعرفة غريبه وما وقع فيه بغير لغة الحجاز وبغير لغة العرب
والنظائر ومعرفة أعرابه .

وباختصار لقد درس القرآن من كل الجوانب التي تخطر على العقل
ووضعت التفسير والكتب المطولة لذلك ولا زال القرآن يدرس ، ولا
زال أعاجيبه تكتشف ، ولا زالت قدسيته تبرز الملحدين والجاحدين .

قال نبي الاسلام (ص) : ما من الانبياء نبي الا اعطي ما مثله آمن عليه
البشر ، وانما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله الي فأرجو أن أكون أكثرهم
تابعاً .

وذكر في معنى هذا الحديث : ان معجزات الانبياء انقرضت بانقراض
عصورهم ، فلم يشاهدها الا من حضرها ، ومعجزة القرآن مستمرة الى
يوم القيامة .

وقد اطل علماء الاسلام في شرح أوجه اعجاز القرآن وألقوا في ذلك
التأليف المطولة وأكثروا من التحليلات والبيانات حتى لم يبق عالم من
علماء الاسلام الا وتجده له قولاً او رأياً في أوجه اعجاز القرآن . وفي هذا
الموضوع سئل الامام الغزالي عن معنى قوله تعالى : « ولو كان من عند
غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كبيراً » . فأجاب : الاختلاف لفظ مشترك
بين معان ، وليس المراد نفي اختلاف الناس فيه بل نفي الاختلاف عن ذات
القرآن ، يقال هذا كلام مختلف اي لا يشبه أوله آخره في الفصاحة او هو
مختلف الدعوى أي بعضه يدعو الى الدين وبعضه يدعو الى الدنيا ، او هو
مختلف النظم فبعضه على وزن الشعر وبعضه منزه على أسلوب
مخصوص في الجزالة وبعضه على أسلوب يخالفه ، وكلام الله منزه عن هذه
الاختلافات ، فانه على منهاج واحد في النظم مناسب أوله آخره وعلى درجة
واحدة في غاية الفصاحة ، فليس يشتمل على الفث والسمين ، ومسوق
لمعنى واحد وهو دعوة الخلق الى الله تعالى وصرفهم عن الدنيا الى الدين ،
وكلام الآدميين تنطرق اليه هذه الاختلافات ، اذ كلام الشعراء والمترسلين
اذا قيس عليه وجد فيه اختلاف في منهاج النظم ثم اختلاف في درجة

الفصاحة بل في أصل الفصاحة حتى يشتمل على الفث والسمين ، ولا ينفك كلام آدمي عن هذه الاختلافات ، لأن منشأها اختلاف الأغراض بالاحوال ، والانسان تختلف أحواله فتساعده الفصاحة عند انبساط الطبع وفرحه ، وتتعذر عليه عند الانقباض ، وكذلك تختلف أغراضه فيميل الى الشيء مرة ويميل عنه أخرى فيوجب ذلك اختلافا في كلامه بالضرورة فلا يصادف انسان يتكلم في ثلاث وعشرين سنة وهي مدة نزول القرآن ، فيتكلم على غرض واحد ومنهاج واحد . ولقد كان النبي (ص) بشرا تختلف أحواله ، فلو كان هذا كلامه او كلام غيره من البشر لوجدوا فيه اختلافا كثيرا .

فأهداف القرآن بواضحة واساليبه بينة تماشي مفاهيم اللغة العربية لانه نزل بلسانها ، ولذلك قال بعض العلماء : « يجب على المفسر أن يتحرى في التفسير مطابقة المفسر وأن يتحرز في ذلك من نقض لما يحتاج اليه في ايضاح المعنى او زيادة لا تليق بالغرض ، ومن كون المفسر فيه زيغ عن المعنى وعدول عن طريقه وعليه بمراعاة المعنى الحقيقي والمجازي ومراعاة التأليف والغرض الذي سيق به الكلام » .

وقال أبو حيان : « كثيرا ما يشحن المفسرون تفاسيرهم عند ذكر الاعراب بعلل النحو ودلائل مسائل أصول الفقه ودلائل مسائل الفقه ودلائل أصول الدين ، وكل ذلك مقرر في تأليف هذه العلوم ، وانما يوخذ ذلك مسلما في علم التفسير دون استدلال عليه ، وكذلك أيضا ذكروا ما لا يصح من أسباب النزول وأحاديث في الفضائل وحكايات لا تناسب وتواريخ اسرائيلية ، ولا ينبغي ذكر هذا في علم التفسير » .

ليس أبو حيان هنا يدعو الى تنقية القرآن مما علق به من الشوائب والى الاقتصار على معنى القرآن الكريم لانها وحدها التي تهتم ، واما القواعد فليرجع اليها في الكتب المؤلفة في علوم اللغة والبيان وغير ذلك ، وأن كان القرآن اكبر حجة في اللغة العربية ، ولكن ذلك لا يستلزم أن نشوش التفاسير بأشياء بعيدة عن المعنى السامي للقرآن فلعلماء اللغة والبيان أن يستدلوا بالقرآن على قواعدهم ، ولكن المفسر للقرآن ليس ملزما بنقل القواعد وشروحها أثناء التفسير كما يجب أن يبعد من التفاسير الاحاديث الموضوعية التي يأتي بها بعض المفسرين كدليل على فضائل بعض الآيات بدعوى الاستئناس بها ، لاننا نرفض الوضع في جميع أشكاله ، إذ القرآن

أسما من أن يؤيد بالموضوعات ، وكذلك يجب تطهير التفاسير من الخرافات والحكايات والأسرائيليات عموما ، فقد ألحقت كلها أضرارا بالقرآن والاسلام وجعلت المسلمين يعتقدون صحتها ، مع أن معظمها ليس باطلا علميا فحسب بل لا يتفق مع المنطق والعقل ، والقرآن لا يجادل ألا بالمنطق والعقل ويرفض الاباطيل كيفما كان نوعها ومصدرها .

واذا عزم المسلمون على بناء مجدهم على أسس قويمه فليرجعوا الى قرآنهم بعقلية متجددة واعية بعيدة عن تضليلات الاسرائيليين والصليبيين والمبشرين والمستشرقين .

اما العرب فعليهم أن يدركوا هذا جيدا ويدركوا أيضا أن القرآن نزل بلسانهم وأخرجهم من جاهليتهم الى نور الحق والمعرفة ومن انكماشهم الى حيث وضعوا أيديهم على ممالك عظيمة وأمبراطوريات شاسعة ، فهم لم يسودوا الا بالقرآن ولم يتغلبوا الا بأحكامه الرشيدة وحججه البليغة ، وبالقرآن استمتعوا بنضارة الحياة وطيباتها ، وبه دانت لهم الرقاب ، لا ليستعمروها ولكن ليرشدوها وياخذوا بيدها الى قمة المجد والخلود .

ان على الامة الاسلامية جمعاء وهي في طريق نهوضها ان تراجع تاريخها وحضارتها وان تسترشد بقرآنها وأن لا تسقط في عبادة المادة وحدها وتبتعد عن الناحية الروحية فتقع في هوة من الشذوذ والفساد ، ولو أن الامة الاسلامية في نهضتها الحاضرة اندفعت في طريق المادية المجردة ، وابتعدت عن سبيل القرآن لحل بها ما حل بالدول الغربية ، ولكنها اذا تقدمت علميا وتقنيا وتكنولوجيا وتمسكت بهدي القرآن الذي لا يغفل الجانبين معا ، فانها سوف تنقذ الانسانية كلها كما أنقذها الاسلام من ضلالها في عصور الجاهلية الاولى .

والقرآن الذي هدى الانسانية من جاهليتها ليس كتابا ارشاديا روحيا فحسب وانما يضيف الى ذلك نظما وتشريعات وتلقينات خارقة لها جميعها مكانتها في المادة والحكم والاخلاق وكل المجالات التي تمس حياة الفرد والجماعة سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وعلميا وعقليا .

ان القرآن يهدي للتي هي احسن بصدر رحب وتسامح وتفتح على الدنيا وما فيها من خير وبركات .

والذي أصاب المسلمين ليس من القرآن وإنما من انحرافهم عن القرآن ، خلافا لما يزعمه أعداء الإسلام ؛ لأن الإسلام دعا المسلمين للشورى فحكموا بالاستبداد ، ودعاهم للعدل فظلموا ، وللمساواة فاتبعوا نعراتهم ، وللأخوة فتقاتلوا وتنابدوا حتى عز العثور على الحكم الإسلامي النزيه العادل بعد الصدر الاول من الاسلام ، ومع ذلك تجدهم في ظلمهم يتمشدقون بالقرآن وهي شنشنة المنافقين .

والقرآن لا يمنع من الاخذ بمظاهر القوة والعلم بل يحض على ذلك ويامر به ، ومن آياته : « هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ » .

اليس القرآن هو أول كتاب سماوي ينادي باستعمال العقل والفكر بدون تحديد ؟

اليس القرآن هو الذي هاجم المقلدين والجامدين وشنع عليهم في تقليدهم وجمودهم ؟

اليس القرآن هو الذي عاب على المسلم أن يكون ضعيفا وجباناً وخائراً ؟ لأن الضعف والجبن والخور علامة على المذلة والانهيار ، والقرآن يقول : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » .

وإن أولئك الذين يدعون إلى نبذ القرآن لأنه كتاب ديني ، لا يخرجون في دعواهم عن الإيمان بشيء آخر يسمونه بأسماء مختلفة ، وهذا الشيء الذي يدعو إليه لا يخرج عن كونه ديناً غير سماوي .

إن كل فلسفة ظهرت في أوروبا تأثرت بمؤثر ما وخضعت لظروف معينة كشفها الباحثون والناقدون . والواقع يكشف أن الذين يهاجمون القرآن ويفترون عليه ويدعون أنهم من أنصار العدالة والحرية كاذبون لكونهم ينادون بأفكار لا يطبقونها فهم مستعمرون مذلون ومستغلون أو مشبعون بروح صليبية متعصبة تجري في عروقهم وتظهر على فلسفتهم الغربية البعيدة عن تفهم أسرار القرآن وما يرمي إليه من قيم عميقة الجذور .

وليس من المعقول أن يستدلوا على الإسلام بالمسلمين لأننا نقر بأن المسلمين أنفسهم إنما هم مسلمون بالجنسية . فهل من المعقول أن نستدل بأعمالهم على الإسلام ؟

إن التاريخ يشهد بأن البربرية والنكوص والوحشية لم تترعرع إلا في أوروبا المتمدينة اليوم وأن بلاد الإسلام ولو حكمها حكام مستبدون لم ترتكس في الاثم كما ارتكست أوروبا قبل أن يمسيها هدي من الإسلام وحضارته .

فلماذا يحملوننا أوزارهم ويدعون لأنفسهم السمو وأيديهم تقطر بدماء الأبرياء في الماضي والحاضر ؟

ولماذا يدلسون علينا وهم الذين سنوا قوانين حروب الغاب إن كانت لها قوانين ؟

إنما الذي يشرح النفوس أن بعض الأوروبيين قد أخذوا يحاولون الخروج من الدروب الضيقة الموروثة ليفتحوا نافذة على القراء حتى يكون حكمهم صحيحا بالنسبة للإسلام .

أما بالنسبة للمسلمين في العالم الإسلامي فلا بد من التبشير بينهم بدينهم لأن التشويه طغى على العقول وبالاخص بالنسبة إلى الشباب الذي أصبح لا يعرف عن الإسلام إلا شذرات مبتورة ، فإذا لم يوجه هذا الشباب الوجهة الصحيحة فإنه سوف يكون ذبلا لاعداء القراء إن لم تكن طائفة هامة منه قد أصبحت بالفعل ذبلا وخطرا على الإسلام وأوطانه .

ولا يدعو إلى نبذ المادة من المسلمين إلا من كان جاهلا أو جامدا أو معتوها ، وكل هؤلاء لا قيمة لهم في ميزان العقل والطموح .

ومن الدسائس الاستعمارية التي يروج لها الاستعماريون بين الشباب أن الدعوة للإسلام تراجع ونكسة إلى الوراء ، وهو ادعاء لا يرتكز على أساس صحيح ويتنافى مع آيات القراء الكريم ، ويرمون من وراء ادعائهم لنبيذ القراء إلى إضعاف شأن المسلمين الذين سادوا بالقراء وبه اضاءوا للإنسانية معالم الطريق .

وجهل المسلمين بالقرءان هو الذي أوقعهم في شرك أعدائهم .

ان رسالة الواعين بالاسلام من المسلمين تقتضي منهم ان يقوموا بالتوعية وشرح القرءان للمسلمين في صفائه وطهارته وتسامحه وأخذه بأسباب العيش والقوة والتجديد .

ان رسالة القرءان قد أفسدها الظلم والاستبداد وخربتها الاطماع والشهوات ونخرتها عقلية جماعة من العلماء الذين في عنقهم رسالة لم يؤدوها ، لان بين صفوفهم أصحاب الزلفى والتملق والتناق .

ولم ينصر الاسلام الا ببذل المسلمين الاولين ، والمسلم الشحيح لا يمكن ان ينقد الاسلام الذي لا ينتصر الا بالبذل والسخاء ، وكل مسلم تخلى عن هذا الواجب ، فاسلامه مطعون واو صلى وصام .

روى ابو داود مرفوعا الى النبي (ص) : « يوشك أن تداعى عليكم الامم كما تداعى الاكلة على القصاع ، قالوا : أو من قلة فينا يومئذ يا رسول الله ؟ قال : بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، وسينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن في قلوبكم الوهن . قال قائل : يا رسول الله وما الوهن ؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت » .

فالمسلمون ضعفوا لتعسهم وانطفاء جذوتهم الكفاحية ليحل محلها جمود وخوف وأوهام مع ان القرءان يناديهم للعمل والكد والمثابرة وينهاهم عن اليأس والانكماش والاستجداء .

ويقول القرءان الكريم : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا » .

وهذا بالعمل الذي هو من أكاد واجبات المسلم المتين الايمان ، هذا المسلم الذي أباح له القرءان التمتع بالخيرات ولفت نظره لان يعنى خلافته في الارض وما سخر له في الكون وما أعطي من مواهب .

وفي القرآن الكريم : « يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون » .

« يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا الله ان كنتم اياه تعبدون » .

« ألم تر ان الله سخر لكم ما في السماوات وما في الارض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » .

وأذا كان القرآن قد وصف الدنيا في بعض آياته بأنها متاع الفرو ، فما ذلك الا للحفاظ على التوازن بين المادة والروح حتى لا ينساق المسلم مع الدنيا وينسى ربه ويتعدى حدوده : « ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى » .

والمسلمون في المصدر الاول من الاسلام لم يتأخروا عن العمل من أجل الدنيا مع احتفاظهم بإيمانهم وعدم انسياقهم مع الهوى والفرو ، وكان من بين الصحابة أصحاب الثراء والاموال ولم يعب عليهم الرسول (ص) ذلك بل أنهم بأموالهم نصروا الاسلام وجهزوا جيوشه وبنوا أمجاده .

ونجد العقيدة في القرآن واضحة بيّنة لا تحتاج الى طقوس ولا وساطات ولا حبس للنفس والجسم بالتعذيب ، ولا تحتاج العقيدة القرآنية الى قصص وخرافات لتزين ، وتحجب كما يقص الرهبان على زبائنهم المتدينين .

وتنهي عقيدة القرآن عن التزلف لغير الله في أي صورة من العبودية لان ذلك يذل النفس ويحد من طموحها ويقيد بها بقيود من الانحلال والخنوع .

ونجد الآيات الزجرية في القرآن لا تقصد الزجر لذاته بل تقصد العمل الصالح والاخلاق الفاضلة وإبعاد الخلق على الظلم والغواية والفحش والشور حتى يستطيع المسلم أن يفرق بين الهدى والضلال ، وفي هذا المجال يضرب القرآن الامثال ويقص القصص للمقارنة والتذكير .

« وكذلك أنزلناه قرآنًا عربيًا وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا » .

وكما حدد القرآن العقيدة حدد النظم التي تهم المجتمع الاسلامي من حكم وعدل وحرية وشورى وقضاء ومعاملات وأحوال شخصية وحدود واقتصاد وتربية ، وأمر بتحسين ذلك بالقوة ابرادة ، وأباح مقاتلة المعتدين ، وحدد الروابط الدولية في السلم والحرب ، ورفع عن المكلفين الحرج والمشقة ، وحمل على المتطاحن الطبقي والعنصري والطائفي ، ونهى عن المس بالاعراض .

وأوجب طاعة الله ورسوله وطاعة أولي الامر اذا استجابوا لله ورسوله وحكموا كتابه وسنة نبيه .

ولم ينص على كيفية اختيار اولي الامر توسيعا على المسلمين ، اذ الكيفية لا تهم ، وانما المهم تحقيق العدل والشورى والمساواة والحريات .

ولا بد ان يكون الوالي راعيا امينا ، لا تاجرا ماكرا او مخائلا منافقا او مدلسا كذابا ، ولا بد ان يكون رؤوفا لينا ، لا قاسيا مستغلا ، ولا بد ان يكون هدفه الاول مصلحة المسلمين لا مصلحته ومصلحة خدامه ومتملقيه من أصحاب الشره وأطمع والندالة والنكوص .

ومهما لم تتوفر الشروط في الوالي الا ويجب نبذ طاعته وانزاله من عليائه ، لانه ناصب العداء لله ورسوله والمؤمنين .

وحذر القرآن المسلمين من الاستكانة لحكم أعداء الاسلام وأمرهم بمحاربتهم والتخلص من سيطرتهم .

ولا تتوفر جذوة الكفاح والنضال الا بتنشئة المسلم على الشجاعة والاقدام وتجنبه مسالك الذل والخوف والجبن والضعف والالوهام .

كما يحذر القرآن من الانصياع لكل ناعق أفاك مفرض ، اذ لا قوة الا بوحدة المسلمين ، ولا يجني المسلمون من الفتن والتفرقة الا الهوان .

والقراءان لا يقر التفرة بين الرجل والمرأة في الاحكام والحقوق والواجبات الا مما يخص طبيعة احدهما دون الآخر ، وهو عند ما يخاطب المؤمنين لا يميز بين الرجال والنساء .

ويهتم القراءان بطبقة الفقراء والضعفاء لان معظم اصحاب الجناه والثروة يتشبث بالاثرة والانانية ، ولا يقبل ان تكس الثروة في أيدي طبقة خاصة حتى لا ينشأ في المجتمع الاسلامي رهط من الاستغلايين والمحتكرين .

ويقر القراءان الملكية الخاصة غير المستغلة ويبيح للناس التصرف في اموالهم بالطرق المشروعة ، اذ من اهدافه العامة حرمة الاموال والدماء والاعراض .

ان القراءان لا يريد من تكاليفه ان تكون عسيرة قاسية موحشة ، وانما يريد لها سهولة بسيطة مستأنسة واضحة بينة ، ويقرر ان الانسان لا يواخذ بالخطأ والنسيان والاكره والاضطرار . ويقول النبي (ص) : « رفع عن امتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » .

ومن الاخطاء ما يلحق الضرر بالغير ، ولذلك اتخذ القراءان احكاما في الخطأ ، كالقتل خطأ لكونه ازهق نفسا بريئة وعرض ذوبها للضياع وانزل بهم نكبة فادحة فقرر لهم التعويض تخفيفا لما اصابهم من البلاء .

والناسي غير مؤاخذ بما نسيه ولو كان فرضا من فروض الدين ، اذ من الحرج ان يؤاخذ الانسان بنسيانه فيظلم ، والله منزه عن الظلم ، فهو سبحانه اعدل العادلين .

والمكره لا يؤاخذ بما استكره عليه ولو كان حراما اذا خشي شره .

كما رفع الحرج عن المضطر وأبيح له ما حرم للضرورة . فاذا زال المانع رجع التكليف الى حاله .

قال تعالى : « وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم ، وكان الله غفورا رحيمًا » .

وقال : « من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان » .

وقال : « فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا اثم عليه » .

وقال : « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا » .

وقال : « والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا تكلف نفسا إلا وسعها » .

ويحذر القراءان المسلمين من موالة اعداء الاسلام ممن يضمرون الشر للاسلام ، والمسلمين ، فهم اما غير مخلصين واما متربصون واما جواسيس .

وما اغتصاب فلسطين الا دليل قائم على نوايا الكفار ازاء المسلمين .

واذا كان القراءان يحذر من اعداء الله ودسائسهم فانه يدعو للتسامح في معاملة غير المسلمين وخصوصا اذا لم يقصدوا الشر بالاسلام والمسلمين .

ان التاريخ يشهد على انه لم يتسامح اهل دين كما تسامح اهل الاسلام مع غيرهم حتى استطاع اهل الديانات الاخرى ان يعيشوا تحت ظل الاسلام عيشة هنيئة رغيدة سمحت لهم بالتمتع بشعائهم والتصرف في ممتلكاتهم والاشراف على امراضهم كما يشاءون ، وسمح لهم المسلمون بولوج المناصب من غير اعتبار لعقيدتهم .

وبعبارة صريحة ان القراءان ينظر للمخلوقين نظرة انسانية صرفة ويمنحهم حقوقهم كاملة .

المقاربة والقرءان

لولا القرءان لما دخل المقاربة في الاسلام ، فبفضله أقبلوا على الاسلام منذ مجيئه الى بلادهم ولم يقفوا في وجهه كما وقفوا في وجه الدول التي جاءتهم قبل الاسلام لتستعمرهم وتستعبدهم .

وأولئك العرب الذين حملوا القرءان الى هذه البلاد كانوا يتميزون بأخلاق القرءان من عدل واستقامة ومساواة وشورى وصدق ونزاهة واخلاص ، فرأى المقاربة فيهم وفي كتابهم المنقذ لهم من الضلالة والعمى والجهل والخمول والاستغلال السياسي والاقتصادي الذي عاشوه قرونا واحقابا متوالية .

وما يذكره ابن خلدون من ان البرابرة ارتدوا عن الاسلام مرارا ، وأنهم لم يستقروا عليه الا في عهد ابن نصير ، ليس معناه ان البرابرة لم يقبلوا على الاسلام بشره بل ما ذكره ابن خلدون يرجع الى خلافات سياسية او الى أخطاء كان يرتكبها بعض الفاتحين تؤدي الى حروب تجعل بعض البرابرة يرتدون امعانا في حربهم لمن اختلفوا معهم في الرأي السياسي ، والا فلا جدال في ان البربر اقبلوا على الاسلام اقبالا كبيرا وبعثوا بوفودهم الى خلفاء رسول الله (ص) الاولين كعمر وعثمان .

والمغربي الذي اقبل على الاسلام لم يقبل عليه الا لما وجد في قرآنه من عدل وحق ومساواة وتحرر ، فاذا ما أساء بعض الولاة فان القرءان لا يتحمل جرائم اساءتهم بدليل ان القرءان أستطاع ان يستمر في غزو العقول المغربية رغم الاساءات التي لم تكن الا شخصية وعابرة .

وقد اختلطت المقاربة بالفاتحين اختلاطا يلفت الانظار ، وأستطاع العرب القادمون بالقرءان ان يشبتوه في الجبال والسهول والفيافي وان يعلموه للناس وأن يشرحوا مبادئه وأهدافه حتى أصبح المقاربة من دعاة القرءان الاوفياء على مر الاحقاب ، وقد ذكرت كتب التاريخ أن سفيان بن وهب الصحابي كان يمر على الفلمان بالقيروان وهم في كتابهم يتعلمون القرءان فيسلم عليهم ويحادثهم .

كذلك أرسل عمر بن عبد العزيز الاموي الى افريقية في عهده مجموعة صالحة من القراء والمفسرين للقرءان ، فقامت هذه البعثة بعملها خير قيام.

ولم يكن للبرابرة شأن في تاريخ البشرية الا بعد ان اعتنقوا الاسلام وغدوا من رواد القراءان ، وحينئذ أمكنهم ان يفرضوا سيادتهم ويوطدوا كيانهم ويجمعوا شتاتهم ليذهبوا الى الاندلس فيفتحوها ثم ليكونوا بعد ذلك ملوكا وحكاما وروادا ودعاة لهم من القوة والسيطرة ما لم يحلموا به في تاريخهم الطويل .

ومن الانصاف للمقاربة أنهم في دولهم المختلفة التي قامت بالمغرب لم ينحرفوا عن تمسكهم بالقراءان واعتباره دستوراً لهم يلجأون اليه كلما دعاهم أمر او أصابتهم فتنة او حلت بهم كارثة .

وقد كان بعض الحكام منهم يتصرفون تصرفات منحرفة عن أهداف القراءان ، ولكنها لا تلبث ان تصاب بالشلل والبر كلما راجع المقاربة انفسهم ورجعوا الى دستورهم الخالد الذي قام عليه كيانهم منذ ان جاءهم الاسلام بقراءانه .

ولم يثبت على المقاربة منذ تمسكهم بالقراءان انهم اضطهدوا الاقليات غير الاسلامية لكونهم كانوا يعلمون عن يقين ان قرآنهم يقرر ان لا اكراه في الدين بعد تبين الرشد من الفی ، ولذلك يعتبر المغرب من الدول التي لم تعرف الاضطهاد الديني منذ دخل الاسلام بقراءانه الى هذه الديار .

ويتميز المقاربة بكونهم يشيدون بمزايا القراءان في كتبهم وأشعارهم وحفلاتهم على الصعيد الحكومي والشعبي ، ولا تكاد ترجمة مغربية لشخصية أو ملك تخلو من نعت المترجم له بأنه كان يحفظ القراءان ، فهي ميزة مغربية عامة في رجال الحكم والولاة والرؤساء والعلماء وكبار الرجال ، كما كانت للمقاربة عناية خاصة بنسخ القراءان وتزيينه بالذهب والديباج والاحجار الكريمة لا بالنسبة لعامة الشعب ولا بالنسبة لملوكه وهي هوية عممت المقاربة على اختلاف طبقاتهم ، وكانوا جميعا يكتبون المصاحف بخطوط مغربية جيدة . ومن الملوك الذين تحدث عنهم التاريخ انهم كتبوا مصحفا او عدة مصاحف المهدي بن تومرت والمرتضى من الموحدين وابو يعقوب يوسف وابو الحسن وابو عنان وابو فارس من المرينيين .

وكم أوقف المقاربة من المصاحف ، ولا يكاد مسجد جامع بالمغرب يخلو من خزانة للمصاحف القرآنية حبست قصد التلاوة بالاضافة الى ما كان المقاربة يوقفون من أوقاف على تلاوة القراءان دبر الصلوات .

ان مختلف الطبقات المغربية كانت تهتم بالقرءان وتترك به وتردده في جميع المناسبات يتلونه في حفلاتهم وأعيادهم ومواسمهم ، بل وعلى أمواتهم ، وكان العلماء المغاربة يتخذون من دروسهم الوعظية مجالا لشرح القرءان وتبيانه . وكم من الاحباس حبسها المغاربة على كراسي للتدريس بالمساجد المغربية حفاظا على القرءان الكريم وتعاليمه ، وان الباحث بين غضون المكتبات المغربية ليندهش من العناية الفائقة التي كان المغاربة يولونها للقرءان ، ولا تكاد تجد مغربيا واحدا لا يحفظ شيئا من القرءان بل ان المغاربة كانوا من حملة القرءان وقرائه حتى تميزت نواح شتى في المغرب باتقان حفظ القرءان بقراءاته ، ففي بلاد جبالة وفي بلاد السوس في الجنوب في الشمال في الشرق في الغرب في السهل في الجبال في كل مكان تسمع هدير القرءان .

ويتميز حفاظ القرءان المغاربة باسم « الطلبة » اذ كان هذا الاسم عنوانا على كل الذين يحفظون القرءان ، وهؤلاء « الطلبة » كانوا محط عناية واحترام من الجمهور يتبركون بهم ويحضرولهم في مناسباتهم ، ويطلبون الدعاء الصالح منهم .

وتتميز بيوت المغاربة بأنها لا تخلو من مصحف شريف ، وهذه العناية المغربية بالقرءان جعلت المغرب من الدول الاسلامية التي حافظت على تعاليم الاسلام وان كانت ليست في صفائها ولكنها على اي حال استطاعت مع قسوة الزمن ان تحفظ للاسلام قوة في هذا الجانب الاقصى من العالم الاسلامي .

ويشهد على شدة تعلق المغاربة بالقرءان وحفظه ما قاله ابن خلدون عنهم : « فاما أهل افريقية والمغرب فأفادهم الإقتصار على القرءان القصور على ملكة اللسان جملة ، وذلك أن القرءان لا ينشأ عنه في الغالب ملكة لما أن البشر مصروفون عن الاتيان بمثله فهم مصروفون لذلك عن الاستعمال عن أساليبه والاحتذاء بها ، وليس لهم ملكة في غير أساليبه فلا يحصل لصاحبه ملكة في اللسان العربي وحظه الحمود في العبارات وقلّة التصرف في الكلام ، وربما كان أهل افريقية في ذلك أخف من أهل المغرب بما يخلطون في تعليمهم القرءان بعبارات العلوم في قوانينها » هـ .

وكلام ابن خلدون هذا يحتاج الى مناقشة ، ولكنه يدل على ما كان للمغاربة من عناية فائقة بحفظ القرءان وتحفيظه .

أن الباحث لا يجد ناحية من نواحي المغرب لم تكن تعني بتحفيظ القرآن ، أما وحده وهذا هو الغالب ، وأما مع شرحه في الأماكن التي انتشرت فيها المعرفة . وكل جهة لها نظامها وطلبها وفقهاؤها ، ولم يكن المغربي حريصا على شيء كحرصه على أن يتعلم أولاده القرآن ويحفظوه ويبدل من أجل ذلك الغالي والرخيص حتى أصبح القرآن في المغرب يتلى من الجماهير على اختلافها أفرادا وجماعات ، وهذه العناية دفعت بالمغاربة إلى اتقان فن القراءات وحبسوا أحباسا خاصة لمن يتلو القرآن بقراءاته ، ويوجد بجامع القرويين بفاس حزب خاص بتلاوة القرآن بالقراءات السبع اندثر قريبا بعد اندثار حفاظ القراءات ، ولكن أحباسه لا زالت قائمة الذات .

وقد ألف المغاربة في علوم القراءات وعلوم القرآن والتفسير مؤلفات شتى ونبغ فيهم علماء أجلة كانت لهم عناية خاصة بالقرآن وتفسيره كالقاضي عياض السبتي وابن غازي وأبي القاسم السلوي وأبي علي الشوشاوي والشطبي وعلي بن عبد الواحد السجلماسي وابن عجيبة والشيخ الطيب ابن كيران وغيرهم ، ومن علماء المغرب الذين كانت لهم عناية بعلم القراءات وتجويد القرآن ابن عاشر الذي برز في هذا الميدان وهناك غيره .

ومن شدة تمسك المغاربة بالقرآن وعنايتهم به وتحفيظه أنهم كانوا يقيمون الحفلات الشيقة إذا حفظ أبناؤهم سورا من القرآن أو القرآن كله ، وكان لهم نظام خاص في ذلك ، فعند ما يحفظ الطفل سورة الاخلاص تقام حفلة ، وعند ما يحفظ نصف القرآن تقام حفلة كبرى ، وعند ما يحفظ القرآن كله تقام حفلة أكبر وأعظم ، كما تقام حفلات أخرى بمناسبة حفظ سور أو أحزاب معينة من القرآن ، وكل هذا يدل على ما للمغاربة من شدة التمسك بالقرآن والمحافظة عليه والعناية به والتبرك بآياته ، فهم لا يلبثون يشجعون أبناءهم على تعلمه ويبدلون من أجل ذلك المال وقيمون الحفلات والذكريات ويتشافون به ، وبأسرار حروفه وآياته ويكتبونه على حيطان المساجد والدور .

وتعتبر المساجد في المغرب مدرسة لتعليم القرآن والعلوم ومحكمة ومكانا للمشاورة والتجمع زيادة على قيام الشعائر الدينية بها ، بل أنها كانت كبرلمانات رسمية ، فيها يقرر مصير البلاد ومنها تخرج الجيوش واليه يأوي عابر السبيل والضيوف ، وبين جدرانها تتلى الآيات النبينات وتحفظ وتشرح .

والمساجد تنتشر في المغرب انتشارا عظيما في المدن والقرى والسهول والجبال وحتى اولئك المغاربة الرحل يتخذون خيمة خاصة من خيامهم لتعليم القرآن واداء الشعائر وللاجتماع وينقلونها معهم حيثما انتقلوا ويقدمون لها من اغنامهم وأبقارهم كلما تحتاج اليه .

وتتوج مساجد المغرب بمسجد جامع القرويين الذي كانت تشع منه العلوم والمعارف وياخذ القرآن حظا وافرا من الدراسات والشروح والتعليق ، وكان علماؤها يتمتعون باحترام الشعب لكونهم حراس قرآنه حتى كانت بيعة الملوك لا تتم الا على يدهم ، ولا زالت خزانة القرويين تحتفظ بنفائس قيمة من المصاحف القرآنية والتفاسير .

وزيادة على المساجد ورسالتها أسس المغاربة في كل ركن من بلادهم كتابيب قرآنية لتحفيظ القرآن لابنائهم منذ طفولتهم المبكرة ، وهذه الكتابيب تكون مستقلة وقد تكون تابعة للمسجد كما هو الشأن في البوادي ، وكان للدولة المغربية عناية فائقة بهذه الكتابيب وطلابها على الصعيد الحكومي والشعبي .

وكان البرابرة الذين لا يتقنون لغة القرآن يحفظونه بلهجتهم الاصلية ثم يشرح لهم بلهجتهم البربرية ، وقد يتعلمونه في لفته العربية ولو بدون فهم لها .

وكما وجد القرآن العناية في المساجد والكتابيب وجدها فيما يعرف في المغرب بالزوايا التي تتمذهب بمذاهب معينة وتقام فيها الشعائر الدينية ، ويتلى القرآن ويحفظ وغالبا ما تقام الزوايا على ضريح ولي كانت له طريقة فتركها لمرواده ، وقد تقام الزوايا بدون ضريح ولكنها سواء أقيمت على ضريح او لم تقم عليه فالقرآن يحتل المكانة السامية في الزوايا وفي الاوراد التي تتلى بها ، اذ الزوايا في المغرب وان كانت لها اذكارها وأورادها وطريقتها لا تخلو من العناية الكاملة بالقرآن وتعاليمه بل من الزوايا المغربية من كان القائمون عليها يهتمون بالاصلاح عن طريق تفهيم القرءان تفهيماً مجرداً مما علق به من الشروح الاسرائيلية التي أفسدت على المسلمين تعاليم القرءان الصحيحة كما كانت بعض الزوايا تلزم روادها بقراءة أحزاب معدودة من القرءان الكريم .

ويعرف المغرب أيضا بأنه بلاد تكثر فيه رباطات الجهاد ومراقبة الثغور ، وهذه الرباطات تقوم بدورها على أهداف القراء والدفاع عن أوطانه ، ولذلك كانت تحتوي على مكتبات قرآنية بالإضافة الى كتب أخرى حديثة أو فقهية أو لسانية ، وقد قامت هذه الرباطات بأعمال جليلية في تاريخ نشر القراء في مختلف الاصقاع ، والافريقية منها على الخصوص ، ثم ظهرت بالمغرب المدارس التعليمية التي كان برنامجها حافلا بكل ما يمس تحفيظ القراء وتدرسه .

وإذا ما اشرنا الى العناية المغربية بالقراء وتحفيظه فلا ينبغي ان يعزب عن بالنا ان المغاربة كما اعتنوا بتعليم القراء لاطفالهم من الذكور اعتنوا كذلك بتحفيظه او بعضه لاطفالهم من الاناث ، لان القراء من ضروريات المسلم لاعداد شعائره الدينية بقطع النظر عن انوثته وذكوره ، ومن اجل ذلك نجد المرأة المغربية كانت تحفظ القراء وتعلمه ، ولما كانت لها حرمتها وكرامتها عند المغربي لم يكن يسمح لها بالاختلاط مع الرجال ، فاتخذت المرأة منزلها لتعليم القراء مما يعرف عند المغاربة « بدار فقيهة » .

ان الحقيقة الناصعة في تاريخ المغرب ان المغاربة منذ الفتوح الاولى للاسلام قد استجابوا لنداء القراء ، وأن الفاتحين الاولين لم يحملوا معهم من تكريم سوى تكريم القراء ، هذا القراء الذي تمسكوا به عن ايمان وحملوه عن يقين وآمنوا به عن فكرة فنشروه وعمموه وسادوا به وانفذوا المغاربة من جاهليتهم بتعاليمه التي كانت هي الحكم والمرجع والهدف . ولما هاجر ادريس الى أرض المغرب لم يحمل معه سلاحا ولا قوة وانما حمل معه ايمانا في قلبه وقرآنا في لسانه جاء به الى المغرب ليرشد أمة عربية نائية متشوقة الى واحد من ذرية النبوة الطاهرة .

وما ذا أوجد ادريس في المغرب يوم بايعه المغاربة على السمع والطاعة ؟

وجد أمة ممزقة متناحرة ، فيها مسلمون ، ولكن فيها وثنيون ويهود ونصارى ، فقارعهم بحجة القراء وهداهم بنوره حتى أسلموا جميعا وخضعوا لحكمه .

ولما توفي ادريس الاول وفرغ المغاربة من دفنه وعلى رأسهم موله راشد جمع هذا الاخير رؤساء البربر ليستشيرهم في الامر وليخبرهم بأن ادريس لم يترك من الاولاد من يخلفه الا حملا من جاريته كنزة ، فاختاروا ان ينتظروا الحمل حتى اذا كان ذكرا ولوه عليهم ليقوم مقام والده الذي جاءهم بهدي القرءان واختاروا أيضا ان يقوم راشد بالامر محل ادريس ، ولم يشترطوا عليه الا ان يقضي بينهم بكتاب الله وسنة رسوله .

وهنا يتجلى تمسك المغاربة بهدي القرءان وحكمه ، هذا الكتاب الذي صادف من قلوبهم مكانا خصبا فتمكن هذا الكتاب الذي أخرجهم من ظلمات الكفر والجهالة الى عالم النور والمعرفة . والمغاربة في جميع مبيعاتهم لمملوكهم لم يكونوا يبايعونهم الا على الكتاب والسنة .

وهكذا قامت دولة الادارسة على القرءان من اول ظهورها .

والمغاربة حينما تكتلوا حول ادريس وايدوه ، فعلوا ذلك لكونه سبطا للرسول (ص) ولكونه من حملة كتابه وشريعته ، وقد ادى ادريس الامانة على وجهها ، وسار في حياته على نهج القرءان وسننه وطريقه ، ثم خلفه ولده بعده ليسلك مسلكه وليفتح مجالات الجهاد على اوسع نطاق ، وليثبت اركان القرءان ، وعند ما أسس مدينة فاس لم يؤسسها لتكون عاصمة امبراطورية تجبي اليها الاموال والرقاب وانما أسسها لتكون مقرا للقرءان وتعائمه ، ويتجلى ذلك في دعائه الذي دعا به بعد تأسيسه لمدينة فاس حينما قال : « اللهم انك تعلم اني ما أردت ببناء هذه المدينة مباهاة ولا مفاخرة ولا سمعة ولا مكابرة وانما أردت ببنائها ان تعبد بها ويتلى بها كتابك » .

كذلك نجد الدول التي قامت بعد الادارسة بالمغرب لم تقم الا على مبدأ القرءان ، وان كانت الفتن أحيانا تغطي الحقائق الجلية في التاريخ المغربي .

ولو انتقلنا الى دولة المرابطين لوجدنا ان الامير يحيى بن ابراهيم الكدالي رأس المرابطين قبل قيام حكمهم ينشئ قومه على تعاليم القرءان وينشرها بينهم بواسطة عبد الله بن ياسين الجزولي الذي قوبل من طرف المغاربة بالاكرام والتعظيم .

ولما وقع الاختيار على عبد الله بن ياسين للعمل على نشر القرآن وتعاليمه بالمغرب من طرف وجاج بن زولو لم نجده يختار ابن ياسين الا لما كان يتوفر عليه من التقوى والمعرفة الكاملة بالقرآن وتعاليمه ، ونجد في رسالة لابي عمران الفاسي كتبها الى وجاج : « أما بعد فاذا وصلتك حامل كتابي هذا فابعث معه من طلبتك من تثق بعلمه ودينه وورعه وحسن سياسته ليقرئهم القرآن ويعلمهم شرائع الاسلام ويفقههم في دين الله » .

فأبو عمران الفاسي عند ما شكأ اليه أبو زكرياء الكدالي حالة المفارقة الدينية لم يكن الاهتمام موجهاً الى شيء كما هو موجه الى القرآن ، ولذلك كانت رسالة أبي عمران تبحث عن شخصية قادرة على تعليم القرآن وأهدافه ، وكانت هذه الشخصية هي عبد الله بن ياسين الذي أدى الرسالة على أحسن وجهها .

وأول عمل قام به ابن ياسين في أرض المغرب هو انكباؤه على تعليم القرآن الكريم وتثبيت تعاليمه بين الجماهير ، وعلى هذه المبادئ قامت دولة المرابطين .

وإذا تحدثنا عن المرابطين فان الذهن يذكر عظيم هذه الدولة يوسف ابن تاشفين ، ذلك الرجل الذي لم يحكم الا بمشورة أهل العلم ، وأخذ رأيهم ، وأهل العلم في ذلك العصر لم يكونوا يصدرن أحكامهم الا وفق القرآن .

ويمتاز ابن تاشفين بأنه كان من المتمسكين بالقرآن في نفسه وحكمه . ولما طار خبره الى الشرق الاسلامي وعلم عنه حجة الاسلام الامام الغزالي موافقه المشرفة عزم على زيارته ولكنه جاءه خبر نعيه فرجع عن عزمه .

ويتميز أهل لمتونة بأنهم أهل قرآن وصدق وإخلاص ، على أساس القرآن قامت دولتهم ، وبالقرآن حكموا المغرب والاندلس وبلاد افريقية مترامية ، وان كان التطرف قد تحكم في عقلية بعضهم كما فعل علي بن يوسف عند ما أمر باحراق كتاب الاحياء للغزالي بإشارة من بعض الفقهاء الجامدين المتعصبين . وما أظن أحدا يقرأ كتاب احياء علوم الدين للغزالي ويجد فيه مخالفة للقرآن ، بل ان كتاب الاحياء آية في الفهم والدقة لكثير من الاتجاهات الاسلامية والآراء الشرعية التي كان يباشرها الغزالي بعقلية

متعمقة غفل عنها أولئك الفقهاء فأوقعوا الحكام في غلط ما كان ليقع لو أن عقولهم كانت متفتحة . وآفة المسلمين جميعا هي في جمود بعض فقهاءهم وانسياقهم مع التحجر المذهبي ووقوفهم من آراء غيرهم موقفا لا يشرف أناسا ينتسبون للعلم وأهله .

إن أهل لمتونة في مجموعهم قد خدموا القراء ودافعوا عن وطنه المغرب عند ما كان معرضا للمفارات البحرية ، واعتبروا أن الدفاع عن القراء في ثغور البلاد جهادا في سبيل الله لا مفر منه . وكان سكان الصحراء يأتون للسواحل للدفاع عن دينهم كما كانوا يرابطون على الحدود السودانية لنشر القراء وتعاليمه في بلاد السودان وإفريقيا الغربية .

ومن شدة تمسك المرابطين بتعاليم القراء أنهم كانوا يتحرون أحداث محدثات لا تجد لها مبررا من تعاليم القراء كالمكوس ، وكانوا يقتصرون في جلب الأموال على ما يقرره القراء من زكوات وجزية وخراج وأخماس ومغانم ، وكانت قوانينهم تتبع مذهب الإمام مالك الذي يعتبر من أشد المذاهب تمسكا بالقراء .

ثم قامت دولة الموحدين على القراء وكان المصامدة أيضا أهل دين ومهديهم لم ينجح في دعوته إلا لكونه ركزا على هذا المبدأ الذي كان المغاربة يستجيبون له ويخضعون لأوامره وإن كان الساسة قد يستغلون الشعور الديني في الجمهور ورغم ذلك فإن دولة الموحدين كانت متمسكة بأهداف القراء في عمومها ، رفعت رايته عاليا وجاهدت في سبيله جهاد الأبطال الصادقين .

وقد اتصل محمد بن عبد الله بن تومرت السوسي مؤسس دولة الموحدين بعلماء كثيرين في المشرق وأخذ عنهم وفي مقدمتهم الإمام الغزالي .

ولما رجع إلى وطنه أخذ ينشر تعاليم القراء باللغتين العربية والبربري ، واستطاع بفصاحته البربرية أن يدخل تعاليم القراء إلى قلوب البربر الذين أيدوه ونصروه . وتأثر بمذهب الأشعري في التوحيد فكان في دعوته سلفيا مزودا بالمعرفة العقلية الدامغة .

لقد كان المهدي بن تومرت بارعا في نشر الدعوة القرآنية بين أصحابه وأتباعه ، يسلك مسالك شتى لا يصلح أثر القرآن الى عقولهم ، ومن ذلك ما تذكره كتب التاريخ من أن جماعة من المصامدة صعب عليهم لعجمة لسانهم حفظ سورة الفاتحة باللسان العربي ، فعهد المهدي الى حيلة ليلقنها لهم بأن لقب بكل كلمة منها رجلا منهم ، وحملهم على حفظ القابهم وقال لهم : لا يقبل الله منكم صلاة حتى تجمعوا هذه الالقاب على نسقها في كل ركعة وبذلك حفظوا سورة الفاتحة ونجح في ادخال القرآن الى عقول البرابرة وقلوبهم .

ان ابن تومرت لما ذهب الى الشرق لم يذهب بقصد تأسيس ملك وانما ذهب للقراءة والدراسة ، ولكنه هاله ان يجد الاسلام وقرآنه قد أصبحا معرضين للخطر من جراء تضعف الدولة العباسية والدولة الفاطمية من جهة ، ومن جهة أخرى ادرك أن الأمم النصرانية تستعد وتوحد كلمتها لمهاجمة امة القرآن بصليبيتها المتعصبة ، حينئذ أخذ يفكر في انشاء دولة قرآنية مغربية قوية تستطيع ان تواجه ما يدبره الصليبيون للإسلام من مكر ، ولم يتورع ان يقحم كلمة المهدوية في دعوته ليؤثر بها على الجماهير المغربية التي سبق لها ان تأثرت بها في عهد الفاطميين .

وعبد المومن نفسه كان في مطلع حياته يحترف تعليم الصبيان للقرءان الكريم .

وعبد المومن هو الذي نقل المصحف العثماني من الاندلس الى المغرب ، وكان يوجد بجامع قرطبة منذ أتى به بنو أمية ، وقد اعتنى به اعتناء كبيرا ، فكساه وحلاه على يد صناع مهرة اظهاراً لفضله وتعظيمهما لشأنه .

ولما ذهب لزيارة قبر المهدي بمدينة تينمال حمل معه المصحف العثماني بحليته ، كما كان يحمل مصحف المهدي ، وتجمع الناس لقراءة القرآن في ضريح المهدي وبحضور عبد المومن وأكثروا من التلاوة حتى ختموا القرآن مرارا متعددة . ثم أصبح هذا المصحف رمزا للموحدين كلهم يتبركون به ويحملونه معهم في أسفارهم الى أن حمله علي بن ادريس الموحي لما توجه الى تلمسان فقتل ونهب المصحف من معسكره ثم سار بعد ذلك الى ملوك بني عبد الواد في تلمسان فاحتفظوا به وعظموه .

لقد قامت الدولة الموحدية على القرءان والدفاع عنه ، وكان دستورها هو القرءان الكريم والسنة المحمدية التي هي جزء لا يتجزأ من القرءان بدون أئتماء الى مذهب معين من المذاهب الاسلامية وان كان بعض المؤرخين يجعلهم من اصحاب المذهب الظاهري الذي كان في نظرهم اجتهاداً في فهم القرءان .

وكان الموحدون يوزعون القرءان احزاباً من أجل قراءته يومياً على حصص معينة .

ثم قام المرينيون الصحرأويون برسم الدفاع عن القرءان وأهدافه ونشر تعاليمه .

ونلمس في حياة عبد الحق المريني رأس الدولة المرينية فضلاً وتديناً وتقياً وصلاًحاً ، وكل هذه الاوصاف التي أضفاها عليه المؤرخون تظهر منبعها الاصيل الذي هو القرءان الكريم .

ولما فتح السلطان المريني أبو الحسن تلمسان كان من جملة ما استولى عليه المصحف العثماني الذي كان بيد الموحدين ثم انتقل الى ملوك تلمسان من بني عبد الواد وعظم شأنه فكان يحمله في أسفاره ، وفي وقعة طريف سقط المصحف في يد البرتغاليين ، لكن أبا الحسن المريني لم يتركه في يدهم واتخذ عدة وسائل لاستخلاصه منهم واستطاع ان يرجعه الى مدينة فاس ووضعه في خزانته .

لقد كان لبني مرين اعتناء بالعلم والقرءان فأكثرُوا من بناء المدارس لدراسة القرءان وعلومه بالإضافة الى علوم أخرى ، ومن المدارس التي بنوا مدارس خاصة بدارسي القرءان ، كالمدرسة التي بناها بفاس السلطان أبو سعيد المريني لقراءة القرءان ودراسته وأجرى على طلبتها مرات شهرية وحبس عليها احباساً لتستمر في أداء رسالتها ، وهو الذي بنى أيضاً مدرسة العطارين بفاس لنفس الغاية وفعل فيها كما فعل في سالفاتها . كما بنى ولي عهده الامير أبو الحسن مدرسة ملتصقة بجامعة الاندلس بفاس لقرء القرءان ، وتعرف بمدرسة السبعين ، لكون طلبتها كانوا يحفظون القراءات السبع ، وحبس عليها احباساً كثيرة لتحفظها من الضياع ، ووظف بها فقهاء وعلماء للتدريس وأجرى عليهم عطاءات لينكبوا على أداء مهمتهم

السامية ، وفي أيام ولايته أسس أيضا المدرسة المصباحية بفاس ثم بنى مدرسة بمراكش لنفس الغاية وأخرى بمدينة سلا ، كما له آثار علمية قرآنية جليلة بمدينة مكناس .

ومن عناية المرينيين بالقرءان الكريم أن السلطان أبا الحسن المريني كتب نسخة من القرءان بخطه وزينها بالذهب والاحجار الكريمة ووضع لها وعاء من العاج والصندل المغطى بالحرير وأوقفها على الحرم الشريف بمكة ، كما كتب نسخة أخرى وأوقفها على قراء المدينة المنورة على شكل الاولى ، كما كتب نسخة ثالثة على طراز النسختين الاخرين وأوقفها على الحرم الشريف بالقدس ، وذلك من شدة اعتناء هذا السلطان بالقرءان مما جعله يتقرب بنسخه .

ومن المميزات التي ذكرها المؤرخون في ترجمة أبي عنان أنه كان يستظهر القرءان الكريم ويعرف ناسخه من منسوخه حتى أسس المدرسة المعروفة بفاس بمدرسة أبي عنان للدارسين للقرءان والحديث وبقية العلوم كما أسس مدرسة لنفس الغاية بمدينة سلا .

وفي عهد السعديين كان من المصاحف ذات المكانة بالمغرب مصحف عقبة بن نافع الفهري فاتح المغرب ، هذا المصحف الذي كانت له منزلة محترمة في نفوس المغاربة حتى ان المنصور الذهبي لما اخذ البيعة لابنه المامون بحضور أهل الحل والعقد من العلماء والشرفاء والرؤساء حضر مصحف عقبة بن نافع ثم قرئت وثيقة الولاية بعد ذلك ، وهذا عمل يدل على تعلق المغاربة بالقرءان واعتبارهم اياه رمزا للعدالة والتقوى والحكم الصحيح النزيه ، وعهدا على الوفاء والاخلاص ، فالمنصور يحضر المصحف لياخذ على ولده المامون عهدا بأن يسير على نهجه وشريعته ويعمل بما فيه من توجيهات وأرشادات سماوية حتى لا يزيغ عن طريقه .

وبقي مصحف عقبة متداولاً بين الملوك السعديين الى أن انقرضت دولتهم .

ويصف المؤرخون السلطان أبا عبد الله محمد الشيخ السعدي بأنه كان حافظاً للقرءان عارفا بالتفسير كما ذكروا في ترجمة السلطان أبي محمد عبد الله الغالب بالله أنه كان يحفظ القرءان .

أن السعديين كان لهم اعتناء هدم بالقرءان ، وفي عصرهم اشتدت العناية به وبقرءاته ، بحيث من لم يكن يحسنها لا يعد عندهم من العلماء الكبار .

ولما قامت الدولة العلوية ورثت من الدولة السعدية فيما ورثت عنها مصحف عقبة بن نافع الفهري الذي كان عقبة قد نسخه بالقيروان من المصحف العثماني وبقي متوارثا بين الملوك العلويين الى عهد السلطان عبد الله بن اسماعيل الذي بعث به الى الحرم النبوي الشريف مع ركب الحجاج كهدية ثمينة ومعه مصاحف أخرى كثيرة كلها مرصعة بالدر ومحللة بالذهب .

وكان للدولة العلوية اهتمام كبير بتعظيم القرءان ، وكان في القصور الملكية فقهاء يلقنون القرءان لابناء الملوك ذكورا واناثا ويراعي للملوك في اختيارهم أن يكونوا حافظين للقرءان ، ومن أهل الورع والصلاح والتقوى .

وجميع القصور العلوية بالمغرب لا تخلو من كتابات قرآنية تقوم بمهمة تعليم القرءان ، وأحيانا يضاف الى تعليم القرءان تلقي المبادئ الضرورية من علوم الدين .

ومن الانظمة التي كانت عندهم أن لا يختلط في التعليم الذكور مع الاناث ويشددون في ذلك . وتستمر القراءة طيلة الاسبوع باستثناء يوم الخميس ومساء يوم الاربعاء وصبيحة يوم الجمعة والعطل الدينية كعيد الفطر وعيد الاضحى والعيد النبوي الانور وعاشوراء وبعض المناسبات الاخرى الخاصة .

ومن اعتناء الملوك العلويين بالقرءان أنهم كانوا يحتفلون اذا ما ختمه أطفالهم ويصلون الفقهاء الذين علموهم ويقدمون الصدقات بهذه المناسبة الى الضعفاء ويتطيبون بماء الزهر والورد والبخور ، كما كانوا يعتنون بتلقين القراءات السبع لمن نبغ في حفظ القرءان .

وبقيت القصور العلوية مهتمة بالقرءان الكريم الى يومنا هذا ، ويذكرون أن محمدا الخامس كان يتلو القرءان كثيرا ، ويحكي وفد قابله سرايا أيام اشتداد الازمة بينه وبين المقيم الفرنسي بالمغرب الجنرال كيوم انه دخل عليه وهو في حالة متأزمة ، ولكنه بالقرءان كان مطمئنا فلم يكـد

الوفد يظهر أمامه حتى أخذ يتلو عليه قول الله العظيم : « قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شيء قدير » ، فاندھش أعضاء الوفد لصبره بالقرءان في مثل تلك الحالة القاسية .

وملخص القول أن معظم الذين قام لهم سلطان أو امارة بالمغرب كان القرءان رائدهم وتثبيت دعائم الاسلام غايتهم ، وان كنا نجد الانحراف قد يمس بعضهم لاسباب سياسية أو خلقية تدفعه الى القيام بأعمال لا تقرها تعاليم الاسلام .

ومهما يكن فان القرءان كان دائما بالمغرب مرفوع الرأس عالي الهممة مؤيدا معززا منصورا من كل متول ، ولو كانت أعماله قد يكون فيها انحراف .

المقيـدة

عقيدة القرآن عقيدة واضحة مشرقة ، لاتتنافى مع العقل أبدا .
والقرآن دين العقل قبل كل شيء ، ولذلك لا يمكن أن يتعارض مع الفكر
وهو لا يجبر الناس على عقيدته ، بل يدعهم لانفسهم ليفكروا ثم ليهتدوا .
والتوحيد في القرآن بسيط لا فلسفة فيه ولا تعقيد .

وحاول المسلمون منذ اواخر القرن الاول الهجري أن يردوا الشبهات
التي اثارها اعداء الاسلام فالتجأوا الى منطق أرسطو ليتخذوا منه حجة
على صحة عقيدة الاسلام ، وآل بهم الحال الى ان يفلسفوا نقاء التوحيد في
جوهره الاصيل ، ووقعت مصادمات جعلت آراءهم الفلسفية تتحول الى
خلاف فلسفي محض ، فألفت المؤلفات للدفاع عن وجهات النظر المختلفة
وظهر أئمة وزعماء وتكونت طوائف ونحل ، ولكن توحيد القراء بعيد عن كل
تلك الفلسفات .

فاذا قرأ المسلم سورة قصيرة من القرآن استطاع أن يدرك معنى
التوحيد الذي يريده أنقرآن للمسلم من غير أن يضطره الى ولوج حمأة
الفلسفات والتأويلات .

والمسلم قد يقرأ سورة الفاتحة مرات ومرات ولكنه لا يتدبر معناها
القيم الذي يريد القرآن أن يتدبره ويمعن النظر فيه .

فباسم الله الرحمن الرحيم يفتح القرآن الكريم ، والله هو كل شيء
في تصور المسلم الذي يجب عليه أن يعلم أن عقله الانساني الحادث لا يقدر
على ادراك حقيقة الخالق مهما بلغ من العلم والمعرفة .

وآياته سبحانه ناطقة في كل شيء مشاهدة في كل موجود يحسها
الانسان في أعماقه مهما بلغ من الكفر والالحاد والادبار .

وهذا الخالق المنزه عن أن تدركه العقول البشرية الحادثة الفانية هو
الرب الوحيد القادر العليم المعطي والمانع ، والمتصرف في الكون تصرفا
مطلقا لا تشوبه شائبة ضعف ولا نقص ولا تردد ولا ابطاء اليه يجب أن يتوجه
المخلوق بالحمد والثناء لكونه رب العالمين لا شريك له ولا ولد ولا صاحبة

خلق كل شيء فقدره تقديراً ، فهو مالك الخلق ومالك يوم الدين الذي هو يوم الجزاء ، يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً .

لا نعبد إلا آياه ولا نستعين إلا به وما عداه ليس الا مخلوقاً ضعيفاً لا يقدر على دفع الضر عن نفسه ، وفناؤه أكبر دليلاً على ضعفه ، ومرضه وعجزه ومصائبه شواهد وأضحة عن تعنته في مفاهيمه المنحرفة عن جادة الإيمان .

ومنذ ضعف الإيمان في نفوس المسلمين وهم ينجذبون نحو المفاهيم الأخرى للإيمان مع ما بينها وبين العقيدة الإسلامية من فروق جوهرية وتاريخية ، ولم يعد المسلم يعبر عن إيمانه بالله كما عبر أسلافه الأكرمون ، وإنما أخذ يستعمل اصطلاحاً جديداً أسماه بالطبيعة ووضع موضع التوحيد ونسب إليه ما كان يجب أن ينسبه للخالق وحده .

وعلى المسلم الحق أن يهتدي بصراط الله المستقيم ، ذلك الذي وفق الله عباده المنعم عليهم بنعمة الإيمان ليلجوه وليسيروا فيه حتى ينالوا رضى خالقهم غير مغضوب عليهم ولا ضالين .

والإيمان في القرآن يقتضي من المسلم أن يؤمن بما يدركه وبما لا يقدر على إدراكه من غيبات أخبر عنها القرآن ليمتحن إيمان المؤمنين .

وليس الحس هو كل شيء في حياة الإنسان الروحية ، إذ هناك قوة أكبر من الوجود وأضخم من العقل البشري ، إليها المرجع والمآب ، ولها موازينها وقسطاسها ، ولا يتم إيمان المؤمن إلا بالخضوع لها كلياً وبلاستجابة لما تطلب منه أن يفعله ويؤمن به ليكون من الناجين .

وليس في استطاع أي إنسان أن يدرك هذه القوة التي يعتبر الكون كذرة تافهة بالنسبة إلى عظمتها وقوتها وتصرفها .

فعالمتنا محدود وخاضع لنواميس معينة ، أما القوة العظمى المتصرفة فيه فهي أسما من أن تدرك بعقل محدود في عالم محدود .

فالإيمان بالغيب مسلك من مسالك الإيمان المنقذة للإنسانية من عالمها المملوء بالضيق والإحراج إلى درجة الاختناق .

والماديون الملحدون لا يتعظون من المآسي التي وصل اليها انسان
هذا العصر المختنق حيث رجع القهقري ليصبح وحشا ضاريا متجردا من
كل انسانية وفضيلة وأخلاق .

قال تعالى في سورة البقرة : « والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما
أنزل من قبلك وبالأخرة هم يوقنون أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم
المفلحون » .

والايمان الصادق العميق النابع من القلب لا يقبل الخوض فيما هو
خارج عن قدرته الإدراكية كالتعابير التي عبر بها القراءان في مثل قوله
تعالى : « ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سموات » اذ هذا التعبير
القرآني ليس معناه الاستواء كما نفهمه ونتصوره ، وانما يعبر عن معنى
السيطرة والقوة الخارقة ، وهكذا يجب أن تفهم مثل هاته التعابير التي ترد
في القراءان ، كما ان القراءان قد يذكر أعدادا حسابية لا يقصد بها العد
الحسابي بل يقصد مطلق العدد من غير حصر كقوله تعالى : «استغفر لهم او
لا تستغفر لهم ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم » .

والقراءان يجعل العبد أمام ربه بدون ان يخضعه لقوانين معينة ولا
لوساطات ، وينفي فكرة الخطيئة عند المسيحيين ، ولا أصل لها في
العقيدة المسيحية نفسها .

ان المرء اذا اخطأ تحمل خطاه وحده ، ولا تقبل الفكرة القرآنية ان
يتحمل البشر كله ما تسميه المسيحية بخطيئة الانسان الاول . فاذا كان
آدم قد اخطأ في الاكل من الشجرة فقد تاب الى الله بمفرده فتأب الله
عليه كما يقول القراءان : « فتلقى آدم من ربه كلمات فتأب عليه » .

فلا وساطة بين العبد وربّه كما تقول آية البقرة : « واذا سألك عبادي
عني فاني قريب أجيب دعوة الداعي اذا دعاني فليستجيبوا الي وليؤمنوا
بي لعلهم يرشدون » .

فالمسلم لا يفصله عن ربه فاصل ولا يحجزه حاجز ، فهو قريب منه
قربا قد لا يتصوره فليدعه وليتوجه اليه فهو سبحانه كريم على عباده
مستجيب لدعائهم .

وقد بينت السنة آداب الدعاء في الحديث المروي عن النبي (ص)
انه قال : « لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع باثم او قطيعة رحم وما لم

يستعجل ، قيل يا رسول الله وما الاستعجال ؟ قال : يقول : دعوت فلم يستجب لي » .

ويقول (ص) : « ان الله تعالى يستحي ان يبسط العبد اليه يديه يسأله فيهما خيرا فيردهما خائبتين » .

والاهم صدق النية والاخلاص لله سبحانه في السر والعلانية .

وتعلن سورة الاخلاص : ((قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد)) عن التوحيد في صفائه وطهارته واشراقه .

فالله واحد لا شيء غيره ، منفرد بالعظمة ، ليس مثله شيء ، اليه المرجع والمآب ، وعليه الاتكال والاعتماد ، فلا حكم الا له ، ولا سلطان الا سلطانه ، ولا مالك الا ملكه ، بيده الخير وهو على كل شيء قدير ، مشيئته نافذة ، وقدرته آخذة ، وعلمه محيط ، وفوق كل علم ، فهو الصمد المقصود الذي لا يقصد سواه ، وما عداه عبيد له وخلائق من خلقه ، لم يلد ولم يولد خلافا لمزاعم المشركين والكافرين ، ولم يكن له كفواً أحد . فليس له مماثل ولا مشابه لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله جل وعلا .

وهكذا تقرر هذه السورة الكريمة معنى التوحيد ، صافيا لا فلسفة فيه ، عذبا لا أشكال فيه ، قلبيا لا يخضع للمادة ولا يتأثر بالاقوال والمذاهب والنحل والاهواء . وبذلك يمتاز التوحيد في العقيدة القرآنية عن كل توحيد مدسوس يخضع لنطقوس وأوهام ، ما أنزل الله بها من سلطان .

وفي سورة الرعد : « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » لكون الايمان يقتضي من المؤمن أن يكون واعيا لما وضع الله في هذا العالم من نواميس لا تتغير .

والايمان بدون عمل لا يجدي صاحبه ، ويكون معناه العجز والفناء ، والقرءان لا يريد للمؤمنين أن يكونوا عاجزين ، ولا أن يسلموا الارض التي استخلفوا فيها للاوغاد الذين ينقصهم الايمان ولا ينقصهم العمل ، فتصبح رسالة السماء ناقصة ، هذه الرسالة التي بنيت على ركنين أساسيين هما الايمان والعمل معا .

فالخالق لا يغير نعمة أو بؤسا على قوم ، ولا يرفع مكائتهم أو يذلهم الا وفق عملهم وقدرتهم على تغيير اتجاههم ومشاعرهم وأعمالهم ، وعلى وفق ذلك يغير الله أحوالهم .

وفي سورة الانفال : « ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

والايمان الصادق لا يدفع عن صاحبه الابتلاء والاختبار ليمتحن في ايمانه أهو سطحي أم عميق ؟

والايمان يجعل الانسان مسؤولا عن عمله ، اذ له من الاختيار ما يمكنه من ان يرجع عن الغي ويسلك طريق الرشاد .

ويقرر القرءان ان نعم الله على عباده تستقر بالشكر وتنصرف بالكفران فيقول : « لئن شكرتم لازيدنكم ولئن كفرتم ان عذابي لشديد » .

فالانسان يستطيع ان يستبقي نعم الله بالشكران ويستطيع ان يزيلها بالجحود والنكران .

وعلى حسب اهداف الايمان القرآني فهل من المقبول قرآنيا ان ينتصر المسلمون في معاركهم الحاضرة اذا لم يغيروا ما بأنفسهم من الانحرافات والتراجعات ؟

وفي سورة يونس : « ولو شاء ربك لآمن من في الارض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين وما كان لنفس ان تؤمن الا باذن الله ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون » .

ومشيئته من ان يجعل البشرية أمام مسؤولياتها ، ولم يشأ سبحانه ان يجبر الناس على الايمان ، ولو شاء سبحانه ذلك لكان ، ولو كان ذلك لم تتحقق للبشرية الارادة في الاختيار بين الهدى والضلال .

وللتربية والتكوين اثر وأي اثر في توجيه الانسان الى طريق الخير والهدى أو الى طريق الشر والضلال .

ولا يستطيع احد ان يجادل في ما تعطيه التربية في البيت والمدرسة والمجتمع من قيمة للانسان .

والشر لا يمكن ان ينمحي من أي مجتمع مهما كان ، ولكن قوة الشر تنقلص في المجتمعات التي تربي على النشأة الاخلاقية .

واحسن عصر تتمثل فيه مزية النشأة الكريمة هو عصر النبوة حيث اشربت نفوس من المسلمين بنعاليهم القرءان فكانت خير جيل للبشرية

يضرب كمثال للتكوين النفسي والروحي والاخلاقي والعملية بل وحتى المادي ، وما ذلك الا لكون هذا الجيل الذي عاش النبي (ص) وتأثر بالقرءان عن بيئة وادراك لم يكن جيلا رخوا يعيش على المناقشات الفارغة بل كان جيلا عمليا خيرا ، لا يتعلق بالفلسفات التي انتشرت وعمت لتزلزل العقائد عن صفاتها بخلق مشكلات معقدة ، لم تستطع البشرية الى يومنا هذا من أن تحل عقدها ولا أن تصل واو الى رأي يقبله العقل ويقتنع به .

ولو أن البشرية رجعت لتعاليم القرءان لاستطاعت أن تحل كثيرا من مشاكلها الانسانية والعقائدية . وقد أدرك بعض الفلاسفة الغربيين ذلك حتى قال الفيلسوف الانكليزي الساخر برذرتشو : أن محمدا هو الرجل الذي يستطيع أن يحل مشاكل عالم اليوم . ولم يقل هذا الكلام جزافا ، وهو العالم الفيلسوف ، وانما قاله بعد دراسة وافية لرسالة القرءان ولشخصية رسول الاسلام (ص) .

ونحن لا نستدل بأقوال هؤلاء الاجانب لشرف القرءان بحديثهم ، وانما لنقول للمنحرفين من المسلمين بأن الغرب الذي اكتظ بالفجور والعصيان قد أخذ يبحث لنفسه عن طريق النجاة ، فلم يجدها في النصرانية السلبية ولم يجدها في الصهيونية المجرمة ، كما لم يجدها في الشيوعية الماحدة ، بل وفي كل المذاهب المختلفة .

وظاهرة البحث عن الخروج من المأزق تتجلى في الدراسات المتتابعة التي يقوم بها علماء مسيحيون كبار وغير مسيحيين ، بل وحتى من الملحدين في كل من أوروبا وأمريكا وآسيا كشفا عن القرءان وتعاليمه عليهم يجدون فيه مخرجا من الهوة التي انحدرت اليها الحضارة المادية المعاصرة .

والمسلم الذي يعطل مواهبه عن التفكير في مقاصد القرءان مسلم بعيد عن تصورات القرءان ، ليس اسلامه بثابت ولو أنه ورثه عن آبائه وأجداده .

أن القرءان يحتاج الى فهم متفتح والى دراسات متنوعة عميقة ليستطيع الدارس أن يدرك معنى الايمان الذي يقصد اليه القرءان الذي أراد للناس أن يؤمنوا بدون ركود ولا اكراه ولا رهبانية ولا ضمور .

والآية الكريمة تلقي سؤالا الانكاري الذي يوضح حقيقة العقيدة في الاسلام فتقول مخاطبة رسول الاسلام (ص) أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ؟

ثم تزيد فتقول : « وما كان لنفس أن تؤمن إلا باذن الله ويجعل
الرجس على الذين لا يعقلون » .

فكل نفس تريد أن تكون مومنة يقينا فعليها أن تسلك المسالك التي
توصلها لذلك باذن الله ، فلا يمكن للمؤمن الصادق أن يخطو بنجاح الا اذا
غمره الايمان العميق بقدرة الخالق الذي يهدي العاملين ويوفقهم .

اما الذين جمدوا وتقاعسوا فانهم ينالون من جمودهم وتقاعسهم ما
يستحقون .

وفي سورة البقرة : « يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا
تبعوا خطوات الشيطان انه اكم عدو مبين فان زللتم من بعد ما جاءكم
البينات فاعلموا ان الله عزيز حكيم » .

فيدعو القرآن المسلمين للدخول في السلم وعدم الانصياع الى
مسالك الشيطان والفواية ، ويريد من المسلمين أن يستسلموا لله وحده في
جميع شؤونهم .

وكلمة السلام عزيزة على القرآن ، ردها في مناسبات شتى لكونه
يريد من المسلم أن يكون انسانا مسلما في نفسه ومع غيره وبذلك يصبح
الاسلام شعار سلم للبشرية كافة .

ويوجه القرآن المسلم في حربه ان حارب وجهة سلمية صرفة
ويعتبر الحرب شيئا طارئا ، فكلما ظهرت بوادر السلام انحاز اليها ، لانه
بايمانه المسالم لا يقاتل تعصبا ولا بغضاء وانما للدفاع عن سلام العقيدة
وسلام الشرف وسلام الكرامة .

وان كل خطوة لا تماشي خطوة السلم فهي من خطوات الشيطان .

ومن من الناس في هذا العالم وخصوصا في الدول المتقدمة لا يشعر
بالقلق والاضطراب من أجل تقلقل السلم سواء بالنسبة للنفس او بالنسبة
للمجتمعات .

وانعدام السلم انعدام لمعنى الحياة التي يريد القرآن للناس ان
يحيوها بعيدين عن كل شعور لا يحقق المعنى الاستخلافي الذي ينشده
القرآن في هذه الارض ، ولذلك تحذر الآية من الانحراف عن طريق السلم
بمعانيه المختلفة ، وتسال في أسلوب استنكاري عن سبب انتظار المترددين
من الكفرة للدخول في السلم الذي يريده القرآن .

المادة

التشريع في القرآن لا ينفصل بعضه عن بعض ، فكما يشرع في العبادات يشرع في المعاملات بدون أن يفصل هذا التشريع عن ذاك لكونه يعتبر تشريعه واحدا كان عبادة او غيرها .

ولا يستقيم امر المسلم الا بالعمل بهما ، ونحن عند ما نفصل في الحديث بين العبادات وغيرها لا نقصد سوى التبويب في التفصيل والا فالعبادات في تشريع القرآن لا تفصل ابدا عن عموم التشريع فيه .

والقرآن يعتبر الانسان مركبا من مادة وروح فيشرع لهذا المركب في وحدة متكاملة ليكون ايمانه كاملا عقيد وشريعة .

وقد فرض القرآن على المسلمين أن يوحّدوا اتجاههم في عبادتهم الى نقطة واحدة ترمز الى وحدتهم في العقيدة والنظام ، وهذه النقطة هي الكعبة المشرفة ، بمكة منبع القرآن .

والكعبة هي بيت الله الحرام الذي بناه ابراهيم ابو الانبياء وولده اسماعيل ليعبد الله فيه وحده بصفته الخالق الموجود المتفرد بالربوبية والالوهية ، فيتجه الخلق اليه سبحانه وحده في صلاتهم التي ترفعهم من ماديتهم الخائفة الى عالم يسبحون فيه بأفكارهم وقلوبهم ويبتعدون عن كل زيف واحراج خاضعين لله وحده الذي لا يغني عنه شيء ، وبذلك تتقوى معنويتهم وتسمو روحهم وتصفو قلوبهم وتتخلص من الرواسب والاهام ، وفي سورة البقرة : « يا ايها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون الذي جعل لكم الارض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله اندادا وأنتم تعلمون » .

وعند ما رفع ابراهيم القواعد من البيت مع ولده اسماعيل توجهوا الى الله بالدعاء أن يجعل عملهما متقبلا عنده وأن يجعلهما مسلمين مع ذريتهما ، وأن يجعل الهداية مستمرة في عقبهما .

وقد أمر القرءان بأن يتخذ هذا البيت المقدس قبلة للمسلمين حيث قال : « واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى » . ومقام ابراهيم هو البيت الذي بناه مع ولده اسماعيل ، فهو مكان القبلة الاسلامية والعبادة الطاهرة من الادران والشوائب ، ولكن مع الايام تعفنت العقيدة وتلوثت حتى صارت وثنية ضالة ، وأصيب العرب بما أصيب به غيرهم من الضلال فملأوا هذا البيت الكريم بالاصنام والاولتان والطقوس .

وجاء الاسلام ليظهر العقيدة مما علق بها ، فوجد من مقاومة قريش ما تقصه كتب السيرة والتاريخ .

وفي سورة البقرة : « ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » .

والجهة ليست الا رمزا للوحدة وتجميع الذهن في العبادة وهدفا من اهداف التكتل والقوة .

والله لا جهة له ولا مكان . « قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء الى صراط مستقيم » .

والحج في الاسلام عبادة ، وهي عبادة ليست مجردة من قصد ربط وحدة المسلمين التي هي اعظم قوة لهم ، فلا يقبل منهم أن يضيعوا فرصة الحج ليجتمعوا ويأتمروا ويدرسوا شؤونهم ويخططوا مستقبلهم وفق منهج الاسلام وسبيله وهم في مظهر عظيم من التجرد عن كل مظهر من مظاهر الحياة المؤثرة في الاتجاه والسلوك ، متساوين فيما بينهم مساواة كاملة ، ترفعهم الى مقام من السمو والتواضع والخير والاحسان والمعروف ، مترابطين برباط الاخوة التي لا انفصام لها رغم تباعد ديارهم وتباين لغاتهم وأجناسهم وألوانهم ، هذه الاشياء التي لا تكون في نظر القرءان عائقا ما دامت هناك وحدة عقائدية تجمع بين المسلم واخيه في كل مكان من المعمور

بحيث تكون العقيدة القرآنية هي وحدها الرباط المقدس الذي يجمع المسلمين كافة .

وينفي القراءان عن الحج كل مظهر من مظاهر الجاهلية التي كانت تصبغ الحج كاتيان البيوت من ظهورها وكطواف أناس بالبيت عراة ، وكل شائبة جاهلية تتنافى مع الاسلام وسماحته .

والصلاة رياضة نفسية ترفع الانسان الى عالم الروحانية المطلقة والتدبر ، وتوحد بين طبقات المسلمين في تجمعهم لصلاتهم ، وتبرز وحدتهم في صفوفهم المتراسة المتكاثفة المتضامنة .

والمسلم في صلاته الجماعية او الانفرادية يشعر بالطمأنينة والانجذاب الى مصرف الكون وخالقه الذي لا تخفى عليه خافية مهما تسترت ، ولا يعزب عن علمه شيء مهما غمض واختفى . وفيها توحيد الوجهة وتطهير النفس في فترات متتابعة حتى لا ينحرف المسلم عن طريق ربه الى مجاهل الغواية وتنهاء عن الفحشاء والمنكر .

ويوجب القراءان المحافظة على الصلاة التي هي من اعمدة الاسلام وأركانه الاساسية ، ففي سورة البقرة : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين فان خفتم فرجالا او ركباناً فاذا أمنتهم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون » .

والمحافظة على الصلاة تكون بالمحافظة على أوقاتها وأركانها وشروطها وما يتبع ذلك من خشوع وتدبر وأسباغ للوضوء .

واختلف الفقهاء في المراد بالصلاة الوسطى ، فقليل انها صلاة الصبح وقيل صلاة العصر . ويروي الامام مسلم ما يرجح أنها صلاة العصر ، فقد روى عن النبي (ص) انه قال يوم الاحزاب : ((شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ملأ الله قلوبهم وبيوتهم نارا » .

وكل صلاة تجب المحافظة عليها ، ولكن الصلاة الوسطى اذا رجحنا ان المراد بها صلاة العصر للرواية التي رواها مسلم ، فلكون وقتها وقت اشتغال للناس ، فقد يتهاونون في أدائها في وقتها فنص عليها بعينها .

وتنص الآية على صلاة الخوف وهي الصلاة التي تقع في وقت لا يسمح فيه للمصلي بأداء صلاته على الوجه المستقر المطلوب ، وفي اتجاه القبلة ، فسمح القرآن للمصلي في هذه الحالة بأن يتجه في أي اتجاه « فحيثما تولوا فتم وجه الله » . كان المصلي راكبا أو راجلا ويومئ للركوع والسجود ، وهذه درجة من الخوف لا تسمح للمسلم بأداء الصلاة على الوجه المفروض .

وقد يخف الخوف بحيث يمكن ان تقام الصلاة المفروضة ، وهي الصلاة التي تسمى بصلاة الخوف والتي نص القرآن عليها في سورة النساء حيث قال : « وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح ان تقصروا من الصلاة ان خفتم ان يفتنكم الذين كفروا ان الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولنأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وامتعثكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ولا جناح عليكم ان كان بكم اذى من مطر أو كنتم مرضى ان تضعوا أسلحتكم وخذوا حذرکم ان الله اعد للكافرين عذابا مهينا فإذا قضيت الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم فإذا اطمأننت فأقيموا الصلاة ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا » .

فهذه الآية تنص على الترخيص للضاربين في الأرض مجاهدين أو متجرين وخافوا ان يفتنهم الكافرون ان يقصروا الصلاة ، كما رخص لكل مسافر ان يقصر الصلاة تخفيفا عنه ولو بدون خوف .

ان هذه الآية تذكر حكم صلاة الخوف في أرض المعركة وهو خوف يسمح بتقسيم الجند واقامة الصلاة جماعة ، أما اذا كان هناك خطر لا يسمح بتقسيم الجند واقامة الصلاة ، فانه يرجع الى العمل بالآية الأخرى : « فان خفتهم فرجالا أو ركبانا » .

وكل هذه التشريعات تذكر بقيمة الصلاة وحرص الاسلام على أدائها لكونها سلاحا من أسلحة الايمان ، كما يحرص على ان تقام جماعة ولو في أرض المعركة .

وفي سورة المائدة : « يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين وإن كنتم جنبا فاطهروا وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا برؤوسكم وأيديكم منه ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون » .

فيقرر وجوب الطهارة عند الصلاة لمكانتها ، لان العبد في الصلاة يواجه ربه ولعظم هذه المواجهة فرض على المسلم ان يكون فيها نقيا نفسا وجسما وثوبا ومكانا .

والآية تبين الوضوء الاصفر والاكبر وما فيهما من رخصة عند العجز عن استعمال الماء اما لعدم وجوده أو لمرض يمنع من استعماله أو لخوف من مرض يطرأ باستعماله أو لعجز عن الوصول اليه وما في معنى ذلك ، والقرآن بهذه التشريعات يريد أن لا يحرج المكلفين ويريد بهم اليسر . ((ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم ويتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون » .

وفرض القرآن الصيام على المسلمين بآية البقرة : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون أياما معدودات فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مساكين فمن تطوع خيرا فهو خير له وإن تصوموا خيرا لكم إن كنتم تعلمون ، شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعاني فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم وكلاوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد تلك حدود الله فلا تقربوها كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون » .

وفي الصيام صفاء روحي ينثقل الصائم من حمأة المادية الى عالم من الشعور الفياض والاحساس المتدفق بالايمان ويجعله قريبا من خالقه بانقياده الى امره . وفيه من الاستعداد للخير مجال واسع .

ولما فرض الله الصيام وضع بجانب الفرض رخصة الفطر لعذر شرعي تيسيرا على المكلفين كما هو الشأن في بقية الفروض الاسلامية لان الله يريد بعباده اليسر ولا يريد لهم العسر . فالمريض له ان يفطر وكذلك المسافر ، ولم تقيد الآية ذلك بتقييد وتركت ذلك لضمير المسلم وتقواه الى ان يصح المريض ويقدر على الصوم ويقيم المسافر .

وبعض الفقهاء يضعون تشديدات على الناس بدعوى فساد الضمائر وتحللها ، ولكن تشديداتهم مرفوضة ، فمن فسد ضميره لا ينفع معه تشديد ولا تضيق وبالخصوص في العبادات ، اذ يمكن ان تقبل بعض التشديدات في غير العبادات لتقويم الاعوجاج ، ولكنها في العبادات لا تستطيع ان تقوم الضمائر المنحلة .

والاولى بالمسلم ان يأخذ برخص الله كما يأخذ بعزائمه ، وان لا ينصت للمتشددين الذين يحاولون ان يجعلوا من تشديدهم سبيلا لاختضاع الناس لشريعة الله مما يأتي بعكس ما يقصدون ، وكان الاولى بهم بدل ذلك ان يعملوا على ايقاظ الوعي القرآني في نفوس المسلمين عوض ان يدفعوهم للمشاكسة والعناد والنكوص .

روى عن جابر قال : « خرج رسول الله (ص) عام الفتح الى مكة في رمضان فصام حتى بلغ كراع الضمير فصام الناس ثم دعا بقدر من ماء فرفعه حتى نظر الناس ثم شرب فقليل له بعد ذلك : ان بعض الناس قد صام ، فقال أولئك العصاة ، أولئك العصاة » .

وروي عن جابر أيضا قال : ((كان النبي (ص) في سفر فرأى رجلا قد اجتمع عليه الناس ، وقد ظلل عليه فقال : ما له ؟ فقالوا : رجل صائم . فقال : ليس من البر الصوم في السفر » .

كما رفع الصوم عن العاجزين عنه اطلاقا كالمسنين .

أما قوله تعالى : « وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مساكين فمن تطوع خيرا فهو خير له وأن تصوموا خير لكم ان كنتم تعلمون » . فهي

تماشي حكمة التشريع في القرآن من التدرج في الفروض حتى يستأنس الناس بها فقد كان الصوم شاقا في أول الامر على قوم لم يألوه فشرعت لهم رخصة الفدية إذا اجهدوا ثم رفعت رخصة الاجهاد بدون مرض أو ضرر لكون الصيام نفسه اجهادا وتربية وامتحانا للمسلم في صبره وعقيدته وأصبح الصوم واجبا الا على العاجز ، وأعطيت الرخصة للمريض والمسافر .

ومن مميزات شهر رمضان أن القرآن فيه بدأ بالنزول ، وشهور رمضان التي عاشها الرسول كانت خصبة في نزول القرآن وتلاوته وتدبره .

فعلى الامة الاسلامية عند ما تصوم رمضان أن تراعي عظمة هذا الشهر الذي نزل فيه قرآنها ، وأن تعي رسالتها الخالدة وأن تشكر الله على النعم التي خصها بها .

وفوائد الصيام الجسدية متعددة زيادة على ما فيه من رياضة نفسية ثمينة .

والزكاة عنصر في العبادات هام ، فهي تطهر النفس من الشح والدرن والاثرة وتبعدها عن الاحتكار والاستغلال .

والزكاة تجعل الجماعة الاسلامية قادرة على سد العوز وتشبيد المنشآت الاجتماعية وتسييرها وتقوية جانبها ، وتوجد التعاون والتآزر بين الموسرين والمعسرين ليتعاطفوا وليتحابوا ويعملوا يدا في يد بعيدين عن البغضاء المادي الذي يسيطر على المجتمعات المادية المتحكمة في الرقاب والاموال ، قال تعالى : « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » .

ويدخل في حيز العبادة كل خير ومعروف ، والمعروف بالمال من أجود المعروف ، وفي سورة آل عمران : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » . والله لا يقبل من النفقة الا ما كان طاهرا وصادرا عن اخلاص وصدق ، ولن ينال البر من ينفق الخبيث دون الطيب ، فالله طيب لا يقبل الا طيبا . وكان المسلمون على عهد النبوة يضربون أروع الامثال في الانفاق من طيب مالهم ، بل منهم من أنفق في سبيل الله احسن ما عنده استجابة لهذه الآية الكريمة .

روى الامام أحمد عن أنس بن مالك قال : « كان أبو طلحة أكثر الانصار بالمدينة مالا ، وكان أحب أمواله إليه بئر حاء وكانت مستقبلة المسجد ، وكان النبي (ص) يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب . قال أنس : فلما نزلت « لن تنال البر حتى تنفقوا مما تحبون » وان أحب أموالي إلى بئر حاء ، وانها صدقة لله أرجو بها برها وذخراها عند الله تعالى ، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله . فقال النبي (ص) : بخ . بخ ذاك مال رابح ، وقد سمعت وأنا أرى أن تجعلها في الأقربين . فقال أبو طلحة : افعل يا رسول الله . فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه .

ورسول الاسلام (ص) كان يحب - تمشيا مع روح الاسلام - أن يتصدق الانسان على من يعرف والاقارب من أكثر اناس لصوقا بالانسان ، ويستطيع أن يطلع على أحوالهم وعوزهم .

والتصدق بمثل هاته البئر التي تصدق بها أبو طلحة هو أعلا قرينة وأجل قدرا من التصدق بشيء لا تستمر فائدته .

وكما فعل عمر بن الخطاب (ض) حينما تصدق بسهمه في خيبر الذي كان من أفضل ماله ، فقد روى البخاري أن عمر قال يا رسول الله لم أصب مالا قط ، هو أنفس عندي من سهمي الذي بخير . فما تأمرني به ؟ قال احبس الاصل وسبل الثمرة .

ومن شعائر الاسلام احتفال المسلمين بعيدين دينين هما عيد الفطر وعيد الاضحى .

فعيد الفطر احتفال بانتهاء شهر الصيام الذي هو شهر الواجب والتوجه الى الله ، وفرضت فيه زكاة الفطر رحمة بضعفاء الأمة الذين لا يترك الاسلام مناسبة لا يلفت فيها النظر اليهم والى ما يجب على الجماعة الاسلامية نحوهم حتى لا يهملوا فيضيعوا ، ومن حقهم على الجماعة الاسلامية أن يحتفلوا باحتفالها ويفرحوا لكونهم جزء لا يتجزأ منها .

أما عيد الاضحى فهو تحية للفداء الذي يجب على المسلم أن يتذكره باستمرار ليكون مستعداً للتضحية .

ويحتفل المسلمون أيضا بعيد المولد النبوي الكريم ، والاحتفال بهذا العيد احتفال طارئ سنة الفاطميون الشيعة في مصر ، فالاحتفال به فكرة شيعية قصد بها احياء ذكرى رسول القرآن (ص) .

وكان الفاطميون الشيعة يحتفلون بهذا العيد في مصر بجانب تأسيسهم للاحتفال بمولد علي وفاطمة والحسن والحسين ، ومولد الخليفة القائم الفاطمي ، ثم انتشر الاحتفال بعيد المولد في بقية أنحاء العالم الاسلامي .

فاذا ما احتفل المسلمون بهذا العيد فيجب ان يكون احتفالهم به احياء لذكرى رسول المبادئ الاسلامية الانسانية التي اخرجت العالم من جاهليته الاولى ووضعته في طريق الهداية والفلاح .

وما زاد على ذلك في الاحتفال بهذا العيد فلا يعدو ان يكون تقليدا خارجيا لا تفره اهداف القرآن ومقاصده .

والشعائر التعبدية في القرآن تقوم على اساس الميل العطري في الانسان قبل كل شيء ، وتتخذ اشكالا تعبيرية عن الخضوع والاستسلام للخالق جل وعلا دون سواه سواء في الصلاة او في الحج او في الصيام وفي كل الاعمال التعبدية .

والخالق جل وعلا غني عن عبادة المخلوقين ، ولكنه سبحانه جعل العبادة دالة بالقلب والجوارح على كمال الامثال والخنوع من العبد لربه ، خاصة حتى يتخلص من كل سيطرة ارضية مصطنعة .

والرسول محمد (ص) الذي يمثل الامثال لله في اجلى مظاهره لم يفتأ يخط للناس طريق التحرر من العبودية الارضية بالاقتوال وبالافعال حتى لا يستعبد البشر البشر بأي وجه من وجوده الاستعباد .

قال (ص) وقد خرج على جماعة فقاموا له فقال : « لا تقوموا كما تقوم الاعاجم يعظم بعضها بعضا » .

وقال (ص) : لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم ، إنما أنا عبد الله
فقولوا : عبد الله ورسوله » .

وأهم ما يلفت النظر في العبادات الإسلامية أنها تعمل على ترويض
النفوس وتوجيهها لأوجه القيمة ، وفي سورة البقرة : « ليس البر أن
تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر
والملائكة والكتاب والنبئين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى
والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى
الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء
وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » .

فقلب المسلم يجب أن يملأ بالإيمان وأعمال الخير والصلاح قبل أن
يتوجه قبل المشرق أو المغرب .

وان الذين يدعون الإسلام ولا ينفقون في وجوه الخير والاحسان مما
أتاهم الله ولا يؤدون الواجبات الإسلامية فإسلامهم ناقص تافه .

والشخص الذي لا يستطيع أن يتحرر من الشح والبخل يحمل بين
جنبيه قلبا صلدا فارغا من معنى السمو الإسلامي ، ويبرأ الإسلام من كل
من لم يف بعهوده والتزاماته لكونه دين الأمانة وألوفاء .

ومن سمة المؤمنين الصادقين الصبر في البأساء والضراء فلا تنهار
نفوسهم أمام الفواجع والكوارث والاحداث ، هؤلاء الذين تتوفر فيهم هذه
المزايا هم الصادقون المتقون .

ان جميع العبادات في الإسلام ميسرة لا عسر فيها ، فالذي لا يقدر
على الوضوء أو الغسل له أن يتيمم ، والذي يعجز عن أداء الصلاة والايان
بأركانها له أن يصلي كيفما تيسر له قاعدا أو متكئا أو مضطجعا ، والذي
لا يقدر أن يطوف في الحج أو يسعى راجلا له أن يركب أو يحمل ، والذي
لا يقدر على الصوم له أن يفطر ويقضي ان كان القضاء ممكنا له ، فان عجز
سقط الصوم عنه .

الاعتدال

انطلق القرءان يغزو القلوب والعقول باعجازه وتسامحه ، يحارب الآثام ويقر المودة والرحمة بين الناس ويزيح التشريعات التي سبقتة وفرضت على اتباعها فروضا قاسية مهولة .

والقرءان عند ما يأمر بشيء أو ينهي عنه أو يدعو إليه أو ينفر منه لا يغفل جانب الرخصة فيضعها بجانب العزيمة لكونه يريد اليسر والسعة ، وهو الذي وصف الإنسان بأنه خلق ضعيفا .

وقد بقي رسول الاسلام (ص) طيلة أيام الرسالة يعلن للناس يسر الاسلام وبعده عن المشقة والحرَج . وقد قال عمر بن الخطاب (ض) : نهينا عن التكلف .

وكان العلماء المدركون لاسرار الاسلام يسировن على المبدأ القائل : ان الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه .

قالت عائشة أم المؤمنين (ض) : ما خير رسول الله (ص) بين أمرين قط الا اخذ أيسرهما ما لم يكن أثما ، فان كان أثما كان أبعد الناس منه .

وروى أبو هريرة عن النبي (ص) قال : ان الدين يسر ولن يشاد الدين أحد الا غلبه فسددوا وقاربوا وأبشروا .

والقرءان لم يربط العقول ولم يامر بما هو خارج عن الطاقة أو فيه احراج ، ومنح حق التصرف وفق أسسه المقررة .

قال تعالى في سورة البقرة : « لا يكلف الله نفسا الا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » .

فلا تكليف الا بالمستطاع رحمة بضعف المخلوقين ، وليس القصد من التكليف الاحراج وانما القصد الطاعة والامتثال لله بدون احراج ولا تضيق .

والتيسير القرآني يجعل المسلم يؤدي تكاليفه وهو لا يشعر بمشقة ولا خذلان ، والله سبحانه أرحم بضعف الإنسان من نفسه .

كما تقرر الآية أن التبعية لا يتحملها الا صاحبها دون سواه .

وفي سورة النساء : « والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفا » .

فالله سبحانه يريد للناس اليسر والسعة ولا يريد لهم الضيق والحرَج ويريد لهم التوبة والهداية والرشاد ولا يريد لهم العقوبة والزجر والاضلال .

ورسالة القرآن تدعو الى الطريق السوي ، ولا تاخذ الناس قسرا ليهدوا وانما تاخذ بيدهم في هداة ونعمة وتيسير ، ويقبل الله سبحانه توبة الاوابين اليه .

وتنبه الآية الى أن الغاوين أصحاب المطامع والشهوات يريدون للناس مزالق ومهاوي لا يأذن الله بها حتى يميلوهم ميلا عظيما عن نهج الله القويم .

ان الله سبحانه يريد أن يتوب على عباده ويرحم ضعفهم ويخفف عنهم ، وهو لم يشرع في شريعته إلا ما كان ميسرا لينا مقبولا .

وفي سورة البقرة : « يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا » .

ذلك أن القرآن دين معتدل في تشريعه ، حكيم في قصده ، وحكمته هي التي جعلت منه دين البقاء والخلود والصمود .

والقرآن لسان دين يمشي العقل ويعادي التقليد والجمود .

والاسلام دين الحكمة وهي فضل من الله عظيم ، فمن أوتيها فقد أوتي خيرا كثيرا .

والحكمة توجه الى الحق ، والعالم بدون حكمة قد يوجه الى طريق الضلال . وتقدم العلوم والمخترعات بالحكمة يقود الانسانية الى المجد والخير ، ولكن تقدمها بدون حكمة يقود الى هاوية السقوط والتجني والانحراف .

ومن الاعتدال القرآني ما جاء في سورة الاسراء : « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا » .

وتنهي آية أخرى عن التبذير فتقول : « ولا تبذر تبذيرا ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا » .

والتبذير هو الانفاق في غير حق ، لان الانفاق في الحق لا يعد تبذيرا .

والتوسط في الامور هو القاعدة القرآنية العامة ، وهي التي تقرها آية : « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط » .

فالبخل مذموم وتصوره الآية في صورة شخص غلت يده الى عنقه .

والاسراف مذموم وتصوره الآية في صورة شخص بسطت يده فلا تمسك شيئا .

وكلا الحالتين حالة البخل وحالة الاسراف يكون صاحبهما ملوما .

واذا فالطريق الذي يجب سلوكه هو طريق القرءان في التوسط والاعتدال حتى لا يقع ندم على البخل في حالة لا ينبغي البخل فيها ، او على الاسراف بدون تدبر للعواقب السيئة .

ويقول سبحانه في سورة آل عمران : « لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من انفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين » .

انها لمنة من الله ان يبعث في المؤمنين رسولا منهم يتميز بفضائل واخلاق سامية يتلو فيهم آيات الله ويعلمهم كتاب الله والحكمة التي هي الركيزة الاساسية لعدم التطرف والشرود .

وبالحكمة والموعظة الحسنة قاد محمد (ص) هذه الامة ونهض بها ونقلها الى مكانة قيادية سامقة .

وهذه الآية تأتي في أعقاب غزوة أحد التي كانت فيها الهزيمة على المسلمين لمخالفة طائفة منهم أوامر الرسول ، ولكن معناها العام يتعدى حدود الغزوة ليعم كل الجوانب .

فالرسول من أنفسهم يخاطبهم بلغتهم ويتحمل من أجلهم ويرشدهم الى صلاحهم ويظهر قلوبهم ويمسح مشاعرهم من الغضب والكفران ويخرجهم من الظلمات الى النور ومن الجاهلية الرعناء الى حياة العزة والمعرفة والحكمة والهداية والتبيان .

فأي رسالة هاته التي جعلت منهم القادة والمفكرين بعد خمـول طويل ؟

أفلا يجب عليهم ان يشكروا هاته النعم المترعة التي صبها عليهم القراء أن صبا بعد أن كانوا قبائل متفرقة وثنية متقاتلة ، فوحدها الاسلام وجعل لها وجودا عالميا متميزا ؟

فان كانت للمسلمين رسالة في هذا العصر فهي رسالة القراءان الحكيمة الواضحة الميسرة التي يمكن أن تنقذ البشرية من انكفائها لكونها متحررة ، وتستطيع أن تساير العلوم والمخترعات والآراء وتماشى العقول لكونها عقلية ومنطقية وحكيمة .

الانسان في القرآن

قال تعالى في سورة الاسراء : « ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً » .

فلقد كرم الله الانسان تكريماً عظيماً على كثير من خلقه حتى أسجد له ملائكته ومنحه إمكانيات عقلية جبارة يتميز بها عما سواه ، وسخر له الاكوان ، وجعل له القدرة على ارتياد الاجواء والغيافى والبحار ، كما ركب فيه من القدرة على تسخير كل شيء من أجله .

والبحار رغم هولها مكن من التغلب عليها بالمراكب .

والفضاء رغم خطورته مكن من التغلب عليه بالمخترعات .

والبر رغم تضاريسه مكن من السيطرة عليه وتسخيريه واستخراج كنوزه وخيراته .

وقد رزق الله هذا الانسان من الطيبات المتعدّات المتنوعات ما لا يكاد يحصى .

هذا الانسان الذي له الخلافة في هذه الارض التي سخرت له بجميع ما فيها من مخلوقات ، بل وسخرت له عوالم أخرى تخدمه ، ويستطيع بعقله ان يرودها لمصالحه وأغراضه .

ولكن القرآن قيد هذا الانسان بقيود خلقية وتشريعية حتى لا يندلع مفسداً ، وقد أراد الله أن يكون مصلحاً ، لذلك جعله مسؤولاً عن أعماله ووضع له جزاء ، ان خيراً فخير وان شراً فشر .

ان القرآن يكرم الانسان تكريماً خارقاً ويحاول أن يرفعه من درجة الحيوانية الشرهة الى درجة قدسية كريمة ، فمنحه الخلافة في الارض ليستعمرها كما أراد الله أن تستعمر ، ويستثمرها كما أراد الله ان تستثمر ، وينشر فيها السلام كما يريد الله ان ينشر بين خلقه كافة ، وزوده بالعقل والتفكير والادراك ليتفهم رسالته ويعيها .

قال تعالى في سورة البقرة : « واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض خليفة قالوا اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال اني أعلم ما لا تعلمون وعلم آدم الاسماء كلها ثم

عرضهم على الملائكة فقال أنبيؤني بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك انت العليم الحكيم قال يا آدم انبئهم بأسمائهم فلما انبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم اني اعلم غيب السماوات والارض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس أبى واستكبر وكان من الكافرين .

وقد خشي الملائكة الذين هم من المخلوقات المطيعة المجبولة على الخير من هذا الانسان المستخلف في الارض من أن يدمرها ويفسد فيها، ولكن حكمة الخالق جل وعلا كانت واعية لمعنى هذا الاستخلاف .

وزاد الخالق في تكريم هذا الانسان لما أمر الملائكة بالسجود له تكريما وتعظيما ، فهو نفحة من نفحات الله ، له مكانته وسيادته وكرامته .

والخلافة في الارض ليست قاصرة على انسان دون انسان ، وانما تعم جميع المخلوقين بدون استثناء .

فعلى الانسان أن يتحمل رسالته في الارض بكل ما تحمله من سمو ورفعة ، وأن لا ينقطع عن نبعه الاصيل وارتباطه مع السماء بروابط متينة .

وانسان هذا العصر لم تعد له كرامته التي أرادها القرءان له ، بحيث اعتدى على كرامته ونهبت خيراته ومنع من حقوقه بسبب انحدار مجموعة من الانسان الى درك الحيوانات ففقدت هذه المجموعة كل خلافة في الارض بمعناها القرآني .

وكان لطغيان المادة أثر في تفهقر هذا الانسان المستخلف في الارض .

وفي سورة النساء : « يا ايها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والارحام ان الله كان عليكم رقيبا » .

وبذلك يرد القرءان الناس في أصلهم الى منبع واحد لكونهم متساوين لا يفصلهم فاصل ولا حاجز ، فلا فرق بين أسودهم وأصفرهم وأبيضهم وأحمرهم ، فكلهم من آدم ، وآدم من تراب . ولكن الجاهلية الرعناء لم تفارق بعض العقول حتى في عصر التقنية والتقدم العلمي وارتداء الفضاء .

ولو رجعنا الى التاريخ لوجدنا فيه من أدمى ان الدم الذي يجري في عروقه هو من دماء الآلهة ، ولوجدنا من حاولوا ان يوهموا الناس بانهم من أصول نظيفة هي أكرم من أصول غيرهم ، ولكننا اذا رجعنا الى القراءن تتلاشى كل تلك الادعاءات المضللة التي تسيطر على بعض العقول .

وكما يرد القراءن الناس الى اصل واحد يردهم الى معبود واحد هو خالق السماوات والارض ، لا الاله غيره ولا رب سواه .

فالانسان مكرم حسيا ومعنويا ، مكرم حسيا لكونه يتساوى مع غيره في أصل الوجود ، ومكرم معنويا لكون القراءن كرمه من أن يعبد غير خالقه، أو ان يستعبده اي كان سواء عن طريق الطبقة او المذهبية او العقائدية .

والتسوية في القراءن تعم الرجل والمرأة ، ومن اجل ذلك نجده يسوي بينهما في الحقوق والواجبات تسوية كاملة تامة ، الا فيما لا يمكن التسوية فيه ، مما يرجع لطبيعة الرجل وطبيعة المرأة من الناحية التكوينية والعاطفية .

وهذه الآية الكريمة تنبها الى نظام الاسرة الذي جعله القراءن من ضروريات حفظ المجتمعات من التدهور والانقراض ، ثم تأمر الآية بتقوى الله الذي خلق فقدر ، وبتقوى الارحام التي تربط الوشائج والعواطف .

وصلة الرحم من الاشياء التي اهتم بها القراءن وحض عليها وحذر من مغبة مقاطعتها اعتبارا لمكانتها عند الله ، ويقول القراءن في سورة الاسراء : « ان احسنتم احسنتم لانفسكم وان اساتم فلها » ليقرر أن عمل الانسان له ، فليختر نوع عمله ، فان كانت نتائجه طيبة فله ، وان كانت خبيثة فعليه .

وهذا مبدأ يقرره القراءن في عدة آيات منها :

« كل نفس بما كسبت رهينة » .

« ولا تزر وازرة وزر أخرى » .

« من يعمل سوء يجز به » .

« من اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها » .

وفي سورة الاسراء : « ويدعو الانسان بالشئ دعاءه بالخير وكان الانسان عجولا » .

فمن طبيعة الانسان العجلة حتى لا يكاد يميز بين المنفعة والمضرة ، فهو يفعل بسرعة ، وقليل من الناس من يضبطون أعصابهم وسيطرون على انفعالاتهم ، وفي السرعة الندامة ، وفي التأني السلامة ، والعجلة من الشيطان والتأني من الرحمان كما يقال .

والانسان تدفعه العجلة لعمل شيء يعتقد فيه منفعة له ولكنه يعود عليه بالاضرار البالغة ، وقد يتقاعس عن عمل فيه خيره .

وتأتي هذه الآية في سياق هداية القرآن وارشاده للبشر ، فعلى المسلم أن يستشير القرآن في كل عمل يعمل وان لا يندم على ما فاتته ، أذ قد يكون فيه شر عليه .

واذا كان المسلم مشبعاً بروح القرآن ، فانه سيكون انساناً عملاً وخيراً ، فان لم يكن كذلك ، فانه لا يسلم من التردى في الاحوال والآثام .

وقد يغضب الانسان ويدعو ربه بالشر في حالة غضبه على نفسه وأهله وما له كما يدعو بالخير ، وفي الحديث الشريف : (الغضب جمرة توقد في القلب) .

ان اللاحاح في طلب شيء يعتقد الانسان فيه الخير وتدفعه العجلة لان يريد في اللاحاح فينال مطلبه فيكون شراً عليه .

وكل الناس يحبون الخير لأنفسهم ، ولكن عليهم أن يترثوا في الطلب عملاً بمبدأ القرآن الكريم الذي يربي الانسان على التروي والاعتدال وعدم المجازفة واللاحاح حتى تبين معالم الطريق .

وفي سورة الانبياء: « خلق الانسان من عجل » . فمن طبيعته انه عجل يريد ان يحقق كل شيء بسرعة ، ولو كان فيه ضرر له ، لان العجلة المركبة في طبعه تحنقه وتملي عليه .

ويقول تعالى في سورة هود : « ولئن اذقنا الانسان منا رحمة ثم نزعناها منه انه ليؤوس كفور ولئن اذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني انه لفرح فخور الا الذين صبروا وعملوا الصالحات اولئك لهم مغفرة وأجر كبير » .

انه لا بد للانسان من الايمان ليستقر ويطمئن في متاهات الحياة ، اذ بدون ايمان يضطرب الانسان ويضيق صدره ويفمره اليأس والظلام ، وهذا الانسان يصوره القرآن وفيه جحود وكفران بالنعم ، فهو يطفى بها ويففل عن مصدرها ، فاذا فقدتها ولم يكن معه من الايمان ما يقوي عزمه غضب وثار واشتد وأفسد ، وفي الحديث : كتب على النفس الخبيثة الا تخرج من الدنيا حتى تسيء لمن أحسن اليها ، لجحودها وكفرانها باليد التي ساندتها ، فلم تقابل الاحسان بالاحسان كما كان يجب عليها ، وأنما قابلته بالشر والسوء .

أما النفوس الطيبة الكريمة المؤمنة المطمئنة فان ايمانها يمنعها من مقابلة الاحسان بالشر لان طينتها طيبة وسليمة من الكيد للمحسنين .

وفي سورة الاسراء : « وإذا أنعمنا على الانسان أعرض ونأى بجانبه، وإذا مسه الشر كان يؤوسا » .

فالانسان لو ترك لنفسه ولم يقيد بالشرع لعاد الى حيوانيته المفترسة ، هذا الانسان الذي تجعله النعمة طاغيا متعجرفا ، والنعم اذا شكرت قرت ، واذا كفرت فرت . هذا الانسان الذي اذا أصابته شدة ابتأس ودخله القنوط ،وعمته الحسرة ، فاذا لم يتصل بالله ضاع في مجاهيل الحياة ، والاتصال بالله يورث الطمأنينة ويجعل الانسان متفتحاً مؤملاً راجياً مستبشراً متفائلاً .

الشرك واليهودية والنفاق

هذا ثالث شرير تكتل ضد الدعوة الإسلامية ، وتحالف تحالفا جاهليا للوقوف في طريقها وان اختلفت مشاربه ومنابعه وأهدافه .

فالمشركون الوثنيون في مكة هم أول من عارض القرءان حينما زلزلت آياته مجتمعهم الوثني وتبذت أعرافهم الجاهلية وحكمت على عقائدهم بالضلال ولم تتوافق مع طبيعة رؤسائهم وأسيادهم .

وقد خاطبهم القرءان بما يأسهم من الاستمرار في دنس ضمائهم وتلوث قلوبهم فقال سبحانه : « أن الله لا يغفر أن يشرك به » . وقال : « ومن يشرك بالله فقد ضل ضللا بعيدا » . وقال : « انه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار » .

والمشرك مضطرب النفس متقلب الاهواء عنيد مشاكس ، وقد صور القرءان تصويرا بديعا فجعله في انزلاقه عن التوحيد كمن زلت قدماه ، فهو الى درك الشرك بالله حيث الضياع والهلاك فيقول سبحانه : « ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق » . فكأنه سقط من عال فسحق وتمزق فتأكله الطيور أو تقذف به الرياح في هوة سحيقة . وهكذا الذين يشركون بالله ، يسقطون من سمو الايمان الى رذالة الكفر ، ففي الايمان علو وارتفاع ، وفي الشرك سقوط وفناء .

ان الشرك لظلم عظيم وكفران صارخ والله لا يغفر الشرك لاحد ولا يتجاوز عنه أبدا .

والشرك الجاهلي الذي نبذه الاسلام ، له صور متعددة يتجلى في عبادة غير الله أو في اقتران عبادته بعبادة غيره من أصنام وأزلام وحيوانات ونجوم وقبور وغير ذلك ، أو أن ينسب لله ما لا يليق به كالقول بأن الملائكة بنات الله .

ومن أنواع الشرك الجديد عبادة المادة ، وتقديسها حتى طمست البصائر والقلوب فغدا الاستفراق في حبها ضرب من ضروب الشرك ، وقد قال

سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون » .

وليس هذا خطأ من منافع المال وإنما هو تنبيه على أن المال لا ينبغي أن يشغل المرء عن ربه ولا أن يذله ويزري بكرامته ويحمله على السقوط والانحلال .

ومن جعل بينه وبين الله واسطة فقد عبد الواسطة ، وفي القرآن الكريم : « والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى » .

وروى مسلم وغيره عن النبي (ص) قال : قال الله تعالى : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه » .

يقول الشيخ محمد رشيد رضا : والرسول هو الواسطة المبلغة للكتاب كما قال تعالى : « ان عليك الا البلاغ » فلا يمكن لاحد ان يتقرب الى الله بشخص الرسول بل بما جاء به الرسول .

والجهل بالاسلام فتح ثغرات مؤلمة بين المسلمين ، فتركوا التوجه لخالقهم مباشرة وتوجهوا لغيره جهلاً وضلالاً . يقول سبحانه في سورة البقرة : « من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه » . فتدل على انفراد سبحانه بالملك والسلطان يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً . ويقول الشيخ محمد عبده : ان في هذا الاستثناء قطعاً لامل الشافعين والمتكلمين على الشفاعة المعروفة التي كان يقول بها المشركون وأهل الكتاب عامة ببيان انفراد تعالى بالسلطان والملك وعدم جراءة احد من عبيده على الشفاعة او التكلم بدون أذنه ، واذنه غير معروف لاحد من خلقه هـ .

ولقد تصارع القرآن مع المشركين صراعاً مكشوفاً استمر من زمن البعثة الى ان تغلب التوحيد وانتصر الاسلام ، وقامت له دولة بالمدينة المنورة .

أما صراع القرآن مع اليهود فقد كان له وجه آخر ، لان اليهود أهل كتاب وديانتهم من أقدم الديانات ، فكان خطرهم على الاسلام مركزاً أكثر

من خطر الشرك ، خصوصا لما التجأوا في حربهم للاسلام الى تزوير آيات توارثهم وأخذوا يدعون أنهم شعب الله المختار ، فرد عليهم القرآن أكاذيبهم ودحضها وفصح نواياهم الخبيثة .

والاسلام لم يعاد اليهود ليهوديتهم ولا النصارى لنصرانيتهم ، وقد ناداهم القرآن بالنداء الجامع فقال سبحانه : « قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » . وهذه الآية تدعو أهل الكتاب جميعا الى عبادة الله وحده وعدم الاشرار به، وهي دعوة انصاف تضع أهل الكتاب امام مسؤولياتهم ، ومعظمهم وقتئذ في الحجاز من اليهود ، فاذا كانوا حقا يؤمنون بالله ، فلماذا يدلسون في ايمانهم فيؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعضه ؟ .

لقد وقف الاسلام من اليهود موقفا كريما لكونهم أهل كتاب ، فلما لم يقلعوا عن تأمرهم وغرورهم ، فضحهم القرآن فضيحة تاريخية بوصفهم بأوصافهم الخسيسة .

ومنذ أن اتصل الاسلام باليهود في يثرب وهو يعطيهم اعتبارهم ، لكنهم أبوا إلا محاربته ولو بالتحالف مع المشركين .

ومعارضة اليهود للاسلام لم تنشأ عن الوعي والارادة الحسنة وانما جاءت معارضتهم من حقدهم وكراهيتهم لنبي الاسلام محمد (ص) الذي بعثه الله من غير بني اسرائيل .

ولم يقبل اليهود ان ينتقل محمد (ص) بدينه الى يثرب ، هذه المدينة التي كانت على وشك أن تباع ملكا يهوديا متوجا على العرب يتحكم في رقابهم ، وكاد اليهودي عبد الله بن أبي بن سلول أن يجلس على عرش يثرب لو لم يداهم الاسلام وهو يتهيا للتتويج مما جعله يحقد على الاسلام حقا اسود فينجر الى حمأة النفاق ويلجأ مع شرذمته اليهودية الى تفسير التوراة حتى لا يطمئن الناس الى رسالة محمد (ص) .

وقد رفض الاسلام ادعاءهم بأنهم شعب الله المختار المتميز عن المخلوقات بالرسالات السماوية ، لان الاسلام لا يميز انسانا على انسان ولا شعبا على شعب بمجرد النسبة أو السلالة .

ولم يأت القرآن بما يخالف عقيدة اليهود الواردة في التوراة المنزل على موسى عليه السلام ، وإنما جاء بما يصلح ما فسد وجاء بما يلائم البشرية المتجددة ، وجاء بما يلائم جميع الأمم والشعوب بما فيها شعب إسرائيل الذي يدعي لنفسه الامتياز على جميع المخلوقين .

ولم يستجب اليهود لنداء القرآن حين ذكرهم بما في كتابهم من العبر والآيات ، وتعددت نداءات القرآن وتوجيهاته لهم وهم لا يزيدون إلا كفرا وعنادا وتحجرا ، فقال سبحانه في سورة البقرة : « أن الذين كفروا سواء عليهم آذنتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم » .

وظل اليهود من يومئذ يعادون الاسلام ويكيلون له ويتربصون به ، ومن يتبع آيات القرآن يدرك أن اليهود من أشد أعداء الاسلام ، لا يوازهم في عداوتهم له دين ولا مذهب ، ولذلك أطال القرآن في التحدث عن خباثتهم ودسائسهم ، ليس مع الاسلام ونبيه فحسب ، بل ومع انبيائهم من بني إسرائيل ، لانهم قوم غدر لا يؤمن جانبهم .

قال تعالى في سورة المائدة : « لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون » .

وقال في سورة البقرة : « أو كلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون » .

وقال في سورة آل عمران : « وددت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون إلا انفسهم وما يشعرون ، يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون ، يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون » .

وقال في سورة النساء : « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا » .

ان على المسلمين ان يدركوا خطر اليهود على الاسلام منذ ظهوره الى اغتصاب فلسطين على يد الصهيونية العالمية ، وما يحيط بذلك من مكايد دولية ما زلنا نعيشها ونشهد مآسيها .

والخيانة من مميزات اليهود ، فهم لا يترددون في خيانة العهود والمواثيق قديما وحديثا ، وما ثبت أنهم وفوا بعهد من عهودهم . ويقول سبحانه : « لو كلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم » . ولم يتورعوا في ضلالهم على عهد رسول الله (ص) من أن يتحالفوا مع المشركين الوثنيين في غزوة الاحزاب .

وقد نشأ عن تعنت اليهود ومروقهم ودسهم مبدأ النفاق ، فهو مبدأ يهودي صرف ، نشأ لتخريب الاسلام من داخله وتشكيك المسلمين في دينهم ، فلم يكذ النبي (ص) ينتقل بالقرءان من بؤرة الشرك والوثنية حتى وقع بين برائن اليهودية والنفاق في المدينة ، فكان ذلك من أخطر ما واجهته الدعوة الاسلامية ، واصبح المنافقون يتظاهرون بالاسلام ويندسون بين المسلمين ليهزموهم ، وتحمل النبي (ص) منهم آلاما وأوجاعا وتلقى من ربه آيات كريمات تكشف عن احوال المنافقين وأخطارهم على الدعوة الاسلامية ومصيرها . ونهى الله المسلمين عن اتخاذهم خلافا وأطلاعهم على اسرار المسلمين ، وصورهم لهم القرءان في اضطرابهم النفسي وتزحزح عقيدتهم وكفرانهم بالنعم والتجائنهم الى المداورة والخداع والتأمر والتشبيط ، وأنهم اذا صالوا مع المسلمين تكاسلوا وتثاقلوا وتظاهروا بالايما ن وخادعوا الله وهو خادعهم ثم انقلبوا الى جماعتهم ليخططوا ويكيدوا وعندما يفتضحون في نفاقهم يكثرون من الاعذار لرسول الله (ص) ويحلفون أنهم ما أرادوا سوء ، فاذا حقق المسلمون نصرا تألموا ، واذا نزلت بهم مصيبة فرحوا واستبشروا .

وكان النبي (ص) يعرفهم ويحاول أن يخفف عنهم ما يجدونه في أنفسهم من الحقد والكراهية فيعطيه م على أنهم من المؤلفة قلوبهم لعل الله أن يهدي طائفة منهم ، ولكن منهم من اكل النفاق نفسه فلم ينفع معه منطق ولا عطاء ، بل منهم من لم يكتف بمحاربة الاسلام كدين ، بل أخذ يؤذي نبي الاسلام في شخصه ويصفه بصفات تنافي النبوة والرسالة ، فرد القرءان عليهم بوبرا رسوله من مفترياتهم .

ولما طفع الكيل نزل القرءان يقول : « يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلب عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير » .

روي عن قتادة انه بينما كان النبي (ص) في غزوته الى تبوك وبين يديه اناس من المنافقين فقالوا : ايرجو هذا الرجل ان تفتح له قصور الشام وحصونها ؟ هيهات !! فأطاع الله نبيه على ذلك فقال : أحبسوا على هؤلاء الركب ، فأتاهم فقال : قلتم كذا وقلتم كذا ، قالوا : يا نبي الله انما كنا نخوض ونلعب ، فأنزل الله فيهم : « ولئن سألتهم ليقولن انما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ، لا تعتذروا قد كفرتم بعد ايمانكم ، ان يعف عن طائفة منكم تعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين ، المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون ايديهم نسوا الله فنسيهم ، ان المنافقين هم الفاسقون ، وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هي حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم » .

وقال سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودواما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات ان كنتم تعقلون » .

ان بلية النفاق من البلايا الانسانية التي لم تخفف الحضارات والمذاهب من غلوائها ، فبقيت تزحف في المجتمعات وتحطم فضائل الاخلاق ، ووجد النفاق مرتعا خصبا للنمو في المجتمعات المتحضرة الطافحة بالنفاق والمنافقين الزاخرة بأساليبهم المتعقنة الملتوية ، وازداد انتشارا وتمكنا في المجتمعات الاسلامية التي تتخذ منه أسلوبا في المعاملة والسلوك مع ما يصاحبه من الرياء والاثرة والخيانة والزلفى بحيث يصعب اقتلاعه من النفوس ، لانه مرض قلبي ، وما أصعب شفاء أمراض القلوب . وكان النفاق على عهد النبوة كفرا وخروجا عن الاسلام ، ثم اتخذ اشكالا والوانا مع الظروف والاحوال .

ان النفاق صراع مستمر بين الهداية والضلالة ، وبين الحق والباطل ، وبين الفضيلة والرذيلة ، وهكذا تصارع القراءان مع المنافقين بسموه وانحطاطهم وانسانيته ونذالتهم ، ثم تتابع الصراع بعد وفاة النبي (ص) بتوجيه من اليهود وتدبيرهم ، فبعد انتقال رسول الله (ص) الى الرفيق الاعلا وانتشار الاسلام شرقا وغربا اعتمد اليهود النفاق لتفتيت الدولة الاسلامية الفتية ، وتدبيرهم النفاقي استشهد الخليفة عثمان بن عفان (ض) فانطلقت اليهودية بنفاقها تدس في الاسلام احاديث مكذوبة على رسول الله (ص) ، وقد تضخمتم هذه الطائفة المخربة للاسلام وتمكنت فيما بعد من ان تصيب المسلمين بالخلاف والاحباط .

وفي الحديث أن النبي (ص) قال : أخاف على أمتي زلة العالم وجدال المنافق .

وحديث القرآن مع المشركين واليهود والمنافقين يختلف عن حديثه مع النصارى الذين لم تكن لهم وقتئذ قوة في الجزيرة العربية كقوة اليهود ولم يكن لهم حقد على الاسلام كحقد اليهود ، ولذلك لم يدخل معهم القرآن في مثل العراك الذي اضطر الى خوضه مع اليهود ، ولأنهم كانوا أقرب الى الايمان بالاسلام من غيرهم وبحثمهم عن الحق ، وحتى الذين لم يدخلوا في الاسلام من العرب المتنصرين لم يسلكوا مسلك اليهودية المقيتة . ولم يتعصبوا ضد الاسلام الا بعد ظهور الصليبية المروعة بعد قرون ولأسباب خاصة لعب فيها اليهود بأصابعهم الملوثة بالأجرام أدواراً هامة .

واعتقد أن الدول النصرانية التي تناصر اليهود الصهاينة في فلسطين اليوم لا تفعل ذلك بدافع ديني ولا حبا في اليهود وإنما لسياسة تعمل عملها والدعاية تنفخ أبواقها ، والا لما اختارت الدول النصرانية أن تتعامل مع شراذيم الانسانية وحتالات البشرية .

أما من حيث العقيدة والايمان فإن القرآن يحكم على اليهود والنصارى بالكفر لعدم ايمانهم برسالة محمد (ص) بعد ما علموا عنها من كتبهم ، ولكنهم غيروا صفاء التوحيد وخطوه بضلالات لا يقرها الاسلام .

وقد واجههم القرآن بنكرانهم في قوله تعالى : « قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والانجيل وما أنزل اليكم من ربكم » .

والقرآن لا ينهى المسلمين عن الاتصال والتعامل مع غير المسلمين ، وإنما يحذر المسلمين من الكائدين لهم والمتربصين بهم والذين لا يقابلون تسامحهم الا بالأجهاز عليهم ، إذ من الغباوة ان يلتجئ المسلمون الى أعدائهم يناصروهم .

وفي القرآن الكريم : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ، ان الله يحب المقسطين ، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » .

الجهاد

فرض القرآن الجهاد من أجل الدعوة ورد الاعتداء ، ولم يقصد الى استعباد او استرقاق ، وانما كان يريد وقف زحف الوثنية والشرك وانشاء مجتمع نظيف يعيش اناس فيه مؤمنين متحابين .

وقد أبى الكفرة الا الوقوف في طريق الدعوة القرآنية وتضليل الناس والحق الاذى بالمؤمنين ليتمكن لهم أن يقضوا على البذرة الاولى التي كان يتعهدا الرسول محمد (ص) .

ومبادئ القرآن كانت في حاجة الى قوة تزجر المعتدين وترد كيدهم ، ولم يكن القرآن كتاب حرب وقتال واعتداء .

والسلام لا يتحقق الا اذا زجر المعتدون وفرضت عليهم العقوبات .

ولم تكن حروب الاسلام استعمارية وانما كانت دفاعا عن الدعوة والعقيدة وتبليغ الرسالة التي أنزلها الله عامة .

وتشريعات القرآن في الجهاد ومعاملة الاسرى تعطي صورة متكاملة عن تمسكه بأهداب الحرية والعدالة والمساواة .

وما ورد في القرآن من الحظ على الجهاد والترغيب فيه مقيّد بالدفاع عن الدعوة والذود عن الحقوق ، فليس الجهاد في القرآن تهجما واستفزازا ، وليس المجاهد طاغية متسلطا ، بل الجهاد فريضة مقدسة محترمة لها شروطها وقوانينها ، والمجاهد في القرآن شريف النفس كريمها بعيد عن شوائب الظلم والتعدي .

وغاية القرآن من الجهاد القضاء على الوثنية والشر واقرار التوحيد والايمان والسلام ، وكان رسول الله (ص) يلوم المسلمين اذا هم خالفوا

مبادئ القرآن في الجهاد ، مع أنهم لم يصدر منهم على عهد الرسول شيء متعمدا ، وانما كانوا يخطئون أحيانا فلا يقرهم الرسول على خطئهم .

ونهى المجاهد المسلم عن قتل الاطفال والنساء والشيوخ والمدنيين الذين لا يحملون السلاح فلا يجوز التسلط عليهم ، ومن خرج عن التخطيطات الإسلامية في الجهاد يعتبر مجرد سفاك لا وزن له ولا اعتبار .

فتشريعات القرآن الحربية ليست عنصرية ولا مبيدة وانما هي انسانية سواء في ساحة القتال او في معاملة الاسرى ، والحرب حدث له دواعي محددة بنص اقرآن فاذا ما زالت تلك الدواعي فلا تكون الحرب شرعية .

ولما كان الجهاد من فروض الاسلام المؤكدة ، ويعتبر عبادة من العبادات جعل القرآن الذين يصرعون في سبيل الله أحياء يرزقون عند ربهم ، لان تضحياتهم غالية وثمينة ، فאלله سبحانه وجود عليهم بحياة أفضل بدرجات لا تقدر من حياتهم الدنيا ، فالذين يصرعون في سبيل الله أحياء عند ربهم يرزقون رزقا حقيقيا نجعل كنهه ونؤمن بوجوده عملا بالايمان بالغيب الذي يعتبر جزء من العقيدة الإسلامية ، قال تعالى : في سورة البقرة : « ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون » .

وقال في سورة آل عمران : « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

فالجهاد المعتبر في القرآن جهادا هو ما كان لنصرة العقيدة والذود عنها والدفاع عن حوزتها وعن أمر الله .

روي عن أبي موسى قال : سئل رسول الله (ص) عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء ، أي ذلك في سبيل الله ؟ فقال : من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله .

وفي سورة البقرة : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين ، واقتلوه حيث تقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ، ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه ، فان قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين ، فان انتهوا فان الله غفور رحيم ، وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ، فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين ، الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص ، فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ، واتقوا الله وأعلموا ان الله مع المتقين ، وانفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة وأحسنوا ان الله يحب المحسنين » .

ان القرءان لا يدعو للقتال ، ومن المؤكد انه يدعو للسلام في كل مناسبة ، فاذا لم يسأله خصوم الدعوة ومنعوها من الوصول الى الناس واعتدوا على أصحابها فانه لا يقر المؤمنين على ان يقفوا مكتوفي الايدي ازاء خصوم الدعوة وأعدائها .

والدعوة القرآنية دعوة شاملة عامة ، فاذا تركت تخطو خطواتها بالحجة والدليل ، فلا داعي الى قتال ، أما اذا صدها خصومها بالعنف ووقفوا في وجهها بالتعنت والكيد فمن غير المقبول ان لا يصد العنف والتعنت والكيد .

والقرءان يقرر انه لا اكراه في الدين ولا اعتداء على الدين ، فمن شاء ان يتقبل الدعوة عن طيب خاطر وأدراك تقبلها ، ومن شاء ان يرفضها بالتي هي احسن رفضها . ولا يقبل القرءان ان يفتن المؤمنون في عقيدتهم لمجرد أنهم اعتنقوها عن طيب خاطر لكون ذلك يتنافى مع مبدأ الحرية الذي يقرره ، وليس من الحرية ان يفتن الناس في عقيدتهم ويؤذوا من أجلها ، فاذا حدث شيء من ذلك وجبت حمايتهم والدفاع عنهم حتى يكون الدين لله .

فالقرءان ينهي عن الاعتداء كيفما كان ويامر بقتال المعتدين ، والله لا يحب المعتدين .

والقرءان من السباقين الى وضع تشريعات نظافة القتال ، فلا يجيز
أن يعتدى على الذين لا يقاتلون .

روي عن ابن عمر انه قال : وجدت امرأة مقتولة في بعض مغازي
رسول الله (ص) فنهى (ص) عن قتل النساء والصبيان .

كما نهى (ص) عن النهبى والمثلة وقال : اغزوا ولا تغدروا ولا تمثلوا
ولا تقتلوا وليدأ .

وتنهى الآية عن القتال عند المسجد الحرام لقدسيته ، ولكن اذا
اعتدى على المسلمين فيه فيجب رد الاعتداء .

وتقرر الآية ان الفتنة اشد من القتل وهي حقيقة لا سبيل الى
جحودها .

والفتنة تشمل أنواعا شتى من الاعتداء كالأذى والفوضى التي يضيع
بين ثناياها شرف الانسان وحقوقه ، بل وإنسانيته ، وتزهق بسببها الأرواح
البريئة وتنعدم الحياة المطمئنة المستقرة ، وتختل الموازين والأوضاع ،
ويضل الناس فيها طريقهم وتزل أقدامهم ويختلط الحق بالباطل والرشد
بالغي وتعتم الحياة حتى لا يميز الخبيث من الطيب .

وكل من عاش فتنة يدرك معنى الآية أدراكا محسوسا بينا .

ولا زالت آيات الله تتلى بيننا ، فعلينا أن نسير على منهجها ، فلا نقبل
الاعتداء ولا نسمح للاعداء بأن يفتنونا بأي أسلوب من الفتنة ، لان أساليب
الفتنة قد تعددت وتنوعت واتخذت أشكالا وألوانا مختلفة . والدعاية في
مقدمتها عن طريق الكتب والصحف والمجلات والنشرات والافلام وما الى
ذلك .

ولا يتأتى الجهاد للمسلمين ولا يتأتى لهم الدفاع عن عقيدتهم وكرامتهم
الا بتكوين قوة رادعة تستعمل عند الالتجاء ، وهذه القوة لا تنبني بمجرد
الكلام والامائي وانما تبني بالعلم والمال والتكوين النفسي السليم ، ولذلك
تأمر الآية بالانفاق في سبيل الله وهو عنصر مهم كاد ان يتلاشى في نفوس

المسلمين ، أذ بالامساك عن الانفاق في سبيل الله تلقى بالامة الاسلامية الى الهلاك والدمار ، والمال قوة والدعوة لا تقوم بالعوز والهوس والافتراء والضجيج .

وفي سورة البقرة : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما ياتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا ان نصر الله قريب » .

وهذه الآية توجه المسلمين الوجهة القيمة التي يجب ان ترسخ في نفوسهم وقلوبهم وهي ان للكون سننا لا تختلف ، خلقها الله كما هي وجعلها نبراسا لتمييز الخبيث من الطيب وامتحانا لصبر الصابرين وايمان المؤمنين ، فالمحنة تصيب المؤمنين لا محالة حتى تكاد تزلزل أقدامهم وقلوبهم وحتى يسألوا : متى نصر الله ؟

والمحن امتحان من الله لعباده ، فاذا صبروا عليها وثابروا وعملوا ثبت الله قلوبهم وأتم عليهم نعمه ونصرهم وجعل منقلبهم في آخرتهم الى رحمة من الله وجنات تجري من تحتها الأنهار .

وفي سورة البقرة : « كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون » .

والقتال المفروض على المسلم ما كان حقا وفيه خير للناس وهو فريضة شاقة لا بد منها عند الضرورة لحفظ الكيان الخاص والعام للمسلمين .

وتشير الآية الكريمة لفرض الجهاد أن هناك أشياء يجبها الانسان ويكون فيها الشر عليه ، وأشياء يكرهها ويكون فيها الخير له ، فالله وحده هو الذي يعلم سرائر الأشياء ، ومن أجل ذلك فالقتال ولو تكرهه بعض النفوس فهو ضرورة لازمة عند الاقتضاء ، والا تغلب الشر ، والله لا يحب الفساد .

وقد يعتقد بعض المسلمين خطأ بأن نصر الله لهم واجب لمجرد إيمانهم ، وهذا خطأ فالاسلام لا يخالف ما أجراه الله في الكون من نواميس

يجب الخضوع لها حتى يتميز الخبيث من الطيب والمجد من الكسول
والعامل من الخامل .

ان الهزيمة والنصر صنوان ، والايمان الراسخ هو الذي يحقق النصر
للصادقين وهو وحده لا يحقق نصرا اذا لم يدعم بالاستعداد والتوجيه ،
ولقد انتصر المسلمون على قتلهم في غزوة بدر لتفانيهم في ايمانهم
ووقوفهم صفا واحدا متأهبا للنزال ، ولم يكن غرضهم الحطام ، ولكنهم
انهزموا في أحد لما تركت طائفة منهم أوامر الرسول واغتسرت بالفنائم
والاسلاب حتى كانت الكارثة التي أصيب فيها رسول الاسلام (ص) وقتل
سيد الشهداء حمزة .

وقد استعرض القرءان حوادث غزوة أحد في سورة آل عمران حيث
قال : « واذا غدوت من اهلك تبوء المؤمنون مقاعد القتال والله سميع عليم
اذ همت طائفتان منكم ان تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون »
الى ان تقول السورة : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وانتم الاعلون ان كنتم مؤمنين
ان يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الايام نداولها بين الناس
ويعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين وليمحص
الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين ، أم حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يعلم
الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ، ولقد كنتم تمنون الموت من قبل
ان تلقوه فقد رأيتموه وانتم تنظرون ، وما محمد الا رسول قد خلت من
قبله الرسل ، افان مات او قتل انقلبتم على اعقابكم ومن ينقلب على عقبيه
فلم يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين » .

ثم تقول : « ولقد صدقكم الله وعده اذ تحسونهم باذنه حتى اذا
فشلتم وتنازعتن في الامر وعصيتن من بعد ما اراكم ما تحبون منكم من
يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم
والله ذو فضل على المؤمنين » الى آخر الآيات الكريمات .

وفي سورة الحج : « ولولا دفاع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت
صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله
من ينصره ان الله لقوي عزيز » .

فكل عقيدة لم يدافع عنها وبقيت بدون قوة تحميها فمصيورها الى
البوار ، والباطل والكفر لا يحترمان المقدسات .

فلا بد من الحماية والاستعداد لحفظ كيان العقيدة حتى تشق طريقها بين أوصال الشرك والكفر والنفاق والجحود .

والقرءان كتاب سلام ما دام الكفر لم يستأسد ، فإذا استأسد ليمنع رسالة القرءان السلمية ، فإنه يوجب الدفاع عن أهدافه السلمية بكل قوة وحزم وبدون اعتداء ولا حقد ولا بغى . والله سبحانه قوي عزيز ينصر من ينصره إذا استجاب لندائه وسلك مسالك شريعته وأقام الصلاة وآتى الزكاة وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر .

فالنصر له شروطه ، ولا يمكن أن يتحقق بدون عمل ، ولذلك يضع القرءان الحقائق كلها عارية أمام المؤمنين فليختاروا أي طريق يسلكون .

وفي سورة محمد : « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فاما منا بعد واما فداء حتى تضع الحرب أوزارها » .

فهذه الآية تتحدث عن اللقاء في الحرب وتصور شكلها المحسوس الملتحم بالعدو فتقول للمومنين : فإذا أثخنتموهم ، والاثخان شدة التقتيل في العدو حتى يتهاوى ويغلب ، وفي هذه الحالة يكون قد قتل من قتل وأسر من أسر وشد وثاقه ، وهؤلاء الأسارى أما أن يمن عليهم بعد باطلاق سراحهم بلا مقابل ، وأما أن يفدوا أنفسهم بمال أو عمل أو نحو ذلك .

وما دام العدو قويا عنيدا طاغيا فلا بد من القتل حتى يذل وتقلع أظافره ، وهذا حكم عام . أما ما ورد في السنة من قتل بعض الأسرى فله حكم خاص به ، ووقع في حالات معينة أوجب القتل .

أما آيات براءة : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » . فالمقصود بهؤلاء مشركوا الجزيرة ، إذ غيرهم من المشركين خارج الجزيرة تقبل منهم الجزية .

أما آية : « ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة » .

فهي خاصة بموقعة بدر يوم كان المسلمون قلة ، فلما كثروا وظهر سلطانهم جاءت آية : « فاما منا بعد واما فداء حتى تضع الحرب أوزارها » حيث جعلت الخيار بين المن أو الفداء .

أما استرقاق العدو وقتئذ فمعمول به تمشيا مع الاحوال التي كانت سائدة في العالم ، فلو لم يسترق المسلمون في بعض الحالات لما وجدوا ما يستبدلون به أسراهم ولاعطوا لعدوهم فرصا للقبلة والتعالي .

ويعلم من النصوص الاسلامية عموما ان الاسلام عدو للرق وانه دين الحرية ، فكلما وجد فرصة للقضاء على الرق الا واستغلها ليخلص البشرية من شر الرقية والاستعباد .

ومن مجموع نصوص القرءان نستطيع ان نقول : ان الاسلام لا يقر سفك الدماء ، ولكنه لا يقبل الاعتداء ، فاذا وقع المسلمون في حرب فعليهم ان يدافعوا عن انفسهم وان يقتلوا المعتدين الى الحدود التي حددها القرءان ، ولا ينبغي ان نتخذ من احكام تتعلق بمشركي الجزيرة خاصة او من احكام خاصة بظروف خاصة حكما عاما تتخذ منه قاعدة عامة .

فالاسلام دين المودة والسلام وفي نفس الوقت لا يقبل الاعتداء والظلم والمكر ، واحكامه في السلام ودعوته له شيء مقرر في عدة آيات واضحات .

وجاء في سورة البقرة : « لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور والذين كفروا اولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات اولئك اصحاب النار هم فيها خالدون » .

ان القرءان لم يرد من الناس ان يعتنقوا عقيدته بالقوه وبدون ادراك بل ترك لهم الحرية والتفهم كما لم يقبل منهم ان يقفوا في وجه دعوته .

والمعروف من أساليب القرآن أنه يخاطب العقل والوعي ، ومن هذا شأنه لا يمكن أن يلتجئ للقوة الا عند ما يفرض عليه اللجوء اليها .

وعقيدة القرآن دون سواها ، تتميز بكونها العقيدة التي اقتصمت العقول بالحسنى ولم تستعمل في يوم ما القوة باختيار ، ولكن خصومها أبوا عليها سلامها وفرضوا عليها ان تواجههم بسبب عدوانهم الآثم ، وكان لا بد من هذه المواجهة لعقيدة تريد الثبات والاستمرار .

وكل من يرجع الى تاريخ انتشار المسيحية يجدها قد فرضت على الناس بالقوة والعنف والجبروت وبالاخص على يد الامبراطور الروماني قسطنطين .

ونجد في عصرنا الحاضر قوة العنف تفرض مذاهب معينة على الناس كما يفعل الشيوعيون والصهاينة والامبراليون .

والعجيب ان الرومانيين الذين قاوموا المسيحية بضراوة هم الذين فرضوها على الناس بوحشية .

والاسلام لم يكن في هديه جبارا ولا متعاليا ، وانما كان رحيمًا متسامحًا .

ونبي الاسلام هو الذي دعا على قومه الذين آذوه بدعاء كريم حيث قال : « اللهم اغفر لقومي فانهم لا يعلمون » . وهذه طبيعة تفترق عن طباع من سببه من الرسل كنوح الذي دعا على قومه بقوله « رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجرا كفارا » .

وكم من فرق شاسع بين اتجاه الاسلام واتجاه غير الاسلام .

والاسلام في دعوته الرحيمة يربط بين البشرية برابط العروة الوثقى ويريد منها ان تكفر بكل طغيان وان تتمسك بنور الايمان المتحرر من كل قيود وظقوس وظلمات .

العلم — ووم

القرءان كتاب دعوة وارشاد وتوجيه وتنظيم ، وليس كتاب علم بالمعنى المعروف .

وللعلوم مكانها من البحث ، والآراء العلمية تتغير وتختلف ، والدعوة القرآنية لا تقبل الاختلاف والتغيير .

ورغم أن القرءان ليس كتاب علوم بالمعنى المعروف فقد أشار في معرض العبرة والتذكير إلى أمور علمية هامة تظهر أن هذا القرءان معجز بكل ما أشتمل عليه من إشارات عابرة ، ولكنها عميقة .

قال تعالى في سورة البقرة : « وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم » .

ولا شك أن الماء هو المنبع الرئيسي للحياة كيفما كانت هذه الحياة ، وهو المادة التي بدونها لا يمكن أن توجد حياة ، سواء كانت روحية أو نباتية .

والقرءان أذ يتحدث عن الماء كمادة أساسية للحياة ، لا يتحدث عنه حديث الظنون والافتراضات التي اعتاد علماء الحياة أن يتحدثوا بها عن نشأة الحياة الأولى على هذه الأرض .

والحياة الأولى كما يراها القرءان هي موهبة خالصة من عند الله بأسبابها المخلوقة .

والافتراضات الحياتية كنظريات علمية أرضية تختلف فيها الآراء وتتغير النظريات ، ولكنها كمنحة من الله لا تخضع للافتراضات والظنون ، فالله هو الخالق وحده وهو مانح الحياة وحده .

ونستطيع أن نبحث علميا عن الحياة ، وتطوراتها ولكننا لا نستطيع أن ندرك كنهها وخفاياها ، والعلم الحديث نفسه وقف حائرا أمام هذه الظاهرة الكونية العجيبة .

وفي سورة الانبياء : « ألم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقنهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون ، وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون ، وجعلنا

السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون ، وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون » .

فتأتي هذه الآية لتنبيه الغافلين عن وجود الله بأن ينظروا الى الأدلة الكونية الشاهدة على وجوده ليروا كيف كانت السماوات والأرض رتقا ، أي سدا ملتئما وملتزما ، ففصل الله بينها وفتقها وجعل كل جزء يدور في فلك بنظام محكم ليؤدي مهمته .

وهذه الآية تأتي بفكرة علمية دقيقة يفرها العلم اليوم بعد أن أثبتها القراء منذ قرون متطاولة .

فهل فهم المسلمون هذه الآية بعد نزولها حق فهمها ؟ أم ان في القراء آيات وآيات لم يتمكن السابقون من فهمها ، ولا تفهم الا في هذه العصور العلمية التي نعيشها ، ومن ذلك قوله تعالى : « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء » .

فلولا خروج الانسان عن الهواء المحيط بالارض لما استطعنا أن نفهم هذه الآية فهما صحيحا .

إن العلم الحديث يقرر أن المجموعة الشمسية كانت سديما ثم انفصلت وأخذت أشكالها الكروية ، ويقرر أن الأرض التي نسكنها كانت قطعة من الشمس ثم انفصلت عنها وبردت ومرت عليها دهور لتصبح صالحة للحياة .

والقراء كتاب دعوة معجز يأتي بأمثلة في مقام الدعوة تحمل معاني علمية ترشدنا الى مصدر هذا القراء ومنبعه .

ومن الغلط أن نقرر أن القراء كتاب علوم ، ولكننا نقرر أن اشاراته العلمية تفتح الآفاق للعقل الانساني لينطلق من عقالة بشرط أن يستمسك بإيمانه ، لان العلم بدون إيمان لا يقود الا للمهلك .

والبشرية تشهد اليوم ان المخترعات العلمية الجهنمية تستعمل في ابادۃ البشر واستعمارہ واستنزاف خيراته ، واذا فالعلم العاري من الايمان لا تجني منه البشرية الا الوبال والخسران .

ثم تقرر الآیة حقيقة علمية أخرى وهي ان أصل الحياة هو الماء .

وتقرر أن الجبال المنبثة على الارض تحفظ للارض توازنها حتى لا تميل وتضطرب ، وتقول : بأن في هذه الجبال فجوات تتخذ سبلا وطرقا وهو شيء مشاهد محسوس .

ثم تقول : بأن السماء سقفا محفوظا من الخلل بنظام محكم .

والسماء كل ما علانا الى فوق فهي في النظر كالسقف المرصع بالآيات الكونية المتعددة .

وجميع ذلك من صنع الله الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر ، هذان الكوكبان المرتبطان بحياتنا ارتباطا وثيقا .

وكل الكواكب تسبح في الفضاء بنظام مطرد لا يتغير لحظة واحدة والا لاختلت الحياة وضاعت .

وفي سورة فاطر : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء » .

فهذه الآیة أيضا تنهج نهج القراءان في لفت النظر الى الكون لكونه سجلا مفتوحا لمن يريد النظر والاستدلال .

فلينظر الانسان الى الماء المنزل الذي يحيي الارض بعد موتها ويخرج منها الرزق والطيبات والثمرات المختلفة الالوان والاحجام والمذاق .

ولينظر الى الجبال والوان صخورها وأشكالها وأنواعها وما تحويه من خيرات ظاهرة ودفينة وفيها جدد طرائق وشعاب مختلفة الوانها ، فمنها البيض ومنها الحمر ومنها حالكة السواد ومنها ألوان أخرى .

وكما تختلف ألوانها تختلف ظلالها ونباتاتها .

وكاختلاف ألوانها يختلف الناس والدواب والانعام لونا وطبيعة وشكلا .

فمن يعقل هذا ويفهمه ويتدبره سوى العلماء الذين يخشون الله .

وهذه اللفتة القرآنية إلى العلماء لفتة هامة ، فبالعلم يستطيع الانسان أن يدرك ، وبالجهد لا يستطيع معرفة حقائق الكون وعجائبه .

وان العلماء ليعرفون من أسرار الكون ما لا يعرفه سواهم ، بل ان الكافرين منهم ليقفون مشدوهين أمام سجل الكون وغرائبه ، ومنهم من انتقذه علمه من الكفران حيث أدرك أن هذا الكون لا يمكن أن يكون صنعة نفسه بنفسه وهو في نظامه الدقيق .

وفي سورة النور : « ألم تر أن الله يزجي سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالابصار ، يقلب الله الليل والنهار أن في ذلك لعبرة لأولي الابصار ، والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي رجلين ومنهم من يمشي على أربع ، يخلق الله ما يشاء ان الله على كل شيء قدير » .

فلينظر الانسان وليتدبر كيف يزجي الخالق السحاب ويسوقه من مكان الى مكان ثم يجمعه ركاما يركب بعضه بعضا فيخرج منه الماء وهو في هيئة الجبال الضخمة المشتملة على قطع من البرد ، وذلك بإرادة الله الذي يصيب بالمطر من يشاء ويصرفه عن من يشاء .

وفي السحب من البرق ما يكاد ضوؤه يخطف الابصار حينما يخرج من خلال السحب ويضرب بقوة .

والسحاب يتكون من البخار الذي يخرج من البحار ويرتفع في الجو .

وهذا المشهد القرآني يدل على اعجاز القرآن ، هذا المشهد الرائع الذي يلمسه المسافرون على جناح الجو بكل عظمته وخوارقه .

والأقدمون الذين لم يقدر لهم ان يركبوا متن الجو ويصعدوا فوق السحب لا يستطيعون أن يتصوروا هذ المشهد الذي تصفه الآية كما نستطيع نحن ان نلمسه .

وتستعرض الآية مشهداً آخر من الكون وهو تعاقب الليل والنهار وفي تعاقبهما عبرة لاولي الابصار .

ثم تعرض آية أخرى من هذا الكون فتقول : « والله خلق كل دابة من ماء » .

والدابة اسم لكل ما يدب على الارض ، وكل الدواب خلقت من ماء ، وهي كثيرة الاشكال والانواع والخصائص حتى لا تكاد أنواعها تحصى ، فمنها الزواحف التي تمشي على بطنها ومنها من يمشي رجلين كالانسان والطير ومنها من يمشي على أربع كالفرس والفيل وكلها مخلوقة بمشيئة الله وقدرته .

وان من يدرس عوالم الحيوانات والطيور والهوام ليدرك عن قرب صنع الله الذي اتقن كل شيء ، وقصد ان يخلقه وجعل له خواص معينة وفوائد شتى .

وليس هناك مخلوق كيفما كانت درجته خلق عبثاً حتى الحية السامة القاتلة فيها من الفوائد للانسان ما يدركه علماء الطب والصيدلة .

وان أصغر المخلوقات وأدقها ليؤدي في الحياة مهمة ، لولاها لتوقفت قطاعات كثيرة في الحياة .

وفي سورة الحج : « يا أيها الناس ان كنتم في ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الارحام ما نشاء الى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم » .

فليفكر الانسان في نفسه وأصله وتركيبه فانه سيجد يد الصانع
تعمل عملها المتواصل الدائب .

فالانسان خلق من الارض واليه يعود ، وكل ما فيه أرضي باستثناء
ذلك السر الذي به تقوم الحياة وبنزعه ننتهي .

ان الانسان الطموح العجول قد تكون من ذرات دقيقة ومن بويضات
تافهة في الرحم بقدره الخالق الذي كون النطفة من ماء يخرج من بين
الصلب والترائب ليصبح خلايا حية هذه النطفة التي تتحول الى علقة
فمضغة فانسان ، هذه النطفة الحية بملايين جراثيمها المنوية لتلقح بويضة
المرأة في جدار رحمها فيأخذ الانسان في التكوين والشكل شيئاً فشيئاً
وعلى مراحل مختلفة .

أليس في هذا ما يلفت النظر ويستوجب التدبر ؟

يستعرض القراء أن هذا ليظهر عظمة القدرة الالهية وكمالها الدقيق
العجيب .

والمضغة وهي القطعة من الدم الغليظ اما أن تبقى في الرحم لتصير
إنساناً ، واما أن يلفظها الرحم فلا تنتج إذا لم يقدر لها الله الحياة ، فهو
سبحانه يقر في الأرحام ما يشاء الى الأجل المحدد .

وتستمر الآية في حديثها عن قضية الحياة والاحياء فتقول : « وترى
الارض هامدة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت ورسبت وأنبتت من كل زوج
بهيج » .

فالارض تكون هامدة قبل نزول الماء عليها ، فاذا نزل الماء الذي هو
العنصر الاصلي للحياة اهتزت وتفاعلت وتحركت ونمت وابتدعت بالحياة
والنبات من كل زوج وصنف بهيج .

فليتفت الانسان الى هذا المنظر الرائع الذي تسوقه الآية الكريمة .

وتقول آية سورة المؤمنين : « ولقد خلقنا الانسان من سلاله من طين
ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة

فخلقنا المضغفة عظاما فكسونا العظام لحما ثم انشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين . »

وفي سورة الاعراف : « وهو الذي يرسل الرياح نشرا حتى اذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات » .

فمن الذي أرشد السحب لتحمل الماء وتذهب به الى الارض الميتة لتحيتها ؟

ومن الذي أرشد الرياح لتحمل السحب ؟

قد يقولون ان ذلك من عمل الطبيعة ، ولكن القراءان يقرر ان ذلك من فعل الله الذي خلق الطبيعة وما فيها لتسير بنظام على الانسان ان يعرفه ويتدبره ويستفيد منه بكل امكانياته .

وهنا تفرق النظرية القراءانية مع نظرية الملحدين والجاحدين .

وفي سورة البقرة : « ان في خلق السماوات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحى به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون » .

ان المسلم الذي لا ينظر في القراءان بما هو واجب ان ينظر فيه لا يقدر على فهم معانيه حق فهمها .

ففي السماوات والارض مجالات واسعة للانسان وهي عوالم تشتمل على أشياء وتسير بنظام عجيب .

ويحاول العلم الحديث ان يكشف عن بعض الغوامض في هذا الوجود ولكنه يقف مشدوها أمام العوالم المتعددة التي تسبح في فضاء لا نهاية له تعد مجرة الشمس فيه كنقطة تافهة بين تلك العوالم المهولة في آفاق ضخمة ممتدة امتدادا يعجز العقل البشري عن ادراك كنهه .

فليُنظر هذا الإنسان المتمرد إلى دقيق صنع الله في دوران الافلاك ونظامها واختلاف الليل والنهار بتعاقب النور والظلام مرة بعد أخرى .

ولينظر إلى الفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وليتصرف فيما منحه الله التصرف فيه .

وما ذا ينفع الناس من الفلك ؟

لا شك ان نفعها عظيم وكثير في ميادين التجارة والصيد والحرب والسفر وغير ذلك .

ومن المؤسف ان يكون ما لفت القراء ان اليه نظر المسلمين ضيعوه فانتفع به غيرهم .

ثم ليتفكر الانسان في تسخير الرياح وجلبها للامطار النافعة ، والتلاقيح المفيدة للنبات وما ينتج عن ذلك من فوائد فلاحية هامة .

والماء والرياح يفيدان البشر فوائد لا تحصى ، بل ان الحياة لا توجد بدونهما ، ولكن القدرة الالهية قد تحولهما الى أداة تخريب ودمار وهلاك .

فعلى المخلوقات أن تلتفت الى هذه الآيات الكونية وتتفهمها عن طريق العلم والبحث لتستفيد منها وتجعلها مصدر خصب ونفع وقوة والا أنقربت وبالا وخرابا .

وفي سورة الحجر : « ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للناظرين وحفظناها من كل شيطان رجيم الا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين والارض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين وان من شيء الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين » .

ففي السماء كواكب ونجوم لا تحصى تختلف حجما ودورانا وتؤدي مهمتها على اكمل وجه وادقه واجمله صنعة وبهجة للناظرين ، وهي محفوظة من كل شيطان رجيم يدنسها بغوايته .

أما الأرض التي منحت للإنسان بخيراتها ففيها من الجمال والابداع
انواع وأشكال وصنوف ، وفيها رواسيها وما تشتمل عليه من مناظر
واختلاف احجام وطبيعة .

وفي الأرض حيواناتها المختلفة وحشراتنا وهوامها التي لا تحصى .
وفيها معادنها وأنهارها وبحارها .

وفيها نباتاتها وما تحويه من فوائد جمة للمخلوقات التي تعيش على
سطحها ، وهذه النباتات وصفت بأنها موزونة ، وكلمة موزون تجمع من
المعاني العلمية الدقيقة كل ما في العلم من دقة وأحكام .

وللمخلوقين في كل ما ذكر معاش ، فما عليهم الا أن يعرفوا كيف
يتصرفون وكيف يستفيدون .

وفي هذه الأرض من لستم له برأقين من المخلوقات التي هي أمم
أمثالكم .

والله المسيطر على كل شيء وخزائن كل شيء عنده وينزله عليكم
بقدر معلوم مضبوط .

وكلمة القدر المعلوم تحمل معنى الدقة والاتقان .

ويرسل سبحانه الرياح لواقح منتجة فتنزل عليكم الماء الذي
يحييكم .

فهل انتم الذين اتيتم به من خزائنكم ؟

وفي كلمة لواقح ما يشير الى مفاهيم علمية ثابتة ، فالرياح تأتي بالماء
وتحمل اللقاح وتفيد النبات ، والأشجار والإنسان وجميع المخلوقات .

فتأملوا في ذلك واستفيدوا منه وآمنوا بمن سخر لكم ذلك .

وفي سورة الانعام : « ان الله فالق الحب والنوى يخرج الحي من الميت
ويخرج الميت من الحي ذلكم الله فأنى توفكون فالق الاصباح وجاعل الليل

سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكما ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أغناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابهه انظروا الى ثمره اذا أثمر وينعه ان في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون .

فللقراء نظرياته في الحياة والخلق وكلها تماشي الايمان وتنبعث من المنبع الاصلي للوجود .

ويقرر القراء ان الله هو الذي خلق الانسان من طين وسواه حيا ثم تناسل البشر كله من نفس واحدة ، خلق منها زوجها وبت منها رجالا ونساء .

ويلفت القراء ان نظرننا في هذه الآيات البينات الى نشأة الحياة في النبات والى الامطار وفوائدها .

فالله جعل من الماء كل شيء حيا وهو سبحانه فائق الحب والنوى ومن انفلاقهما تتكون أشجار ونباتات لا تعد لها خاصياتها وفوائدها .

ويحدثنا القراء ان هذا الكون الذي كان هامدا ثم تحركت فيه الحياة التي استخلف الانسان بسببها في هذه الارض وفق مشيئة الله الذي أوجد الحياة من العدم والعدم من الحياة بقدرته ومشيئته ، وهو سبحانه الذي يجعل الذرات الميتة خلايا حية والعكس .

والله فائق الاصباح من الظلام وجنل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا وما ينشأ عنهما في هذه الارض من كل ما له صلة بسيرهما ونظامهما الذي لو حدث فيه تغيير بسيط لانعدمت الحياة .

وهذا الخالق المريد هو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر وأرشدكم الى معرفة نظامها وتحركاتها .

وهذا الخالق المريد هو الذي أنشأكم من نفس واحدة وجعل الحياة تنتقل من خلية مستودعة في صلب الرجل لتستقر في رحم الانثى لتخرج انسانا كاملا الخلقة .

وهذا الخالق المريد هو الذي أنزل من السماء ماء فأخرج به نبات كل شيء .

وتذهب الآية في تبيان قضية الخلق والايجاد فتذكر أن مما يصنعه الماء الخضرة التي يخرج منها الحب المتراكم .

ونحن نزرع حبة فتنشأ منها سنبل أو سنابل ملتفة على بعضها أضعافا مضاعفة . كما يخرج منها ثمر من فروع النخل وجنات من أعناب وزيتون ورمان وغير ذلك من النباتات المختلفة الشكل واللون والمذاق مشتبها وغير مشتببه .

فانظروا الى هذا كله واستمتعوا به واذكروا خالقه وفضله عليكم وأشكروه على نعمه .

وفي سورة آل عمران : « تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي » .

وهذه الآية تشير الى حقيقتين من حقائق هذا الكون .

الاولى : دوران الارض حول الشمس وانتقال أطرافها من ظلمة الى نور ، ومن نور الى ظلمة دواليك . وفي هذه الحركة الدائبة يلج الليل في النهار ويلج النهار في الليل ، أي أن كل واحد منهما يدخل في الآخر بمقدار الدوران بحيث لا ينقشع نور النهار دفعة واحدة ، كما لا يعم ظلام الليل دفعة واحدة ، وهو شيء مشاهد محسوس .

والثانية قضية الحياة والموت ، فالخلية تكون من التفاهة بمكان ثم تتحول الى كائن يدب ، وقد يكون انسانا فيتعظم ويتعالى ، ولا يفكر في أصل نشأته .

والبذرة تكون جامدة فيخرج منها النبات الذي يثمر بذورا كثيرة .

والحيوان الحي ما هو الا تركيب كيمياوي من مواد متعددة .

فيضة الدجاجة جامدة ولكنها تحمل بذرة حياة .

وعلى أي فان هذه الآية الكريمة تحمل من المعاني الطبيعية أسراراً ينبغي التعرف عليها .

وفي سورة يونس : « هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك الا بالحق نفصل الآيات لقوم يعلمون ، أن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السماوات والارض آيات لقوم يتقون » .

ففي هذه الآيات التفاتات نستوحي منها ضخامة هذا الكون ومشاهده المتنوعة .

ففي الشمس ضياء وأشعاع وهي تمدنا من بعد شاقق بالحياة .

وفي القمر نور مضيء ، وينظم لنا حياتنا ويحفظ بجذبه مياه بحورنا بنظام دقيق .

فلو تغير سير الشمس والقمر ولو بمقدار يسير لحلت بالارض كارثة مهولة .

ومن ينضج لنا الثمار ؟

ومن يمدنا بالحرارة والدفع ؟

ومن يصنع لنا الحياة في أرضنا في كل مرفق من مرافقها حتى بالنسبة للجمادات التي تفيد حياتنا ؟

ومن ينظم لنا حساب الشهور والايام والسنين ؟

زيادة على منظرهما البديع في اشراقهما وغروبهما وصعودهما وهبوطهما وكل حرركاتهما .

« ما خلق الله ذلك الا بالحق ، نفصل الآيات لقوم يعلمون » .

وكم خلق الله في السماوات والارض من مخلوقات لا تحصى ومن أجرام لا تعد تختلف أشكالها وأوضاعها .

وفي سورة النحل : « وهو الذي سخر البحر لتاكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ، وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون والقي في الارض رواسي أن تميد بكم وانهارا وسبلا لعلكم تهتدون وعلامات وبالنجم هم يهتدون » .

وتحدث هذه الآية عن البحر وعجائبه وما فيه من لحوم شهية طرية وكنوز مغمورة ولؤلؤ ومرجان وصدف ، وعلى مياهه تحملون أثقالكم وتجارتكم من مكان الى مكان فتبتغون بنقلها فضلا من ربكم على بواخر تركبونها تمخر بكم مياه البحر بجمالها وحسن منظرها .

وفي الارض رواسي تحفظ توازن الارض وتزينها بجمال مناظرها .

وفي الارض انهار عظيمة ظاهرة وخفية تستفيدون من مياهها وحيواناتها وذخائرها .

وفي الارض مسالك وسبل وعلامات كما في السماء علامات بالنجوم تدل على الجهات يهتدي بها السالكون في البر والبحر .

وكل هذا من نعم الله على خلقه كما تقول الآية بعد : « وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها » .

وفي سورة الفرقان : وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا » .

ان مشهد البحار من الآيات الكونية العظيمة ، والله سبحانه هو الذي مرج البحرين وتركهما متجاورين فيهما مياه عذبة ومياه مالحة يلتقي العذب

منها كالانهار بالمالح في البحار عندما تصب الانهار الحلو في البحار
المالحة وجعل بينهما حاجزا من الارض حتى لا تفسد ملوحة البحار عذوبة
الانهار المتدفقة من العيون والامطار حيث يستفيد منها الناس في
حياتهم .

وللبهار مدها وجزرها بنظام محدد يتمشى مع جاذبية قوية من
القمر وجاذبية ضعيفة من الشمس .

ولو أن هذه الجاذبية من القمر أو الشمس زادت أو نقصت عما
هي عليه لحلت بالارض كارثة أهلك الحث والنسل .

فمدبر الكون دبره على نظامه العجيب وأحكم سيره وفق نواميس
معينة يستطيع البشر بمعرفتها ان يستفيد منها فوائد جلى .

وكما للماء العذب فوائده فكذلك لمياه البحار التي هي الاصل للمياه
العذبة والتي تنربى فيها الاسماك والاصداف . وفي آية أخرى : « في
البحر عجا » . وكم من العجائب في البحر يعرف الانسان بعضها ، ويجهل
معظمها .

ويقول القرءان في سورة النحل : « والانعام خلقها لكم فيها دفء
ومنافع ومنها تاكلون ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون وتحمل
اثقالكم الى بلد لم تكونوا بالفيه الا بشق الانفس ان ربكم لرؤوف رحيم
والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون » .

لقد خلق الله للانسان الانعام ليستفيد منها فياكل لحومها ويشرب
البانها ويستخرج زبدها ويستدفيء بأصوافها وجلودها وأوبارها وأشعارها،
وفيها أنواع أخرى يحمل عليها أثقاله الى البلدان البعيدة ويركب عليها .

والفلاح يدرك هذا المعنى القرآني حق ادراكه ، ويفهم معنى جمالها
عند الراحة في المساء والسرح في الصباح .

وكما خلق الله الانعام يخلق اشياء أخرى لمصالح الانسان .

ولم يكن الذين نزل عليهم القرآن يعلمون من أنواع المركوب والنقل والزينة إلا ما كان موجودا لديهم وقتئذ ، ولكننا اليوم نعرف أشياء وأشياء كادت أن تعفي على ما كان معروفا ، ولذلك يعتبر من معجزات القرآن انه لم يحصر فيما كان معروفا وترك الباب مفتوحا لما علم الله أنه سيوجد ، ولكونه يريد أن يفتح العقول للعمل الدائب والاختراع المتواصل .

كما ورد في سورة النحل : « والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وجعل لكم من جلود الانعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم اقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاتا ومتاعا الى حين » .

وجاء فيها : « وان لكم في الانعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين » .

فعلى الانسان أن يفكر في الحياة وخلاياها وذراتها وكيف تسيّر بنظام محكم اذا اختل اختلت الحياة من أساسها . فكيف تتحول المواد التي يلتهمها الانسان والحيوان الى حياة للخلايا فيمتص الجسم خيرها ويقذف بتفلها حاملا معه ميكروبات الجسم وأضراره ؟

وكيف يدر الضرر الابنان المستخلصة من مواد متعددة والتي تخرج من بين فرث وهو العصارة المتبقاة في الكرش بعد الهضم ، ودم وهو ما يذهب الى خلايا الجسم فيغذيها ويقويها لتقوم بعملها الحيائي .

والعلم الحديث يعرف الكثير مما تحدث عنه القرآن وأرشد اليه وهي مكرمة للقرآن سبق بها العلم الحديث وأرشده الى الطريق .

وفي سورة النحل أيضا : « ألم يروا الى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن الا الله ان في ذلك لآيات لقوم يؤمنون » .

وهذا أرشاد للمخلوقين ليتدبروا شأن الطيور وهي تخترق الاجواء محقة بقدرة كونية تهديها اليها فطرتها ، فهي تطير سابحة في الفضاء ، تقطع المسافات الطويلة ، وتعبّر البحار والوهاد والجبال والانهار والفيافي والقفار .

ان في ذلك لعبرة للمؤمنين المتدبرين لهذا الكون وما فيه من
نواميس يستطيع الانسان أن يتدبرها ويعرف أسرارها ويقلدها .

وأن الانسان الواعي قد استطاع أن يخترع المراكب ويخترق بها
الاجواء ويقطع المسافات والبحار بسرعة خارقة .

والقرءان بالتفاته سباق الى تنبيه العقل البشري ، مخالفا بنظرياته
نحلا أخرى كانت تحرم النظر في الملكوت عن طريق العقل ، وتكفر كل من
يسلك هذا المنهج .

والقرءان يفتح الآفاق للعقل ويرشده ليحقق معنى الخلافة في هذه
الارض التي استخلف فيها .

وفي سورة فاطر : « أن الله يمسك السماوات والارض ان تزولا ولئن
زالتا ان أمسكهما من أحد من بعده » .

هذه الاجرام والكواكب المنتشرة في الفضاء لا تمسكها أعمدة ولا
تسندھا مسانيد .

من الذي يمسكها حتى لا يختل سيرها فتكون نهاية العالم ؟

من الذي جعل لها نظامها وجاذبيتها بميزان معلوم ؟

من الذي قدر حسابها ودورانها ؟

من الذي أرشد البشر الى معرفتها ؟

ليس القرءان الكريم هو الكتاب السماوي الذي فتح للانسان آفاق
معرفتها ؟

وفي سورة الفرقان : « ألم تر الى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله
ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا ثم قبضناه الينا قبضا يسيرا » .

فمن مشاهد هذا الكون الظلال ، والظل يتكون حين تحجب أشعة
الشمس بحاجز ، وفي كل نور يحجبه حاجب .

والآية تشير الى ظل الشمس وهو يتحرك مع حركة الارض فيكون اشكالا مختلفة بحسب الحاجز الذي يحجز نورها وبحسب ارتفاع الشمس وانخفاضها .

وكل ذلك بقدرة الخالق الذي لو شاء لجعل الظل ساكنا ، ولكنه شاء ان لا يجعله ساكنا بسبب تحرك الافلاك ودورانها .

وقد خلق الله هذا الكون على نسق منظم ، لو اختلف ولم تسر الارض على الشكل الذي تسير عليه لاختلفت الظلال .

ولو كانت الارض ثابتة لسكنت الظلال .

ولا يعرف نعمة الظل الا من لفحته حرارة الشمس وأتعبه لهيبها .

فالظل رحمة بالعباد ، ولولاه لهلك خلق كثير .

ففي الظلال وتحركها وتغيرها آية من آيات الله ، ودليل على احكام دوران الافلاك ودقة نظامها .

وقال تعالى في سورة النحل : « ومن ثمرات النخيل والاعناب تتخفون منه سكرا ورزقا حسنا ان في ذلك لآية لقوم يعقلون » .

فنعم الله على خلقه لا تحصى ، ومن هذه النعم ما يتخذ من النخيل والاعناب خمورا ، ولم تكن الخمر قد حُرمت بعد .

وفي عصير العنب والفواكه من المغذيات والفيتامينات الشيء الكثير والاسلام أحل للمسلم كل ذلك .

والخمر لم تحرم الا لما فيها من التخمير للعقل ، فاذا زال منها التخمير عادت عصيرا نافعا لذيدا .

وقال تعالى : « وأوحى ربك الى النحل ان اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا

يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ان في ذلك لآية
للقوم يتفكرون » .

من من تلاميذ المدارس لم يقرأ عن مملكة النحل وغرائبها ونظامها
والهامها وانتاجها لاحسن أنواع الطعام وأكثره فائدة للصحة والجسم ، هذه
النحل التي تبني مساكنها بهندسة متناهية الدقة والنظام وتفرض بها عسلها
الذي تمتصه من عصارات الازهار والفواكه لتركب للانسان دواء حلو
مغذيا ولذيذا وشهييا .

وتتخذ بيوتها في الجبال والشجر ومما يعرشون ، اي يرفعون من
الكروم وغيرها .

ويحاول المفرضون من المستشرقين ان يلصقوا بالقرءان اباطيل هو
أبعد ما يكون عنها ، ومن بين هؤلاء المستشرق الاستعماري الماكر الدكتور
صمويل زويمر الذي قال في كتابه (بلاد العرب مهد الاسلام) : ان الشهد
لم يزل معدودا كالترياق في بلاد العرب استنادا الى القرءان والحديث ،
وقد كانت الإشارة الوحيدة الى الطب في وحي محمد هذه الكلمة الغيبية
التي يقول فيها عن النحل : « انه يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه
فيه شفاء للناس ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون » . وقد كان هذا العلاج
الوحيد الذي وصفه الله في كتابه .

وقد تكفل علامة الشرق المرحوم عباس محمود العقاد بالرد عليه في
كتابه : « ما يقال عن الاسلام فلننقل الكفاية من رده » .

قال : ان الدجل المتعمد ظاهر في قول العلامة الغبي : ان القرءان
حصر الطب كله في دواء واحد هو الشهد ، فان المعنى الذي تفيده الآية
بغير لبس ولا محاولة ، ان الشهد شفاء ، ولم تقل انه كل الشفاء ، ولا انه
شفاء من جميع الامراض ، فان وصف الشهد بهذه الصفة لا يزيد على انه
دواء من الادوية كما يوصف اي عقار من العقاقير في الصيدليات .

ومثل هذا الادعاء التبشيري لا يعتسف اعتسافا على هذه الصورة
الا للافتراء المتعمد طمسا للحقيقة مع سوء النية ... لم لا يكون الشهد
دواء من الادوية وهو خلاصة اعشاب وازهار ؟ ان علاج الامراض بالاعشاب

والازهار قديم جدا في كل امة وهو قوام العلاج اليوم في اكثر الادوية التي يصفها الاطباء المصريون لضروب شتى من الامراض وتستحضرها معامل الكيمياء في بلاد الحضارة ...

وبعد وفاة زويمر ببضع سنوات ظهر باللغة الانجليزية كتاب عن الطب الطبيعي للدكتور جارفيس الطبيب المتخرج من مدارس الطب الحديث يقول مؤلفه عن الشهد ما كان زويمر يدعيه على القرءان الكريم ، ويعقد المؤلف لخصائص الشهد الطبية فصلا مستقلا يوشك أن يجعله صيدلية وافية تغني عن عشرات من العقاقير ... وهو لا يعلل فائدة الشهد في العلاج بالبركة ولكنه يعلله بأسباب علمية يتعمدها الاطباء والصيدليون في تحضير الادوية وتقسيمها على حسب الجراثيم التي تحدث الامراض أو تضاعف أضرارها .

ويقول في تمهيدات فصل مطول كتبه عن الشهد خاصة : انه لا يتكلم عن نظرية معروضة للامتحان بل يقرر التجربة المحققة التي أثبتت أن البكتريا لا تعيش في الشهد لاحتوائه على مادة البوتاس ، وهي تحرم البكتريا تلك الرطوبة التي هي مادة حياتها .

ثم استطرد المؤلف الى بيان المواد الغذائية الموفرة في الشهد وخصائصه النافعة للعلاج ، ولم يذكر في سائر الفصول دواء طبيا آخر ، له مثل هذه الخصائص ، أو لخصائصه مثل هذا الثبوت بالتجارب الواقعة وتجارب المعامل والمشتغلين بالتطبيب ...

وفي سورة الحديد : « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب أن الله قوي عزيز » .

فقد خلق الله الحديد وجعل فيه بأسا وقوة ومنافع للناس .

والقرءان هنا ينبه البشر الى ما في الحديد من المنافع الكثيرة والفوائد المهمة في السلم والحرب .

وتأتي هذه الآية في معرض الكلام عن ارسال الرسل وانزال الكتب معهم المشتملة على أحكام الحق والعدل ليقوم الناس بالقسط .

واقام العدل يحتاج الى سلطة ، والسلطة تحتاج الى قوة ، والقوة تصنع سلاحا من الحديد . ولا تستقر المبادئ الا اذا وجدت قوة تنصرها .

ومن يستطيع ان ينكر ما للحديد من فوائد للبشرية قاطبة في نهضتها العلمية الحاضرة ؟

وفي سورة البقرة : « يسألونك عن الالهة قل هي مواقيت للناس والحج » .

وكان المسلمون على عهد نزول القرآن يسألون عن مظاهر كونية يستطلعون حقيقتها ، وجواب القرآن على أسئلتهم يهدف قبل كل شيء لما يمس الدعوة الاسلامية .

ومن الظواهر التي سألوا عنها مظهر الالهة التي تبدو في رؤية البصر دقيقة ثم تكبر حتى تصير بدرا ثم تأخذ في التراجع حتى تصبح هلالا ثم يلحقها المحاق ثم تعود اهلة ، وهكذا دواليك .

وهم في نهضتهم القرآنية العقلية يريدون ان يفهموا الاشياء بدقة ويمعنوا النظر فيها لادراك أسرارها .

وكان النبي محمد (ص) لا يستقبح منهم أسئلتهم وتفتحهم على الوجود وما فيه من أسرار ومعه القرآن يرشدهم وياخذ بيدهم ويشرح لهم .

وصيغة سؤالهم وردت في الروايات على شكلين : اما انهم قالوا في صيغتها : يا رسول الله لم خلقت الالهة ؟ . او قالوا : يا رسول الله لم تبد الالهة صغيرة ثم تكبر ثم تتناقص ؟ .

فعلى السؤال بالصيغة الاولى يكون جواب القرآن مطابقا لسؤالهم ، فهي هكذا لكونها مواقيف للناس والحج تؤقت لهم أوقاتهم وتحسبها لهم ليضبطوا الزمن وأوقات العبادات وايؤرخوا بها معاملاتهم وجميع ما يهم حياتهم .

وعلى انه كان على الصيغة الثانية يكون الجواب القرآني ملفتا نظرهم الى ما يجب عليهم أن يسألوا عنه مما يمس صميم الدعوة وهي تهتم بارشادهم الى ما فيه خيرهم في الدنيا والآخرة من عبادة وعمل ثم عليهم بعد ذلك ان يطلبوا العلم الخاص بالفلك في العلوم التي تهتم بالفلك لكون القرآن ليس كتاب علوم الا بقدر ما يمس الدعوة التي نزل من أجلها .

وليس من واجبات القرآن أن يأخذ في شروح علمية معقدة تحتاج الى بيانات ضافية ومعلومات حسابية دقيقة .

وشأن القرآن أن يهتم بما هو أسما من ذلك ، وهو التكوين الانساني الذي يعتبر من المسائل العويصة والمشاكل المحيرة .

وقد استطاع العلم أن يحل كثيرا من المشاكل العلمية ، ولكنه ما زال لم يحل مشكلة الانسان الفاضلة .

ويشرف القرآن أنه لم يهتم بمشاكل العلم التي تتغير نظرياته مع التقدم الحضاري والعلمي وترك الناس في ذلك أحرارا ليستعملوا عقولهم ومواهبهم .

ويخطئ كل من يحاول أن يجعل من القرآن كتاب علوم مستندا على ما ورد في إحدى آياته : « ما فرطنا في الكتاب من شيء » . وهي آية لها معناها ودلالاتها في شؤون الدعوة والاحكام والتوجيه .

فعلى المسلمين أن يتركوا القرآن يسير في طريق هديه الذي منه ان يأخذوا بالعلوم وما فيها ، وأن يستعملوا عقولهم ومواهبهم كما يشاءون ، وان يستخرجوا من الكون كل ما استطاعوا استراجه مما يفيدهم ويقويهم ويدفع بهم الى مصاف الدول المتقدمة ، مع إيمانهم بأنه لا منافاة بين هدي القرآن وأرشاده وبين الخوض في ميادين العلوم على اختلافها .

ومن الانتكاسات الانسانية في عصرنا أن الناس أصبحوا يظنون أن كل شيء يجب أن يخضع للعلم والتقنية ، وغاب عنهم ان الانسان كائنات ليس آلة جامدة بل أنه يحمل معنى من السمو الانساني ، يريد القرآن أن يفهمه للانسان ليسعد نفسه وأخوانه في الانسانية .

ولا يستطيع مفكر اليوم ان يجادل في ان العلم وحده مجرداً عن
المعنى الانساني لا يقدر على تحقيق معنى الخلافة التي جعلها الله للانسان
في هذه الارض وأوضحها القرآن في آياته .

وفي سورة النحل : « وما ذراً لكم في الارض مختلفا ألوانه ان في
ذلك لآية لقوم يذكرون » .

لقد خلق الله للانسان في هذه الارض أشياء مفيدة له من معادن
ومياه واحجار وذخائر كثيرة ، فما عليه الا أن يستخرجها ويعلم فوائدها
وكيفية استعمالها ، وفي ذلك آية لقوم يذكرون .

وفي سورة يوسف : « وكأي من آية في السماوات والارض يَمرون
عليها وهم عنها معرضون » .

والقرآن يسلك دائماً مسلك ارشاد البشر الى التفكير والنظر في
ملكوت السماوات والارض ، وفي جميع الالتفاتات القرآنية مغزى يدل على
ما لهذا الدين من اتجاه منطقي سليم .

وإذا كان القرآن يوجه الانظار في مقام الدعوة الى ملكوت الله فهو
يفعل ذلك حتى لا يظل البشر في غفلة عن الكون وما فيه من أسرار هذا
الكون المملوء بالمخلوقات على اختلافها ، فكم فيه من معادن ونباتات
وحوانات ومياه وطيور وأجواء ودواب وحشرات وكهرباء وذرات وهوام
وغير ذلك مما لا يحصى .

فهل يحق للانسان أن يمر على هذه الموجودات كلها ولا يتدبر أمرها
ودخائلها وخاصياتها وهي بارزة امامه ماثلة لعينيه وعقله وتفكيره .

وعلى نسق هذه الآية تمضي سورة الرعد فتقول : « بسم الله الرحمن
الرحيم المر تلك آيات الكتاب والذي أنزل اليك من ربك الحق ولكن أكثر
الناس لا يؤمنون الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى على
العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى يدبر الامر يفصل
الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون وهو الذي مد الارض وجعل فيها رواسي
وانهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشي الليل النهار ان في

ذلك لآيات لقوم يتفكرون وفي الارض قطع متجاورات وجنات من اعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الاكل ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون » .

ثم تمضي السورة فتقول : « هو الذي يريكم البرق خوفا وطمعا وينشئ السحاب الثقال ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال» .

أما بعد ، فالذين يفسرون القرآن يسلكون مسلكين في تفسيره ، طائفة تحبذ تفسيره عن طريق علمي ، وأخرى لا تريد أن تخرج به عن المفهوم الذي كان يفهمه العربي من اللفظ الذي خاطبه القرآن به .

ونحن وان كنا نقرر أن القرآن ليس كتاب علم بالمعنى المصطلح عليه ولكننا نجده يحض على استعمال العقل والتأمل والتدبر والتفكير ويشين التقليد الاعمى والجمود ولا يقف في وجه العلم والمعرفة .

ومن المسلم أن القرآن ليس قرآن العربي الذي عاش في عصر النبوة وانما هو قرآن البشرية كلها بقولها واتجاهاتها ومعارفها وعلومها .

والقرآن عند ما يدعو الى استعمال العقل يدخل في حسابه هذه البشرية المختلفة المتباينة السلوك والرأي والميل والتقدم والحضارة .

والقرآن لا يعلق لنا تفكيرنا ولا يريد منا ان نكون كالعربي الذي عاش في عصور لم يكن فيها علوم كالعصر الذي نعيشه اليوم .

والقرآن منطقي في كل ما أتى به ، فهو عند ما يدعونا الى التفكير يريد منا أن يكون تفكيرنا متحررا لا يشبه تفكير قوم عاشوا في ظروف خاصة بهم ، وليس من المقبول ان تفكر الانسانية كلها على نسق واحد في جميع الازمان ، وليس معنى هذا أننا ندعو الى الخروج عن فهم نص القرآن الى التأويل ، فهذه مفسدة ما بعدها مفسدة ، وانما ندعو الى تجديد فكرنا ومفاهيمنا حسب العصر الذي نعيشه لنسير بالقرآن ومعه في عصر اختلف فيه المفاهيم وتضاربت الى اقوم السبل واجلاها .

ومن معجزات القرآن أنه قادر كل القدرة على المضي في مسيرته
الخالدة لو وجد من يفهمه حق فهمه ليكون سراجاً منيراً للبشرية اليوم
كما كان لها في الماضي .

وليس من مصلحة الدعوة القرآنية أن ندعي لها نظرية علمية محددة
ونحن نعلم أن النظريات العلمية تتغير فنضطر إلى تغيير تفسيرنا كما غير
اليهود والنصارى كتبهم لأسباب أخرى غير النظريات العلمية التي نتحدث
عنها .

فلو حدد القرآن نظرية علمية معينة لوجب الإيمان بها ، وهذا ليس
من شأنه ، لأنه لا يحدد النظريات العلمية بالتعاريف العلمية .

ومتش القرآن جل وعلا لا تخفى عليه خافية ، وقد وجهه بالقرآن
التوجيه السليم الذي أرادته للبشرية التي فتح لها باب التفكير واستعمال
العقل ونبهاها إلى عجائب الكون وكوامنه .

والقرآن لا يعلق إيمان المؤمن على تفسيرات علمية متغيرة تجعله
يغير إيمانه كلما جد لديه جديد من النظريات العلمية التي لا يستقر لها
قرار ، فتتغير بحسب البحوث والازمنة والعصور .

العمل

يريد القرآن أن يؤسس أمة عاملة سعيدة ببناء يعيش الفرد فيها في رخاء وطمأنينة وسلام ، أمة قادرة بكدها المتواصل وسواعد بنيها على التصرف في ملكوت الله الذي خص به عباده ليمشوا في مناكبه ويأكلوا من رزقه ويتدبروا كل ما فيه .

ففي الأرض متاع أباحه الله لخلقه بوصف خلافتهم في الأرض ومهد لهم سبل العمل والتصرف في الطبيعة ومنحهم عقولا قادرة على استيعاب أسرار الطبيعة وأرشدهم إلى التدبر في العوالم الأخرى .

قال تعالى في سورة البقرة : « الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم » .

وبدون عمل لا يستطيع المسلمون أن يحققوا الرسالة التي أنزلها القرآن بهم ، وقد قال رسول الإسلام (ص) : (ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده . وقال : لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره خير من أن يسأل أحدا فيعطيه أو يمنعه) .

فالمسلم الذي لا يعمل ماله الأفلاس والتشرد ، والتقاعد عن العمل رذيلة ، والسؤال خسة ، والكسب من أكّد واجبات المسلم .

ويتحمل المسؤولون المسلمون وزر البطالة ، أذ عليهم أن يأخذوا بيد العاجزين معتمدين في ذلك على مداخيل معينة قررها القرآن الكريم .

ونعرف من أحوالنا الاجتماعية أن من ألف التسول وأراق ماء وجهه في الطلب ، صعب عليه الإقلاع عن هذه النعرة التي أصبحت حرفة تزرى بمجتمعاتنا الإسلامية .

إن الإسلام يمدح العمل ويرغب فيه ويذم الكسل وبطعنه ، وقد رأى النبي (ص) يد عامل ورمت من العمل فقال : هذه يد يحبها الله ورسوله .

والإسلام من السباقيين للدفاع عن حقوق الضعفاء والفقراء والعمال ، لأن بناء المجتمعات يقوم على أكتاف هذه الجماعات وبعملهم تتحقق السعادة والرخاء .

ان مبادئ القرآن تناقض كل احتكار واستغلال ، والاحتكار فظيع ، والاستغلال شنيع ، لانه يسخر الجماهير الكادحة ويستعبدها بدون رحمة ولا هوادة .

والاسلام يعطف على الضعيف والفقير ولا يرضى لاهله الفقر والضعف ، ويريد من المسلم في حالة ضعفه وفقره أن يكون عزيز النفس عالي الهمة ، لا يقبل الذل والهوان ، وقد كان انبي (ص) ينهي أصحابه عن أن يكونوا أذلاء ، لان المؤمن قوي بإيمانه .

وما منيت أمة بنظام الاحتكار والاستغلال الا وكان الشقاء حليف الأغلبية فيها .

والشره الرأسمالي باب من أبواب المغامرة المحرمة التي تجعل صاحبها لا يبحث من أين اكتسب ولا كيف اكتسب .

قال تعالى في سورة الاسراء : « وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلا » .

يمحو الله ظلام الليل الذي جعله للسكون والراحة ، ويجلو النور الذي جعله للعمل والكد لتبتغوا فضلا من ربكم وتعملوا من أجل رزقكم وأسعادكم .

وبتقلب الليل والنهار تعرفون عدد السنين والشهور والايام والفصول لتضبطوا أعمالكم وتقद्रوها .

فالقرءان لا يسمح للمسلمين بأن يعيشوا في فوضى عارمة كانت من الاسباب التي طوحت بهم في مجاهيل الجهل والتأخر والجمود وسرت بينهم مقالات قدرية لا تماشي ضوابط القرآن ونظامه ولذلك تقول الآية : « وكل شيء فصلناه تفصيلا » .

فلم يترك الامور للصدفة وانما نظمها تنظيما محكما وفصلها تفصيلا بينا دقيقا .

وآيات الله في الكون اكبر دليل على هذه الدقة المتناهية وما ترشد اليه من نظام وترتيب .

وقال تعالى : « وما كنا معذيين حتى نبعث رسولا » . فقد أرسل الله الرسل مرشدين وختم رسالتهم بالقرآن الذي جعل العمل من أسس مبادئه .

فليتحمل كل مسلم مسؤوليته من عمله وليتدبر أمره ، فإذا اهتدى فلنفسه ، وإذا ضل فعليها ، ولم يواخذ الله أحدا إلا بعد أن أوضح معالم الطريق ، ولم يمت رسول الإسلام (ص) حتى قال : (تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك) .

وتزيد الآية فتقول : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » .

ان المسؤولية في العمل ثابتة ، ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ، وكل الذين يقصرون في العمل لا يلومون إلا أنفسهم .

وإن المنحرفين عن جادة الطريق الكافرين بأنعم الله المخالفين لأوامره المتخذين من الترف والنعيم مطية للعبث واللغو والمجون والافساد والاضرار والفواحش حتى ارتخت أنسانيتهم وسقطت أخلاقهم وهلكت حيويتهم ، لا يرجى منهم خير ولا صلاح ولا نفع ، هؤلاء يمهلمهم الله ، ولكنه لا يمهلمهم حتى يضربهم الضربة القاضية ، وحتى يصيبهم بالدمار والخراب والهلاك .

أما غير المترفين فيتحملون مسؤوليتهم أيضا لكونهم لم يتدبروا الأمر وخضعوا وضعفوا وجبنوا وانساقوا لأصحاب الترف والجاه .

والعبرة من هذه الآية كبيرة فهي تظهر أن أصحاب الثراء هم الذين يخربون الضمائر ويفسدونها ، ولا يتناهون عن منكر فعلوه ، لأن ترفهم جعل منهم طفاة ومستبدين وفجارا وفساقا وظلمة وماكرين ، ومن أجل هذا نجد القرآن يتخذ قراره في المال ولا يسمح بتكوين طبقة المترفين ، لتسلم الأمة من غضب الله الذي يعقب السفاهة والتحلل والارتكاس في الرذائل والشهوات .

فليتدبر المسلمون هذه الآية جيدا وليضربوا على أيدي المترفين المستغلين المنحليين حتى لا يحيق بهم العذاب .

التشريع القرآني

أخذ القرآن يوطد تشريعاته بعد نجاح الدعوة نسبيا ، ثم سار يخطو بها خطوات متتدة رزينة وهي تبني دولة وتؤسس نظاما متكاملًا بلغ غايته وحقق آماله .

والقرآن في تشريعه ينظم العلاقات بين الناس مع بعضهم ويربط العلاقة بين الخالق والمخلوقين .

وقد حقق التشريع القرآني تنظيم مجتمع مثالي يسير حسب المصالح العامة ويوطد العلاقات بين أفرادها في إطار أخوي .

والتشريع القرآني سلك مسالك التدرج في تشريعه ، أما بالنسبة لأصل العقيدة فإنه لم يسلك التدرج وإنما أعلن العقيدة من أول وهلة لكونها أساسية بالنسبة لما عداها .

ويضع القرآن في تشريعه الأسس العامة للشريعة الإسلامية ، ويترك الجزئيات للمستنبط منه الذي عليه أن يستنبط وفق مقاصد الشريعة .

ويتميز التشريع القرآني بمرونته وبعدم الحرج وبكونه عمدة أصيلة بالغة للتشريع الإسلامي على العموم .

ويرمي التشريع القرآني إلى احترام كرامة الإنسان والمحافظة على حريته وحقوقه وإقامة العدل بين أفراد المجتمع واحترام العهود والمواثيق والأعراض والأموال والنفوس والأرزاق .

وتستطيع تشريعات القرآن أن تستوعب كل ما يطرأ ويحدث إذا وجدت من يفهمها ويضعها في مكانها .

والتشريعات الوضعية ليست أوفق للبشرية من التشريعات القرآنية وهي رغم سموها تمتاز بالتسامح والتخفيف واليسر ونبت التشديد والمشقة والضيق والإحراج .

ولننقل مقتطفات من تشريع القرءان كتوضيح لقوته وقابليته وثورته ويسره وصلاحيته ، لان يحتل اسما مكان بين بقية التشريعات الوضعية .

فقد اباح القرءان للناس ان يتنعموا بطيبات الارض وارزاقها ولم يستثن من ذلك الا اشياء قليلة جدا لما فيها من الضرر او الفساد ، قال تعالى في سورة البقرة : « يا ايها الناس كلوا مما في الارض حلالا طيبا » . وقال : « يا ايها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا الله ان كنتم اياد تعبدون انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما اهل به لغير الله فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا اثم عليه ان الله غفور رحيم » .

فهذه الآية تحدد المحرمات في اشياء يسيرة وتجعل ما سواها حلالا .

ولا يجهل ما في الميتة والدم المسفوح من الاضرار زيادة عن كون النفس تأنف من تناولهما .

ويوجد في الخنازير دود مضر اكتشفته الميكروسكوبات الحديثة مما جعل المشرفين على الصحة العمومية في بعض الدول التي تتناول الخنازير يقررون عدم تناولها الا بعد طبخها في حرارة مرتفعة .

ويحرم القرءان على المسلم تناول ما اهل به لغير الله لكون العقيدة الاسلامية تعادي الوثنية في جميع أشكالها ، وللقضاء على الوثنية يجب القضاء على كل ما تقوم عليه من قرابين .

ولا يرى القرءان مائعا من تناول الممنوع عند ضرورة حفظ الحياة من الضياع ، ولكن بقدر الحاجة .

وورد في سورة البقرة : « يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس واثمهما اكبر من نفعهما »

فلم تكن الخمر محرمة في اول الاسلام ولم يحرمها القرءان دفعة واحدة تمشيا مع قاعدته في تدريج التشريع وكذلك بالنسبة للميسر .

ولكون الخمر والميسر يحدثان شرورا كبيرة في المجتمع حرمهما القرءان اخيرا تحريما باتا قاطعا بعد ان استأنس الناس بمقاصد الشريعة

الاسلامية وما ترمي اليه من تحريم كل مخرب للحياة ماديًا ومعنويًا .
وهذه الآية تعتبر خطوة أولى في لفت الانظار الى مفسد الخمر والميسر .

ثم جاءت المرحلة الثانية في آية سورة النساء : « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى » . وذلك لعظم شأن الصلاة ومكانتها في نفس المسلم الصادق . ومن شأن المسلم أن يصلي خمس مرات في اليوم فيعسر عليه أن يتعاطى للمسكر وهو ملزم بالصلاة في وقتها ، وكانت هذه الالتفاتة الثانية أشد من الأولى ، ولا شك أن المسلمين تنبهوا لهذا فأقلع كثير منهم عن تعاطي الخمر .

ثم كانت المرحلة الأخيرة في آية سورة المائدة : « يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون » .

وبذلك منع على المسلم تعاطي هذه المحرمات المشينات .

ويصنع القرءان على الزواج صبغة قدسية عميقة المعنى رفيعة الشأن وسمى عقدة النكاح ميثاقًا غليظًا حيث قال تعالى في سورة النساء : « وأخذن منكم ميثاقًا غليظًا » . وقال في سورة الروم : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجًا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة » . وقال في سورة البقرة : « هن لباس لكم وأنتم لباس لهن » .

وقال : « ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ولامة مومنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ، ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من شرك ولو أعجبكم أولئك يدعون الى النار والله يدعو الى الجنة والمغفرة بإذنه ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون » .

ولما كان الزواج من أقوى الروابط التي يرعاها الاسلام في نظام الاسرة المسلمة قبله القرءان بين طرفين مؤمنين بالله ليتمكن له أن يثمر ثمرة طيبة ، ومنعه بين مسلم ومشركة أو بين مشرك ومسلمة ، كما منع أن تنكح المسلمة لاي كافر ليس بمشرك حفظًا لكرامة المرأة المسلمة .

وقد وجدت ظروف خاصة في اول الاسلام تركت الانكحة الجاهلية قائمة بين المسلمين والمشركين ، ولكن لما ثبت الاسلام وجوده في المدينة قطع دابر الانكحة التي لا تتفق وشرف الاسلام ليخطو بجماعته الخطوات التي يريدها .

وتقول الآية : « أولئك يدعون الى النار والله يدعو الى الجنة والمغفرة باذنه » . ولان يلتقي اتجاه يدعو للشر والكفر واتجاه يدعو للخير والايمان .

وقد أظهرت الوقائع ان الكفر ملة واحدة وصدق القرءان وكذب المبطلون .

واو اردنا ان نحلل ايمان الطائفتين الكتابيتين اللتين احل الله للمسلمين ان ينكحوا نساءهما لما ترددنا في القول بأن معظم الكتابيين لا يتمسكون بالكتب السماوية الحقيقية بقدر ما يتمسكون بأباطيل ما أنزل الله بها من سلطان ، ومع ذلك لا نريد قطع الاتصال الزوجي بين المسلمين والكتابيين ، وان كنا نراه مفسدة اجتماعية خطيرة وبالاخص في هذه الظروف الصعبة التي يجتازها العالم الاسلامي .

وليس في نصوص القرءان ما يجيز زواج المسلمة بالكتابي مهما كانت الظروف ، وكل حكومة اسلامية تسكت عن زواج الكافر بالمسلمة فانها آثمة لا محالة ومفرطة في كتاب الله .

وفي سورة البقرة : « ويسألونك عن المحيض قل هو اذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فاذا تطهرن فاتوهن من حيث أمركم الله ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » .

فيحرم القرءان على المسلم ان يباشر زوجته في حالة المحيض لكونه اذى للصحة ، ويحرم على المسلم أن يؤذي صحته .

والمرأة في حالة الحيض تكون في ظروف استثنائية نفسياً وعصبياً وجنسياً .

والقرءان لا ينظر للذة الجنسية من حيث كونها لذة فحسب بل لما ينبنى عليها من تعمير للارض التي استخلف الانسان فيها ، فعلى هذا الانسان المستخلف في الارض ان يترفع عن الحيوانية الضارية ليكون انسانا كريما كما اراده الله ان يكون .

ويقو تعالى في سورة البقرة : « للذين يولون من نسائهم تربص أربعة أشهر فان فاءوا فان الله غفور رحيم وان عزموا الطلاق فان الله سميع عليم » .

فاذا وقع بين الزوجين ما جعل الرجل ينقطع عن مباشرة زوجته ويتخذ من الايلاء مسلكا له فان القرءان لا يترك الزوج يتصرف كما يشاء ، بل حدد للايلاء امدا ينتهي اليه وهو أربعة أشهر وهي مدة كافية في التقاطع الزوجي الذي لا يمكن ان يستمر اكثر ، وهي مدة اختبار عسى ان يتراجع كل من أساء الى السير في طريق الزوجية الصحيح .

والايلاء اما ان يكون بسبب تعنت الزوجة فيقاطعها زوجها عساها ان ترجع عن تعنتها ، وحينئذ لا يسمح للزوج بالاستمرار في المقاطعة اكثر من المدة المحددة .

واما اذا كان ايلؤه مجرد ايداء للزوجة فلا يسمح له بالتعدي على حقوقها الزوجية والحاق الضرر بها .

وفي الحالتين اما ان يعود الزوج لاستئناف حياته الزوجية العادية بعد المدة التي قررها القرءان واما ان تحل عقدة الزواج بينهما بطلاق اختياري أو اجباري .

وفي الحالات المعروفة ان بعض النساء قد يحاولن اخراج أزواجهن فيعمل الزوج على دفع الحرج بالحرج ، ويتخذ من الايلاء طريقا ، فجعل القرءان نهاية الايلاء اما التفاهم والتصالح واما فك العصمة الزوجية .

وفي بعض الحالات يكون الاحراج من جانب الزوج لقصد سيء فيقطع عليه الشارع قصده بايقاع الطلاق ، ولا يسمح له بتحقيق مطامعه الخسيسة .

وان كل زواج لا يبنى على المكارمة فمن الاصلح ان يفسخ ليفسخ المجال لكل طرف كي يستأنف حياة جديدة قد يسعد فيها .

والقرءان لا يقبل أبدا تعليق الزواج مهما كانت الاسباب والظروف ، فاما زواج شرعي كريم واما فرقة كريمة لا ضرر فيها ولا ضرار .

وفي سورة البقرة : « الطلاق مرتان فامسك بمعروف او تسريح باحسان ولا يحل لكم ان تأخذوا مما آتيتموهن شيئا الا ان يخافا الا يقيما حدود الله فان خفتم الا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون » .

الطلاق شيء قرره القرءان اذا دعت اليه اضرورة ، وقد قال (ص) : « أبغض الحلال الى الله الطلاق » .

وجعل القرءان اطلاق مرتين ، عسى ان يؤوب الزوجين الى رشدهما وتفاهمهما ليستأنفا حياتهما في ظل السعادة والهناء . فاذا لم يتحقق ذلك وحصل الطلاق مرة اخرى فان الزوجة تحرم على زوجها الى ان تنكح زوجا غيره نكاحا صحيحا غير مشبوه وتطلق طلاقا طبيعيا غير مشبوه ولا تراجع فيه ، وحينئذ يمكن للزوج الاول ان يستأنف معها حياة جديدة ربما تغمرها السعادة والوفاء .

والطلاق مستبشع من الوجهة الاسلامية ، ولكنه قد تكون فيه مصلحة اجتماعية لا سبيل الى تجنبها تحقيقا للسعادة البيتية اللازمة .

وليس في العلاقة الزوجية سوى وجهين لا ثالث لهما ، فاما امسك بمعروف واما تسريح باحسان .

ويحرم القرءان على الزوج ان يسترد شيئا من الصداق الذي كان اصدقه الى زوجته او شيئا مما أنفقه عليها في ايام ارتباطهما مقابلا تسريحها ، ولكن اذا رغبت الزوجة في مفارقة زوجها فلها ان تطلب طلاقها بتعويض وهو ما يعرف في كتب الفقه بالخلع ، وتنص الآية على عدم الاعتداء في التعويض ، لان الاعتداء ظلم شنيع .

ويمنع القرءان الاضرار بالزوجة فيقول في سورة البقرة : « وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ذلكم أذكى لكم وأطهر والله يعلم وأنتم لا تعلمون » .

فالزواج عصمة بمعروف ، فان لم يمكن فتسريح بعدل بدون اذاية ولا أعنات ولا ضغينة .

وقد حرر القرءان المرأة من كل قيد جاهلي فيه اضرار بها ومنحها حقوقها لتعيش في ظلال الاسلام حرة كريمة سليمة من القيود التي تغل الحرية والكرامة .

فاذا وقع طلاق بين زوجين وقرب انتهاء أمد العدة ، فاما أن تحصل رجعة بين الزوجين على كتاب الله وسنة رسوله واما أن تترك المرأة الى نهاية المدة لتبين .

ولا يجوز للزوج أن يؤذيها ولو بالدعاية والتقول أو يعضلها عن الزواج بأي نوع من أنواع الاعضال نكايه لها ، كما لا يجوز له أن يسترجعها ليضرها أو يمكر بها .

وهناك جانب مهم يجب الالتفات اليه وهو الاولاد ، فلهم حظهم في المسألة ، فمن سوء التصرف الاضرار بزوجة ارتبطت مع زوجها بأولاد ، لان ذلك يفسد حالهم ويهدم مستقبلهم .

وفي سورة النساء : « وان خفتم الا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، فان خفتم الا تعدلوا فواحدة او ما ملكت أيمانكم » .

فقد أباح القرءان للرجل أن ينكح أربع نسوة ، وقيد ذلك بقيد العدل الذي يصعب تحقيقه ، ولذلك جعل واحدة هي الزواج الذي يمكن للرجل أن يعدل فيه عدلا كاملا ، وبهذا أبطل القرءان ما كان شائعا في الجاهلية من تعدد الزوجات بدون حدود ، فجعل لذلك حدا لا يمكن تجاوزه وحتى لا

تهان كرامة الزوجات وحتى لا يصبح الزوج كحيوان جنسي الاجدر به أن يكون في قطع من البقر او الغنم .

فالتعدد رخصة تستعمل مع العدل ، فاذا انعدم العدل انعدمت الرخصة .

وأعتقد أن القرآن كان حكيما في تشريعه هذا ، فهو لم يمنع التعدد لكون الحاجة قد تدعو اليه ، ولكن قيده بقيد قل أن يتوفر ليجنب المسلمين مأزق التعدد وأخطاره .

والقرآن بطبعه ينسجم مع الاحوال والازمان ويسارها بدون تفريط ولا إفراط .

وحكمة التعدد عند الاقتضاء فيها انقاذ للمجتمع من الوقوع في برائن الفسق الذي لا يرضاه القرآن المسلمين ويتجلى ذلك في الدول التي تمنع التعدد فتصاب المرأة بعاهة تضطر الزوج الى اللجوء لامراة اخرى ونسقط من الحساب القيم الغريبة الحالية في مجتمع جاهلي بكل ما تحمله الجاهلية من معنى .

وما ذا تفعل المجتمعات التي يزيد فيها عدد النساء عن الرجال ؟ هل لا يكون التعدد من وسائل حفظ الاخلاق والكرامة من وجهة النظر القرآنية لا من وجهة النظر الغربية التي ارتكست في بُؤرة الفسق والفجور ؟

والقرآن لا يتحمل جريرة المسلمين اذا انحرفوا عن أهدافه الحقيقية فللقراء وجهة نظره ، ولكن يجب أن تفهم هذه الوجهة من جميع الجوانب، واذا فهمناها استطعنا أن نصل الى مقصد القرآن في تشريعاته .

وما هو العدل الذي يقصده القرآن في المعاشرة ؟

انه عدل عام في النفقة والعشرة والمعاملة وكل ما يتصل بذلك .

ويسقط القرآن من الحساب ما لاقدرة للانسان على تجنبه من الميولات القلبية التي لا يقبل ان يتدخل التشريع في شأنها والتي يقول

عنها القرءان : « ولن تستطيعوا ان تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة .

ومهما انتفى العدل وجب الا يتزوج المسلم غير واحدة .

والقرءان ينظر الى العلاقات الزوجية على انها مودة ورحمة وتعاطف، لا نزوة حيوانية بهيمية جنسية محضة . وفي سورة النساء « وعاشروهن بالمعروف فان كرهتموهن فعسى ان تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا وان اردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم احداهن قنطارا فلا تاخذوا منه شيئا اتاخذونه بهتانا وانما مبينا وكيف تاخذونه وقد افضى بعضكم الى بعض واخذن منكم ميثاقا غليظا » .

حقا انه ميثاق غليظ ، لا يمكن التلاعب به والاستهانة بحرماته .

وفي سورة البقرة : « والوالدات يرضعن اولادهن حولين كاملين لمن اراد ان يتم الرضاعة وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف لا تكلف نفس الا وسعها لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده وعلى الوارث مثل ذلك فان ارادا فصلا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما وان اردتم ان تسترضعوا اولادكم فلا جناح عليكم اذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف واتقوا الله واعلموا ان الله بما تعملون بصير .

فاذا وقع الطلاق وانتهت الحياة الزوجية بين زوجين وكان لهما اولاد فان القرءان قد بين حكم هؤلاء الاولاد الرضع ، ولم يتركهم عرضة للصدف والاهواء ، فهم لا ذنب لهم فيما وقع بين والديهما ، ومن الاضرار بالمجتمع ان يتركوا عالة تذروهم الرياح خصوصا اذا كانت خصومة الابوين قد بلغت حدا من القسوة والعنف فنزعت الرحمة من قلوبهما وهو شيء قد يقع .

ففرض القرءان على الام رضاع ولدها حولين كاملين لمن اراد ان يتم الرضاعة وهي المدة التي يقدر فيها الطفل على العيش بدون رضاعة ، وتعتبر اقصى مدة ، ويفرض في مقابل ذلك على الاب الرزق والكسوة بالمعروف .

ولا تضار والدة بولدها ولا مواد له بولده ، فالام ترضع ولدها بدون استغلال للاب ، والاب ينفق بدون ان يستغل حنان الام ليضبط عليها حتى ترضع الولد بدون مقابل .

وتنتقل ، واجبات الاب الى ورثته فيما اذا توفي محافظة على حقوق الولد . فلو وقع الاتفاق بين الوالدين أو الوالدة والوارث على اطفام الطفل قبل المدة المحددة ، ولم يكن في ذلك ضرر فلا جناح في ذلك .

ويمكن للاب أن يستأجر مرضعة لولده اذا اقتضى الحال ذلك .

وفي سورة البقرة : « ولا تجعلوا الله عرضة ليمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس والله سميع عليم لا يواخذكم الله باللفو في أيمانكم ولكن يواخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور حلیم » .

ينهي القرءان المسلم أن يجعل الحلف بالله مانعا من فعل الخير والمعروف والاصلاح بين الناس ، ويقرر ان الله لا يواخذ باللفو في الايمان وهو ما يجري به اللسان عفوا من غير قصد . ولا يواخذ الا بما كان قصدا فجعل الكفارة في اليمين المعقودة التي ينوي الحالف أخذ أو ترك ما حلف عليه ، وفيها يقع الحنث والكفارة . وكل يمين تعلقت بشيء فيه امتناع عن فعل خير أو فيها حلف على الاقدام على شر يجب الحنث فيها .

قال ابن عباس : (لا تجعلن عرضة يمينك الا تصنع الخير ولكن كفر عن يمينك واصنع الخير) .

قال (ص) : (من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليكفر عن يمينه وليفعل الذي هو خير) .

وقال : (اللغو في اليمين هو كلام الرجل في بيته كلاً والله وبلى والله) .

ويختلف الفقهاء فيمن حلف على شيء وهو يعلم انه كاذب هل عليه كفارة أم لا .

أما اليمين التي يحلف بها الشخص ليقطع بها مالا أو حقا فهي يمين حذر الشرع منها لكونها مظهرا كاذبا للاغتصاب ، فصاحبها مجرم وفاسق .

وفي سورة البقرة : « ولا تاكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام لتاكلوا فريقا من أموال الناس بالاثم وانتم تعلمون » .

فيحذر القرءان من أكل أموال الناس بالباطل بأي وجه من الوجوه ، بل أن من الناس من ياكل أموال الناس بالباطل ويلعن بباطله ويغالط به عند الحكام ليحكم له و هو يعلم انه ظالم . وقد قال النبي (ص) : أمرت ان أحكم بالظاهر . وقال : انما أنا بشر وانما ياتيني الخصم فلعل بعضكم ان يكون الحن بحجته من بعض فأقضي له ، فمن قضيت له بحق مسلم فانما هي قطعة من نار فليحملها أو ليذرها .

وفي نفس السورة : « ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في نفسه وهو ألد الخصام وإذا تولى سعى في الارض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالاثم فحسبه جهنم وبئس المهاد » .

ان من الناس من يعجبك قوله بدلاقة لسانه وبتظاهره ولكنه منطو على الشر ، ويفتضح تظاهره وشره عند ما يدعى الى الحق فيمضي في طريقه الملتوي حتى يهلك الحرث والنسل كلما وجد الى ذلك سبيلا .

فالقرءان يحذر من الاشرار المتقمصين صورة غير صورتهم حتى لا يشك أحد في تقواهم ، فظاهرهم مخالف لباطنهم ، لا هم لهم الا الافساد والاهلاك ، وهؤلاء مبغوضون عند الله ، لانه سبحانه لا يحب الفساد .

أما نظام التوريث في الاسلام فقد تعرضت له آيات سورة النساء ووضعت لكل وارث حظه من التركة بعدل وانصاف وإنسانية فائقة تخالف أعراف الجاهليين في التوريث ، تلك الأعراف المبنية على الظلم والجور .

وقد روى عن ابن عباس : أنه لما نزلت الفرائض التي فرض الله فيها ما فرض للولد الذكر والأنثى والأبوين كرهاها الناس وقالوا : تعطى المرأة الربع أو الثمن ، وتعطى الابنة النصف ويعطى الغلام الصغير ، وليس من

هؤلاء أحد يقاتل القوم ولا يجوز الفنيمة . وهذه المقابلة لا شك صدرت من بعض من أشربت نفوسهم برعونة الجاهلية العمياء ، تلك الجاهلية التي لم تهضم مفاهيم القرآن التي أتت بالعدل والحق ورفعت الظلم عن كواهل المظلومين ، ووضعت القوانين الاجتماعية الكفيلة بالقضاء على الفوارق والنظم العقيمة البالية التي كانت لا تورث امرأة ولا صغيراً .

وهل كان في مستطاع الجاهلية ان تهتدي الى حكمة التشريعات الاسلامية ، وهي التي أعمتها الغواية والضلال ؟

وهل كان في مستطاع الجاهليين ان يتصوروا نظام القرآن المالي ، وهو يعمل على تفتيت الثروة بالعدل كي لا يكون المال دولة بين الاغنياء ؟ .

وجاء في سورة البقرة : « كتب عليكم اذا حضر أحدكم الموت ان ترك خيراً الوصية للوالدين والاقرين بالمعروف حقاً على المتقين فمن بدله بعد ما سمعه فانما أثمه على الذين يدلونه ان الله سميع عليم فمن خاف من موص جنفاً او اثماً فأصلح بينهم فلا اثم عليه ان الله غفور رحيم » .

هذه الآية نزلت قبل آية الموارث ، وبنزول آية الموارث بعدها لم تعد هناك وصية لوارث ، فبقي هذا النص يشمل غير الوارثين من القرابة احساناً لهم ورحمة بهم .

ويحرم القرآن التبديل والتغيير في الوصية بعد وفاة الموصي الا اذا تبين انه قصد بوصيته الاضرار بالوارثين ، وحينئذ يجوز التغيير بما يدفع الضرر ويقيم العدل .

وفي سورة البقرة : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والانثى بالانثى فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه باحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب اليم وانكم في القصاص حياة يا أولي الابواب لعلكم تتقون » .

فالقصاص ضروري لقيام حياة خالية من الخوف والاعتداء ، اذ بلون قصاص لا يمكن أن تستقر حياة سليمة ، فالقصاص حياة .

والقصاص في القتل العمد كما تقول الآية الكريمة يكون مثلاً بمثل بدون نقمة ولا ضغينة تزيد في شدة القصاص ، ثم هناك العفو بقبول الدية بدلاً من القتل .

وإذا ما قبل ولي الدم الدية ورضيها فليطلبها بالمعروف ، وعلى القاتل أو وليه أن يؤديها بالاحسان تحقيقاً للاخوة الإسلامية الشاملة .

وما أجمل تعبير القرءان هنا بكلمة أخيه .

وإذا قبلت الدية فلا اعتداء ولا انتقام لما في ذلك من النكت للعهد ، فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم ، والعفو من شيم الكرام .

وموضوع هذه الآية الاعتداء الجماعي الذي كان سائداً بين العرب في الجاهلية والذي يمكن أن يحدث لسبب من الأسباب .

والاعتداء الجماعي اعتداء أعمى لا يميز ، فكان القصاص فيه متعادلاً فيقتل حر بحر وعبد بعبد وأنثى بأنثى .

أما آية سورة المائدة : « وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » . فموضوعها الاعتداء الفردي .

وجاء في سورة المائدة : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه أن الله غفور رحيم » .

والسرقة اعتداء على مال الغير من حرز خفية . ويحد الفقهاء الحد الأدنى للسرقة بربع دينار . فإن أخذ انسان مال غيره من حرز خفية وبلغ القدر المأخوذ ربع دينار فالقطع والا فالتعزير اما بالجلد أو بالحبس أو ما في معنى ذلك مما يلائم بحسب الظروف التي تكتنف الاخذ .

وتقطع اليد اليمنى الى الرسغ ، فإن عاد السارق الى ارتكاب السرقة قطعت رجله اليسرى الى الكعب . ولا يطبق حد السرقة الا عند ما لا يمكن الاستغناء عنه بشبهة أو واقع شرعي يصرفه .

وقد يدعى مدع أن حد السرقة حد قاس لا يتوافق والحضارة التي نحياها ، ولكن الواقع يشهد أن اللصوصية قد أصبحت عملا دوليا مخوفا ، سواء بالنسبة لداخل الدول أو خارجها ، وما ذلك الا لان اللصوص لا يزجرون كما يجب أن يزجروا والا لاقلعوا عن جرائمهم .

والاسلام لا يقرر القطع من أول وهلة بل يأمر بدرء الحدود بالشبهات، ولكن عند ما يروع الناس وتكثر جرائم السرقة ولا يمكن درؤها بشبهة شرعية مقبولة فبماذا لا يحفظ أمن الناس بزجر طائفة معينة من المجرمين نكالا لها .

وقد قال امام المسلمين العادل عمر بن الخطاب (ض) : لان أعطل الحدود بالشبهات أحب الى من ان أقيمها بالشبهات .

وباب التوبة مفتوح في وجه اللصوص . ولا ينبغي ان يواخذ اللص التائب بسوابقه اذا حسنت توبته والا لدفعناه مرة أخرى الى الجريمة فنكون نحن الذين أجرمنا في حقه .

وفي سورة المائدة : « انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الارض فسادا ان يقتلوا او يصلبوا او تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف او ينفوا من الارض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم الا الذين تابوا من قبل ان تقدروا عليهم فاعلموا ان الله غفور رحيم » .

وفي هذه الآية حد الحراية . والحراية من الجرائم التي نص القرآن على حدها لخطورة شأنها بالنسبة للامن الذي لا يمكن لشعب ان يعيش مطمئنا بدونه .

والحراية هي الخروج على الامام الشرعي المستوفى لشروط التولية .

والجماعة المجرمة المحاربة هي التي تكون عصابة او عصابات وتعتدي على الاموال والارواح والحرمان فلا تستحق شفقة ولا رحمة ، ويجب على المسؤولين ان يتخذوا من الاجراءات العاجلة ما هو كفيل

بزجر عصابات الاجرام المخربة ، سواء كانت هذه الجماعات من المسلمين او من غيرهم ، وقد اعتبرهم القراء محاربين لله ورسوله ومفسدين في الارض ومروعين لامن الناس وطمأنينتهم ، اذ كل من وقف في وجه شريعة القراء فهو محارب لله ورسوله كيفما كانت النحلة التي ينتحلها ، وكيفما كان الشعار الذي يلوح به للناس .

وقد استغلت هذه الآية من جانب بعض الحكام المنتسبين للإسلام في عصور مختلفة ، ولم يكن قصدهم الدفاع عن القراء وشريعته بقدر ما كان قصدهم ان يدافعوا عن مكاسبهم .

وكل حاكم ينتسب للإسلام ولا يعمل بتعاليم القراء لا يستحق من وجهة النظر الإسلامية أن يكون هو الامام الذي تقصده هذه الآية الكريمة ، ومن المعروف في التعاليم الإسلامية أن الحاكم اذا انحرف عن جادة الإسلام وتعاليمه فتوايته غير شرعية ، ويجب الخروج عليه لكونه لم يعد حاكما شرعيا .

ونجد الفقهاء يختلفون في تفهم هذا النص القرآني الكريم باعتبار ان العقوبات الواردة فيه هل هي على سبيل التخيير أم هي بحسب الافعال التي قامت بها العصابات الخارجة .

ولا نريد هنا ان ندخل في المجادلات الفقهية ، لانها لا تهم بحثنا هذا، ولكننا نشير الى ان مذهب المالكية اوفق لقطع دابر الفساد والاجرام .

وعند المالكية أن المحارب اذا قتل فلا بد من قتله ، فان اعتدى على الاموال دون الارواح فلا تخيير في نفيه ، وانما التخيير في قتله او صلبه . فان قبض عليه وكان لا زال لم يقتل ولم ينهب فالخيار في أربعة .

ويوضح المالكية معنى التخيير بكون الحاكم ينظر في أمر المحارب أهو من ذوي الرأي والتدبير أم لا ؟ فان كان من ذوي الرأي قتل او صلب ليقطع ضرره ، وان لم يكن من ذوي الرأي وانما كان من ذوي القوة يعتمد في اجرامه عليها حكم عليه بالقطع من خلاف ، فان لم يكن من اصحاب الرأي ولا من اصحاب القوة والبطش بأن كان من المتربصين للفرص يمكن

التخفيف عنه بالتعزير او بالنفي والتغريب الذي يشعره بالالام والعجز ، لا بمطلق نفي قد يستطيع معه ان يعود الى ترويع أمن الناس .

هذا جزاء هؤلاء المجرمين في الدنيا ، أما في الآخرة فلهم عذاب عظيم ، لان جزاءهم ليس مطهرا لهم من جرائمهم .

والقرءان لا يعلق الباب في وجوه الخارجين ، فهم اذا تابوا ورجعوا عن غيهم قبل القدرة عليهم فإله غفور رحيم .

وفي سورة الحشر : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » . وعلى هذا الاساس يتقرر التشريع الاسلامي .

فالكتاب والسنة هما الاساسان اللذان يجب أن يقوم عليهما النظام الاسلامي في جميع مرافقه ، وكل تشريع لا يرتكز على مقاصد الشريعة بقرآنها وسنتها ، فهو تشريع منحرف ضال ولو زين بالمظاهر البراقة الخادعة .

أن السلطة لله وحده ، ومن هذه السلطة يمكننا أن نقن وحتى اذا لم نجد نصا فلدينا الكليات العامة التي قررها الكتاب والسنة لتكون نبراسا لنا نهتدي بها في تشريعاتنا كلها . أما اذا وجد نص فلا سبيل الى تركه مطلقا ، وكل ما نشرعه يجب أن لا يخالف أصلا اسلاميا ولا مقصدا من مقاصد الشريعة .

الحكم

ينزع القرآن في تشريعه الحكمي الى جانب العدل والشورى والحرية والمساواة ويحيد عن طريق انغواية والقسوة والاستبداد والظلم والاستغلال .

وقد أمر القرآن النبي (ص) بمشاورة أصحابه ليدربوا على منهج الحكم الاسلامي الذي لا يقبل الاستبداد في الرأي والتنفيذ ، كما مدح المؤمنين على تشاورهم فيما بينهم وخضوعهم لامر الله في ذلك فقال : « وشاورهم في الامر . وأمرهم شورى بينهم » .

ويقرر القرآن أن الامر كله لله ، وأن المخلوقين ليسوا سوى أمناء على حكم الله ، فهم جميعاً يتحملون مسؤوليته ليحققوا سلطان الله في الارض كما يريد القرآن .

والتنزيه والتقديس المطلق عادة كانت مألوفة عند شعوب عاشت قبل أن ينزل القرآن ليحرف تقديسها الباطل وسلطانها الظالم .

والقرآن يضع للحاكم حدوداً لا يقبل منه أن يتعداها كما يعطى للمحكومين حقوقاً لا يقبل منهم أن يتجاوزوها كما على الجانبين واجبات لا بد لهما من القيام بها .

ولا يعنف القرآن من يسير في طريق العدالة إذا أحدث من الانظمة ما يحقق تلك العدالة ، اذ من حق المسلمين أن ينظموا أنفسهم تنظيمًا يماشي التطور الطبيعي بشرط أن لا ينحرفوا عن أهداف القرآن الاساسية .

والحكم مسؤولية ثقيلة وتكليف صعب ، فإذا ونيه المستبدون أو الفوغاء أو السفلة فويل للشعوب المحكومة منهم ومن تصرفاتهم الشائنة ومن شهواتهم العارمة . وقد قال (ص) : ما من وال يلي رعية من المسلمين فيموت وهو غاش لهم الا وحرّم الله عليه الجنة . وقال : كلّم راع وكلّم مسؤول عن رعيته .

قال تعالى في سورة آل عمران : « فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الامر فإذا عزمت فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين » .

فالحكم الذي ينشده القرءان يتميز بطابع الشفقة والرحمة والعفو مع الشورى والعدالة والمساواة . وقد جسم النبي محمد (ص) الحكم القرآني كما يجب أن يكون ، سواء بالنسبة لشخصه أو لنوع الحكم الذي حكم به .

ولقد كان (ص) مثالا فريدا في الصفء الروحي والتفوق الاخلاقي حتى أستحق ثناء القرءان عليه في قوله تعالى : « وانك لعلی خلق عظیم » . ولولا مكانته الاخلاقية الرائعة لما تجمع عليه العرب ومعظمهم فيه غلظة وجفاء وتعالى وطموح ، فأذابت أخلاقه (ص) من نفوسهم ركاما من الصفات القاسية وحولتها الى صفات انسانية تستوحي من أخلاقه التي هي من أخلاق القرءان .

ومن يصدق أن العربي الجاهلي الاجلف المستبد على أهله وذويه يتحول بين عشية وضحاها الى رجل يخضع للنظام ويستجيب لامر الله ويحكم بالشورى ، وينصف من نفسه ويترفع عن الموبقات . « فيما رحمة من الله ننت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانقضوا من حولك » . نعم لولا كرم خلقه لانقض الناس من حوله .

وجاءت هذه الآية في معرض الكلام عن غزوة أحد ونكباتها وصدماتها، ولا يد للنبي (ص) في كل ما حدث فيها ، فالمسلمون هم الذين تحمسوا للخروج والقتال ، ثم عمل النفاق عمله في صفوف الجيش حتى رجع ثلثه قبل المعركة ، وما بقي ضعف أمره بعد ما شاعت الهزيمة ، وكان الرسول (ص) قد وضع جماعة من الجند في ثغرة وأمرهم بالشبوت في مكانهم فلم يثبتوا وغرتهم الفنائم في أول المعركة فنزلوا من مكانهم حيث هاجمهم العدو من الثغرة التي خلفوها وراءهم ، وخالفوا بذلك أمر نبيهم ، ثم شاع أن النبي (ص) قد قتل فتضعضع الكثيرون للاشاعات وقتل سيد الشهداء حمزة وجرح النبي وكسرت رباعيته ، كل هذه الاهوال لم تثر غضب محمد (ص) الذي ميزه الله بالاخلاق العالوية والصفات الحميدة ، لان رسالته كانت أعظم من أن تدعه ينتقم او يغضب او يثور وهو الذي يعلمهم كيف يسوسون انفسهم ويتغلبون على شهواتهم ويكظمون غيظهم ويؤوبون الى ربهم عند المحن والشدائد والاحداث .

وفي غمرة أحداث أحد المهولة يدعو القرءان النبي (ص) لمشاورة المسلمين ، ولو أن الشورى في هاته القضية لم تات بالمرتجى ، ومع ذلك يجب أن تكون مبدءا اساسيا لا غنى عنه . « فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الامر » .

فالمشورة في الحكم القرآني أمر من الله لا يقبل المجادلة والمراوغة فاما حكم اسلامي شوري واما حكم استبدادي جاهلي .

والقرآن اذ يقرر مبدأ الشورى لا يدخل في التفاصيل الجزئية ويتركها للمسلمين ليسلكوا أنفع طرقها . والقرآن عند ما قرر الشورى قررها كمبدأ عام لنوعية الحكم الذي ينشده ، وخطأ الحكم المطلق خطير اذا قيس بخطأ الشورى ، لو فرضنا انها قد تخطيء لكون خطئها يتحمله الجميع بخلاف خطأ الحكم المطلق . ومصدق هذا هذه الآية نفسها التي جاءت عقب نتائج شوروية .

والقرآن لا يعتبر جزئية خاصة ليقرر حكما عاما وانما يضع تشريعا متكاملا تندمج فيه جميع الجزئيات .

والشورى التي يقرها الاسلام شورى عملية ، ولذلك تعقب الآية على الامر بالشورى بالعزم والعمل لا بمجرد الخطب والاقوال والانتقادات ، « فاذا عزمتم فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين » . فبعد أخذ الرأي وتقليب وجهات النظر واختيار الاصلح لا ينبغي الوقوف عند هذا الحد ، بل يجب تخطيه الى العمل والتنفيذ مع التوكل على الله توكلًا يجب ان لا يجرّد من معناه اقرارًا ، وهو التوكل مع العمل ، أما اذا لم يكن مع عمل فهو مذلة واستسلام .

ويستدل بعض الذين لا يفهمون معنى القرآن من المخرفين على معنى التوكل بحديث : « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقتم كما ترزق الطير تغدو خماسة وتروح بطانة » . على ان معنى التوكل هو الاستسلام لما يسمونه بالاقدار مع أن هذا الحديث يحض على العمل الدائب المتواصل كعمل الطيور التي لا تفتأ طول انهار تبحث عن الرزق فتغدو خماسة وتروح بطانة . وهكذا يجب ان يكون المسلم دائم العمل والبحث عن الرزق مع التوكل على الله الذي لا تخفى عليه خافية .

وفي سورة الشورى : « فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون والذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش واذا ما غضبوا هم يغفرون والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون والذين اذا أصابهم البغي هم ينتصرون وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله انه لا يحب الظالمين ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل انما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الارض بغير الحق أولئك لهم عذاب اليم وامن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الامور » .

فتذكر هذه الآية صفات المؤمنين ومميزاتهم وسماتهم .

والعمل الصالح خير وأبقى ، والمؤمن الحق هو الذي يعمل الصالحات ويتجنب الطالحات .

فمتاع الحياة الدنيا جذاب محبب للنفوس ، ولكن ذلك لا ينبغي ان يجعل النفوس تغفل عن عمل الخير الذي هو عند الله خير وأبقى للذين آمنوا .

والإيمان هو الركيزة الاصلية لكل شيء في القرآن ، وما عداه يبنى عليه .

وهل يقدر الانسان في هذه الحياة ان يعيش مطمئنا بدون إيمان ؟

والإيمان يحمل معاني واسعة ، فلا يقتصر على توحيد الله ، بل يحمل أيضا معنى التجرد عن الشهوات الجامحة والاغراض الفاسدة ويجعل صاحبه يعمل للصالح العام ويأتي الفضائل الخلقية مع نفسه ومع غيره ، لان ضميره الإيماني هو وحده الزاجر له قبل ان يزجره الخوف والقانون والسلطة .

والإيمان يجعل صاحبه عفيفا كريما نقي اليد واللسان وجميع الجوارح عزوفا عن السلوك المنحط في سياسته وعمله ، خاضعا لسلطان الله وحده الذي له العزة في الاولى والآخره ، عاملا مجدا متوكلا على ربه ، مستيقنا انه سبحانه الذي يهدي للطريق السوي ويعين العاملين على عملهم ، لا ينزعج للكوارث ولا تبطره النعمة ولا يهزه الغضب ولا يزعزع الحقد .

ومن مميزات المؤمنين أنهم يجتنبون كبائر الاثم والفواحش ، أما صفاتها فقد تصدر عنهم ، لانهم بشر لا عصمة لهم ، ومن رحمة الله بالمؤمنين انه رحم ضعف انسانياتهم ففتح لهم باب التوبة والغفران مهما أذنبوا .

وهؤلاء المؤمنون اذا غضبوا تغلبوا على غضبهم وعفوا .

والغضب انفعال يصيب جميع الناس ، ولكن الايمان يستطيع ان يطفىء جمره الغضب التي توقد في القلب كما قال (ص) .

وقد كان رسول القراء ان لا يغضب لنفسه قط ، وانما يغضب اذا انتهكت حرمة الله لكون الغضب في الحق غير مذموم .

والانسان القلق الغضوب يعرض جسمه للأمراض الخطيرة القاتلة ، ولذلك قال (ص) : « ألا ان الغضب جمره توقد في القلب ، فاذا غضب أحدكم فالارض الارض » . اي فليجلس اذا كان واقفا او ليتكىء اذا كان جالسا . ومعناه فليعمل شيئا يصرفه عن غضبه .

والرسول الكريم (ص) كان يعلم دواخل النفوس وما يهزها من مشاعر فكان يربي أمته تربية مفيدة جسميا وروحيا .

ومن صفات المؤمنين أنهم يستجيبون لربهم فيمثلون أوامرهم ، ويجتنبون نواهيهم ، ويخضعون لحكمهم ، ويقومون الصلاة ، ويؤدون كل شرائع الله .

وبعد أن وصفت الآية المؤمنين باقامة الصلاة أتبع ذلك بوصفهم الشورى حيث يجعلون أمرهم شورى بينهم مما يدل على أن القراء ان لا يفصل بين العبادة والحكم والعمل .

فاذا كان من صفات المؤمنين أنهم يومنون بالله ويعبدونه ، فمن صفاتهم ايضا أن أمرهم شورى بينهم في حياتهم كلها .

وتتجلى شورى المؤمن واضحة في أسلوب الحكم الذي يحكم به ، اذ كل مسلم يحكم بدون شورى ناقص الايمان ولو حج وصى وصام وزكى ، لكون هذه الآية الكريمة تقرر العبادة بالشورى بدون حاجز لانها جزء من الايمان . والقراء عدو للسيطرة والاستعلاء والتحكم القهري .

والشورى مبدأ أساسي للحكم في القراء ، وعلى المسلمين ان يضعوها في القلب الذي يساير أهداف الاسلام .

وكل عصر يصلح له شكل نظام لا يصلح لزمان آخر . وكيفما كان هذا الشكل فيجب أن يكون مماشياً للشورى في أعم معانيها كما أرادها القرآن وكما طبقها النبي (ص) وخلفاؤه الراشدون من بعده .

ومن صفات المؤمنين في هذه الآية أنهم ينفقون ولا يبخلون ، ويؤدون واجبات الله ويطهرون قلوبهم من البخل والشح .

ومن مميزاتهم أنهم إذا أصابهم البغي وقفوا في وجهه وردوه ولم يستسلموا له تحقيقاً لعدالة الله ودفعاً للعدوان حتى لا ينتشر الشر والبغي ، ويستحب العفو إذا كان فيه اصلاح .

والعفو عند المقدرة سمة خطها رسول القرآن (ص) بالعمل قبل أن تخط نظرياً .

وتقرر الآية في معرض مميزات المؤمنين أن الذي ينتصر بعد ظلمه ويجزىء السيئة بالسيئة بدون تعد لا جناح عليه ، ولكن يجب زجر الظالمين والوقوف في طريقهم وكفهم عن ظلمهم ولو بالقوة لأن الأرض لا تصلح للحياة إلا وفيها عدل . « والله لا يحب الظالمين فهو الذي أنزل القرآن بالحق والميزان ليقوم الناس بالقسط » .

ومن عادة القرآن أن يحض دائماً على الصبر والاعتدال وضبط النفس والسماحة ، ولذلك ختمت هذه الآية بقوله سبحانه : « ولمن صبر وغفر أن ذلك لمن عزم الأمور » .

وفي سورة النحل : « أن الله يامر بالعدل والاحسان وايتساء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً أن الله يعلم ما تفعلون » .

فالعدل أساس في تكوين الحكم الإسلامي بمعناه الواسع البعيد عن كل عصبية أو انحراف . والقرآن أمر بالعدل وأكد مع رسوخ العقيدة ، إذ الذي لا عقيدة له لا يستقيم في عدله الذي يمس حقوق الأفراد والجماعات .

ويريد القرآن عدلا لا يتأثر بهوى في النفس او بعداوة او قرابة او عقيدة او جاه او فقر او غنى .

ولم يأمر القرآن بالعدل وحده بل أمر كذلك بالاحسان حتى يتخفف العدل في بعض الظروف من صرامته وبنوده .

والامر بالاحسان سمة بارزة في تعاليم القرآن ، تلك التعاليم التي تنشد الرحمة والعطف قبل ان تنشد القسوة والجفاف .

والله سبحانه عدل العادلين وأرحم الراحمين ، وليس بين العدل والرحمة تناقض ، فهما مبدآن مقرران ، ولكنهما يحتاجان الى التفهم والوعي حتى يوضع كل منهما في مكانه .

وكمثال على الاحسان تقول الآية : « وأيتاء ذي القربى »

وبعد الامر بالعدل والاحسان تنتقل الآية الكريمة الى النهي عن الفحشاء والمنكر والبغى ، اذ في الفحشاء تجاوز للحد ، وفي المنكر كل ما تمجه الفطرة السليمة وتنكره الشريعة من كل ما فيه فجاجة وانحطاط أخلاقي ومساس بالكرامة الانسانية ، وفي البغى ظلم وتعدي .

وتسير الآية مع المنطق القرآني السليم ، فهي لما أمرت بالعدل والاحسان بهت في نفس الوقت عن الفحش والمنكر والبغى لكونها مخربة للمجتمعات وهاذية للحكومات ومفسدة للعلاقات ومحدث للفتن والانقلابات .

كذلك تامر الآية بالوفاء بالعهد اذا ثبت بالخيار والموافقة . وتنهي عن نقض الايمان المؤكدة التي نشهد الله عليها . ولا يليق بالمسلم ان يخون عهوده وأيمانه ويسلك مسالك اللف والدوران التي هي طريق ضعيف العقيدة مزحج الايمان .

وفي سورة المائدة : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون » .

وهذه الآية تامر المؤمنين بأن يكونوا قوامين بالعدل مع الاقربين والابعدين مع الاصدقاء والاعداء بحيث لا تميل بهم الميولات عن طريق العدل الذي هو منهج القرءان « واياكم أن يحملنكم الثنآن والعداوة عن الميل عن طريق العدل » . وهنا يخلق القرءان في أجواء من سلامة الحكم لا تصل إليها الا النفوس الخيرة الطاهرة .

واين هذه النفوس اليوم ؟

واين عدالة القرءان في الحكم مما يسود عالم اليوم ؟

وفي سورة النساء : « ان الله يامركم ان تؤدوا الامانة الى أهلها واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ان الله نعمًا يعظكم به ان الله كان سميعا بصيرا يا ايها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا » .

ان القرءان ينشد الامانة في كل شيء لينشئ أمة اسلامية نظيفة تتلقى منهج حياتها من قرآنها الذي خط لها طريق السير المستقيم وجنبها الموبقات وأراد لها ان تكون خير أمة اخرجت للناس ، ولن يتحقق ذلك اذا لم يترب المسلم على طاعة الله ورسوله ، واذا لم يكن أمينا مع نفسه ومع غيره ، واذا لم يحكم بالعدل والحق .

والتعبير بالامانة تعبير متسع يبتدىء في شموله من خلافة الله للانسان في الارض الى ان يصل الى أقل الاشياء قيمة .

وكذلك الحكم بالعدل يشمل كل ما وقع فيه حكم بقطع النظر عن قيمته او عن من صدر عليه ، لان القرءان ينظر في التشريعات الحكيمة من ناحيتها الانسانية .

فالامانة والعدل لا يخصان المسلمين مع بعضهم ، وهذا من فضائل تشريع القرءان الذي سما عن التعصب والعنصرية .

والواقع التاريخي يشهد بأن الحكم الاسلامي عند ما يكون اسلاميا حقيقة يكون حكما هادفا نزيها ، ولكنه عند ما لا يكون اسلاميا او اسلاميا بالاسم ينحرف عن الهدف ليتبع امثاله في التعصب والعنصرية والضلال .

وقرن الامانة والعدل في هذه الآية له مدلوله ومعناه ، ولذلك تقول الآية في التعقيب على وجوب أداء الامانات الى أهلها ووجوب الحكم بين الناس بالعدل : « ان الله نعماً يعظكم به » أي نعم ما يعظكم به ويأمركم به من الموعظة الحسنة الهادفة الى تكوين مجتمع نظيف خالي من المظالم والخيانات ، ولا شك ان الخيانة والظلم من ظواهر انحطاط المجتمعات وتأخرها وترأجعها واندحارها .

وما هو الحكم الذي ينشده القرآن هنا ؟

انه الحكم الموافق لكتاب الله وسنة رسوله الحكم الذي لا شطط فيه ولا اعتساف ، الحكم الذي فيه طاعة الله وطاعة رسوله وطاعة أولي الامر الذين ينفذون أوامر الله ورسوله ويستمدون سلطانهم من شريعة الله ، ويعترفون بأن لا حكم الا لله في الصغيرة والكبيرة ، وبذلك يعبرون عن ايمانهم وتمسكهم بالشريعة ومقاصدها .

وصاحب الامر الذي لا ايمان له ، لا يخضع للحق مهما ادعى ، لان الايمان وحده هو الزاجر الداخلي الذي لا يترك الانسان يسير مع هواه فيسحق الحقوق ويفتصب الكلمة ويدوس الرقاب .

وطاعة أولي الامر من طاعة الله ورسوله اذا توفرت فيهم شروط الولاية وخضعوا للشورى وتجردوا من الطواغيت مهما كانت ومن أين أتت، ولم يحملوا الناس فوق طاقتهم ، ولم يجرفوهم الى الغواية ، ولم يستغلوهم بما لا يتفق وشريعة الله .

وفي صحيح البخاري : (أما الطاعة في المعروف) .

السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب او كره ما لم يؤمر بمعصية ، فاذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة . وان وقع اختلاف في شيء فيجب أن يرد الى أصول الشريعة لتقول كلمتها ، وليس لاي مسلم أن يدعي لنفسه التشريع خارجاً عن كتاب الله وسنة رسوله ، والا كان أسلامه مطعوناً وحكمه ظالماً .

وفي سورة هود : « فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا انه بما تعملون بصير ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون » .

وهذه الآية تأمر الرسول (ص) ومن معه من المؤمنين بالاستقامة والتحلي بفضائلها كما جاء بها أنقرءان بدون غلو ، وتنهى عن أنركون الى الظالمين ، مهما كانت سيطرتهن وتطاولهن وتغلبهن .

والركون الى الظالمين والاستجابة لمطالبهن انحراف عن سبيل الله ويفضي الى نقمة الله وعذابه .

ولقد استمر القرءان في كل مناسبة يشجب الظلم والظالمين ، ويعدد مآسي الظلم وما يجره من تخريب وتدمير .

فمن واجب كل مسلم ان لا يساند الحكام الجائرين المستبدين المتعالمين الظالمين ، وبمساندته لهم يدخل في زمرةهم ، ويصبح واحدا منهم ، بل ان من واجب المسلم ان يقاوم الظلمة والظفافة بكل ما يستطيع وأن لا يمكن لهم وان يتخذ من الوسائل حسب مستطاعه وجهده ما ينزلهم به من عليائهم ويطوح بهم .

ومقاومة الظفافة الظالمين يحتاج الى صبر وعمل وكد وثبات وتضحية وجهاد .

ثم تعطي الآية العبرة من الامم الماضية التي عمها الظلم فاستحققت العقاب فتقول : « فلولا كان من القرون من قبلكم اولوا بقية ينهون عن الفساد في الارض الا قليلا فمن انجينا منهم واتبع الذين ظلموا ما اترفوا فيه وكانوا مجرمين وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » .

فهذه الامم التي يتحدث القرءان عنها للعبرة والذكرى لو كانت فيها بقية تنهى عن الفساد وتحارب الجور والظلم ما نزل بها العذاب والدمار ولما اهلكها الله وفيها مصلحون لا يقرون الظلم والفساد . وبوجود القلة الصادقة المخلصة المكافحة التي لا تسكت عن الظلم والفساد ينجي الله المؤمنين ويهلك الظالمين المترفين واتباعهم .

وتوقفنا هنا كلمة اترفوا لتدلنا على أن الحطام هو الاساس الاول في خراب الدمم والضمائر ، وان الحكام يعميهم الترف مع التحكم ليركبوا رؤوسهم ويأتوا كل منكر ويسلطوا على الناس معاولهم ويبتزوا أموالهم

ويسخروا رقابهم ويشتتوا وحدتهم ويمزقوا شملهم حتى يسلم لهم سلطانهم .

وانه لانذار الاهي لا يجمل بالمسلم أن يتجاوزه بدون ان يقف عنده وقفة طويلة فوعد الله حق ، وان تأخر تنفيذه بعض الوقت انوقت ليملي للظالمين حتى يرتعوا في مكرهم .

وينزل سبحانه عقابه على الظالمين في صور شتى ، أما بالدمار والخراب وأما بالنقص في الارزاق ، وأما بتسليط الوباء . « فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب اليم » . والقراء لا يقر حكم الفوغاء ولا حكم المتعصبين . ويريد حكما فيه صلاح للمخلوقين ، والصلاح لا بد له من الراي السديد ، والحكمة التي تنبع من أهل الفضل والعلم والتقوى . ويقول القراء انبي الاسلام (ص) : « وأن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله ان يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون » . ثم يقول : « وما يتبع أكثرهم الا ظنا ان الظن لا يغني من الحق شيئا » .

ونستطيع من تتبع نصوص القراء ان نعرف من هم أهل الراي والشورى بصفاتهم ومميزاتهم . ونذكر ان أهل الشورى والراي ليس كل من دب وهب .

ولا يغفل القراء جانب العلم والمعرفة وهو يفضل هذا الجانب ويرفع من شأنه فيقول : « قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ . يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات . وما يعقلها الا العالمون » .

ويكشف لنا القراء جانب الشر في الحكم وأهله فيقول عن بني اسرائيل : « كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون » . والنهي عن المنكر واجب مؤكد في الاسلام .

وتبعة الحكم الفاسد لا تحيق بالحاكم وحده بل فسادة يتسرب للجماعة المسلمة ويدخل للبيوت . فما على المسلمين الا ان يقاوموا الفساد ليلا يصدق عليهم ما صدق على بني اسرائيل الذين وصفهم القراء بكل خزي في عدة آيات بيئات .

والتعاون في الحكم ميزة اسلامية بارزة تقوم عايتها أدلة وشواهد لا تكاد تحصى ، ومهما اختل هذا التعاون الا ويختل الحكم ويتردى ، ولم يصب المسلمون الا من بعض حكاهم الذين يسدون آذانهم عن سماع ما يمليه القراء في الحكم وما يوجبه من التعاون بين الحاكمين والمحكومين .

المال

المال من ركائز الدولة وعصبها الدافع ، والاقتصاد المزدهر من علامات التقدم والرقى والتفتح والانطلاق ، وفقر الدولة دليل على تأخرها واندحارها وانحطاط مستوى المعيشة فيها . والجماهير تتأثر بغنى الدولة وفقرها ، كما ان الدولة تتأثر بغنى مواطنيها وفقرهم .

والاسلام لا يمنع الناس من أن يجمعوا المال بالطرق الشريفة المشروعة ، ولكنه يمنع الشره والاحتيال . واراقة ماء الوجه بالطلب ، محذور الا عند الحاجة القصوى .

وليس شرف الشخص من وجهة النظر الاسلامية بكثرة المال ، وانما الشرف بالقناعة بعد بذل المستطاع . وما قيمة المال اذا كان وسيلة للائم والعصيان ؟

والمال في القرءان مال الله يتصرف فيه خلقه على أنه وديعة عندهم فيجب عليهم أن يحسنوا التصرف في أوديعة بالانفاق في الجهات المقررة بدون اسراف ولا تبذير .

والمال نعمة تستحق الشكر بالانفاق في وجوه الخير والاحسان والبر . ومن حسن الانفاق ما ينقذه المرء على أهله وأولاده والاقربين اليه .

والزكاة ليست انفاقا خيريا ، وانما هي واجب ، اذا لم يؤده المسلم لا يكون اسلامه قويا .

قال تعالى في سورة البقرة : « يا ايها الذين آمنوا انفقوا من طيبات ما كسبتم ومما اخرجنا لكم من الارض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بأخذيه الا ان تغمضوا فيه وأعلموا ان الله غني حميد ، الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم » .

فيريد القراءان من المنفق ان ينفق من طيب ماله لا من رديئه ، ولا يقبل الله صدقة تعطى مما تعافه نفس المتصدق .

وفي آية آل عمران : « لن تنال البر حتى تنفقوا مما تحبون » .

والله غني عن بذل الخبيث .

وفي الناس نوع لا ينفق من ماله خشية الفقر ، والى هذا النوع توجه الآية بارشادها وتعد ذلك من نزوات الشيطان ووساوسه .

ويريد القراءان من المسلم ان يتخلق في بذله بسمو وعفة ونبل فيقول : « أن تبدو الصدقات فنعما هي وان تخفوها وتوتوها الفقراء فهو خير لكم » .

وفي سورة التوبة : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لانفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » .

بعد ما تحدثت هذه السورة عن اليهود والنصارى وكفرهم واتخاذهم احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله ، هؤلاء الاحبار والرهبان الذين ياكلون اموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله ويقبلون ان يكونوا اربابا من دونه ويضعون تشريعات كاذبة ويحلون الحرام ويحرمون الحلال مقابل المال والمتاع . وتحدث عن مواقفهم الجارحة للاسلام وتحذر المسلمين منهم ومن مكائدهم التي لا تنقطع ، وتشكل وتنوع ، ثم تأتي هذه الآية الكريمة لتصور مال الكانزين للمال الذين لا ينفقونه في سبيل الله .

وهذه الآية وان وردت في سياق الحديث عن الاحبار والرهبان فهي بمعناها نعم كل مسلم فيه من الاوصاف مثل ما فيهم ، لكون الاسلام لا يقر احتكار المال على حساب الناس .

وقد فهم بعض الصحابة كأبي ذر الغفاري من هذه الآية تحريم اكتناز المال فثار عليه المتمولون ونكلوا به .

وقال عمر بن الخطاب : لو استقبلت من أمري ما استدبرت لآخذت فضول أغنيائكم ورددتها على فقرائكم .

وفي سورة البقرة : « يسألونك ما ينفقون قل ما أنفقتم من خير فلولالدين والاقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل ، وما تفعلوا من خير فان الله به عليم » .

فيريد القراء أن للمسلم أن لا يكون بخيلا شحيحا لا مع نفسه ولا مع الناس .

ويعتبر القراء أن الانفاق في سبيل الله ضرورة لازمة للحفاظ على المجتمع الاسلامي .

وبالانفاق يتضامن المجتمع الاسلامي ويتكامل ويتطهر من الحقد والظفينة والشعور بالاضطهاد .

وينفق المسلم من ماله على اقاربه الملتصقين به ثم على غيرهم من اليتامى والمساكين وابن السبيل من كل من يظن بهم الفقر والاحتياج . وسبيل الله باب متسع للانفاق .

ومن تفسير الآية ما روى عن جابر أن رسول الله (ص) قال لرجل : ابدأ بنفسك فتصدق عليها فان فضل شيء فلاهلك فان فضل شيء عن أهلك فلذي قرابتك ، فان فضل عن ذي قرابتك شيء فهكذا وهكذا .

ولا يقبل الاسلام أن يتربى الناس على التسول والأتكال ، ويريد من المسلم أن يكون انسان عمل وجد وكد ، لان المعتمد على غيره ، وهو قادر على العمل انسان ساقط النفس مخرب الضمير .

وفي الحديث الشريف : اليد العليا خير من اليد السفلى .

والانسان المحتاج الذي لا يسأل هو أولى بالعطاء من اولئك الملحّين الذين يجوبون الشوارع ويحاصرون الجمهور في الاسواق .

واليتيم المعوز أولى بالعطاء وأحق بالرحمة والعطف الى ان يصبح قادرا على العمل والكسب .

وكذلك يعطي ابن السبيل حتى يصل الى أهله وبولده ولو كان غنيا بها .

وروى عن جابر قال : جاء رجل بمثل بيضة من ذهب فقال يا رسول الله أصبت هذه من معدن فخذها فهي صدقة ما أملك غيرها فأعرض عنه رسول الله (ص) ثم أتاه من قبل ركنه الايمن فقال مثل ذلك فأعرض عنه ، فأتاه من ركنه الايسر فقال مثل ذلك فأعرض عنه ، ثم أتاه من خلفه فقال مثل ذلك ، فأخذها (ص) فخذفه بها ، فلو أصابته لأوجعته وقال : يأتي أحدكم بما يملك فيقول : هذه صدقة ثم يقعد يتكفف الناس ، خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى .

وفي سورة البقرة أيضا : « ويسألونك ما ذا ينفقون قل العفو » .

والعفو الفضل والزيادة ، أما ان ينفق الانسان ما هو في حاجة ماسة اليه ثم يبقى معرضا للاخطار فذلك انفاق مرفوض .

والانفاق في هذه الآية هو غير الزكاة ، لان الزكاة واجبة لا تطوع ، والتطوع ما زاد عن الزكاة .

وتقول الآية : « للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضربا في الارض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ، تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس الحافا » .

فهذه الطائفة المعوزة من المهاجرين الذين تركوا أموالهم بمكة وأقاموا بالمدينة يعملون في سبيل الله هم أولى بالعطاء .

والآية عامة في معناها فهي تشمل كل معوز يربو بنفسه من ذلة السؤال ، ولا يجد طريقا للكسب والعمل ، ويحاول أن يخفي حاجته ، فهو أولى بالعطاء لكونه كريما في نفسه ، حكمت عليه ظروف قاهرة بالعوز لم يقدر على التخلص منها ، ولو وجد وسيلة للتخلص منها لاتاها ، وهي صفة من صفات المسلم الصادق .

روي عن أبي هريرة (ض) قل ، قال رسول الله (ص) : ليس المسكين الذي ترده التمرة والتمرتان ولا اللقمة واللقمتان ، إنما المسكين الذي يتعفف .

وفي سورة البقرة : « الذين ياكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره الى الله ومن عاد فاولئك أصحاب النار هم فيها خالدون يحق لله الربا ويربي الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم » .

فالنظام المالي في القرآن يحرم الربا تحريما باتا لا هوادة فيه ، لما فيه من الدنس والسقوط والاثرة والقذارة .

وجاء تحريم القرآن للربا بعد ما كان التعامل به شائعا ذائعا في الجاهلية بكل مفسدها وآثامها وشرورها .

والواقع يشهد بأن الربا مظهر كالح من مظاهر الاستعمار والاستغلال، والصهيونية العالمية تتخذ من الربا تجارة تستعبد بها الناس وتخرب ضمائرهم فتسيطر عليهم .

وان الدول الرأسمالية في عالم اليوم قد وقعت تحت تأثير الصهيونية التي جعلت المادة الالهة معبودا .

والقرآن لا يقر من المعاملات الا ما كان موافقا لآخلاقه ، بعيدا عن استنزاف الناس ، وحتى لا يبقى المال دولة بين الاغنياء .

والقرآن عند ما يحرم الربا يفتح أبواب المعاملات ولا يقيدھا الا بقيود العدل والحق والانصاف ، فللفرد المسلم ان يكتسب المال ، ولكن ليس له ان يحتكره أو يسيء به أو يتخذ منه طريقا لاذلال الرقاب .

ولقد اعتاد الاستعمار الرأسمالي والصهيونية أن يجعلوا من المال وسيلة لهدم أخلاق الأفراد والجماعات ولتكوين هيئة محتكرة من المراهبين تقوم على النهب والفسخ والسرقه والخداع .

وقد أصبح المراهبون اليوم لا يداينون الافراد والجماعات فحسب بل تخطوا ذلك الى مراباة الدول والحكومات ليسيطروا على أرزاق الشعوب بقانون الربا والفساد .

وويل لشعب يسيطر عليه المراهبون في رزقه وحكمه ، وويل للانسانية من هذا الاضطوط الذي نصب شراره عليها واذاغ بين البشرية الشرور والحروب والرعب والجشع والخسة والدمار ، وسيطر على وسائل الاعلام ليضلل العقول والافهام .

والبشرية اليوم بعد أن وقعت في قبضة المراهبين العالميين أخذت تتململ عليها تجد مخرجا من قبضتهم الحديدية ، ولكن ذلك يحتاج الى كفاح وجهاد وصبر وأناة .

وقد ظهرت دراسات علمية جادة تبين أخطار الربا ، وتحاول ان تفتح الافهام لتدرك شروره وآثامه .

ويصور القراءن الآكلين للربا تصويرا مخوفا مرهبا ، فهم لا يقومون الا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ، لكونهم أشبه ما يكون بالمصروعين والمحمومين الذين ملك الربا عليهم كل مشاعرهم وسد في وجوهم كل أبواب الخير والمنفعة لغيرهم .

والربا الذي نزلت فيه الآية وصورته بهذه الصورة البشعة الفظيعة هو الربا الذي كان معروفا في الجاهلية وهو الذي يعرف في كتب الفقه بربا الفضل والنسيئة .

وحاول المعترضون على عهد نزول القراءن ممن كانوا يعيشون على الربا أن يدعوا بأن الربا بيع ، ولكن القراءن رد عليهم حينما أعلن : « وأحل الله البيع وحرم الربا » . والمراهبي لا يبدي جهدا ولا يتحمل خسارة .

ثم يخاطب الله المؤمنين خطاباً محذراً من الوقوع في اثم الربا فيقول: « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا ان كنتم مؤمنين ، فان لم تفعلوا فاذنوا بحرب من الله ورسوله وأن تبتم فلکم رؤوس أموالکم لا تظلمون ولا تظلمون » . وهو تهديد من الله للمرابين كي يقلعوا عن التعامل بالربا والا فليأذنوا بحرب من الله ورسوله .

ومن يقدر على تحمل غضب الله في حربه . وهل في مقدور الانسان المغرور ان يتحمل حرب الله في أي شكل من أشكالها ؟

وقد يتخيل أن الدول الرأسمالية المتعاملة بالربا تعيش في سعادة وهناء ، ولكن الواقع ان الشعوب التي تعيش في ظل الربا لا تسعد ، وأن اصحاب الربا ولو كدسوا من الملايين والملايير المنزعة من عرق الناس لا يعيشون في طمأنينة نفسية وهناء ، وانما يعيشون على أعصابهم واختلال أمزجتهم .

والدول الربوية تجمع بين اغنياء مرضى بالتخمة لهم نفوس خربة وشهوات مستيقظة وضمائر منحلة وبين أشقياء يعيشون في المعامل والمصانع والشوارع ويتجرعون التشرد والضنك والبؤس وتسترهم واجهة الترف المزيف ؛ زيادة على ما يكثُر في هذه المجتمعات من انحطاط خلقي مزرع ومن جرائم متصاعدة .

ويهم المرابين ان تشتعل الحروب الساخنة كي يستفيدوا منها ويحولوا ميزان القوى العالمية الى جانب مصالحهم الربوية الدنيئة .

روى مسلم وأحمد عن جابر بن عبد الله (ض) أنه قال : لعن رسول الله (ص) آكل الربا وموكله وشاهديه وكاتبه ، وقال : هم سواء .

ويرى القراءان الكريم ان المدين اذا عجز عن أداء الدين فليست الوسيلة الوحيدة هي أن يؤخر له الاجل بالربا وانما أن يرحم بالانظار الى ميسرة . وهذه هي السماحة الاسلامية في قمتها حتى لا يتخذ من الدين وسيلة للاستغلال ، ولذلك يقول القراءان : « وأن كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم ان كنتم تعلمون واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون » .

وتدعو الآية صاحب الدين للتصدق بدينه على المعسر ان أمكن تطوعا وخيرا . كما جعلت آية مصاريف الزكاة مصرفا خاصا بالمدينين يستفيدون منه لاداء ديونهم اذا كانوا قد تحملوها من أجل مصلحة شرعية ، ثم عجزوا عن الاداء .

ويقول القرءان في سورة آل عمران : « يا أيها الذين آمنوا لا تاكلوا الربا أضعافا مضاعفة » .

وهذه الآية تصف واقعا كان موجودا ، وليس المراد بها أن المحرم من الربا ما كانت فيه الاضعاف المضاعفة لكون الربا محرما من اصله .

وفي سورة الحشر : « وما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فله والمرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وأبن السبيل كي لا يكون دولة بين الاغنياء منكم » .

فيقرر القرءان في هذه الآية حكم الفء فيما لم يتحمل المسلمون فيه قتالا وهي تتحدث عن الفء الذي خلفه بنو النضير وراءهم ، ولكن الحكم لا يخص هذه الحادثة جريا مع القاعدة المقررة من أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

وتشتمل هذه الآية على قاعدة هامة تتعلق بالنظرة القرآنية الى الاموال ونظامها اقتصاديا واجتماعيا .

وتقيد هذه الآية الملكية بأن لا تكون دولة بين الاغنياء يتداولونها بينهم دون الفقراء مما يوجد طبقة من الرأسماليين الشرهين . وعلى هذه القاعدة يجب أن يبنى النظام المالي في الاسلام .

وبهذه الآية الكريمة وآيات أخرى نستطيع أن نستخرج نظاما ماليا اسلاميا بعيدا عن الاستغلال ، يوزع الثروة ولا يتركها تتراكم في يد واحدة .

ان الاسلام لا يقبل الاحتكار في أي صورة من صورته لكونه ينافي نظامه المالي المبني على العدالة الاقتصادية ، كما لا يقبل الربا لكونه يمتص أموال الناس ظلما وتعديا .

والدول الرأسمالية العالمية كأمريكا يقوم نظامها على الربا والاحتكار حتى أصبح المال فيها دولة بين الاغنياء ، وبذلك سيطر أصحاب رؤوس الاموال من النصهاينة على أمريكا ، ففدت الدولة كلها تحت رحمة المال المتداول بين طبقة محدودة .

اليس في هذه الآية عمق في التوجيه ؟

ان المال يجعل الانسان يطفى كما تقول آية سورة العلق : « كلا ان الانسان ليطغى ان رآه استغنى » .

فهو يطفى ويتكبر ويأتي المنكرات ، لانه يرى نفسه قد استغنى عن غيره بكثرة ماله .

وتقول آية سورة النحل : « والله فضل بعضكم على بعض في الرزق فما الذين فضلوا برادي رزقهم على ما ملكت أيماهم فهم فيه سواء أفبنعمة الله يجحدون » .

فاذا كان البعض يستطيع بمواهبه ان يجمع المال وينميهِ ، والبعض الآخر ليست له مواهب جمع المال ، او كان البعض يعمل ويكد ، والبعض يتكاسل ويخمل ، فان القرءان في كل الاحوال لا يسمح بتكديس الاموال واستغلال الرقاب بها ، وان كان الناس يتفاضلون في الرزق .

والقرءان في عدة آيات يقرر حقوق الفقراء في أموال الاغنياء ، ولا يسمح بالحبث بالاموال .

فالمه فضل في الرزق ولكنه اوجب ان يعطي الفقير ويعتنى به .
وصاحب المال يدخله البطر بالنعمة ولا يستجيب لامر الله في المال ويجود بالانزr أليسير أحيانا ويبخل أحيانا أخرى .

وقد كانوا في الجاهلية يعزلون جزء من المال ويجعلونه لآلهتهم ، ولا يردون من أموالهم على رقيقهم ليتساوى معهم في الرزق ، فما بالهم يردون جزء من أموالهم على آلهتهم ويتركون الذين كان يجب عليهم ان يردوا عليهم من أموالهم .

أفبنعمة الله يجحدون ؟ فيكفرون ولا يشكرون نعم الله عليهم .

نماذج من أخلاق القرآن

كل ما يرفع من شأن الإنسان ويبعده عن النذالة والرذيلة والسقوط فهو فضيلة في نظر القرآن ، الذي ينهى عن التعاطف والظلم ويمقت المس بالحقوق .

« ونجد القرآن يحظ على البر باليتيم والمسكين والاسير فيقول : « يطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا » .

ويقول : « فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر » لكون هاتيه الفئات من الناس ضعيفة وتستحق ائعناية والرعاية .

ويسمو القرآن بالإنسان عن أن يسقط عن درجته الإنسانية الرفيعة ويوصيه بالصبر عند المصيبة ، وبالصدق في القول والعمل ، وبالعدل والاحسان وبالغفو والرحمة ، ويفتح له باب الامل الذي هو مصدر الاستقرار النفسي ويجنبه اليأس والقفنوط ، أذ لا يئأس من روح الله الا القوم الكافرون .

والآداب القرآنية مليئة بالمودة والتعاطف والمحبة وبمثل هاتيه الاخلاق ساد الاسلام وارتفع شأن القرآن عند الامم والشعوب .

وبفضل أخلاق القرآن استطاع النبي محمد (ص) أن ياخذ بيد اجلاف العرب ليخرجهم من ترديمهم وتشاكسهم وتقاعسهم ليجعل منهم خير أمة اخرجت للناس .

ولولا أخلاق القرآن لما كان للامة العربية شأن يذكر في التاريخ .

قال تعالى : « واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين » .

وقال : « وقولوا للناس حسنا » .

وقال : « أن الله لا يحب كل مختال فخور » .

وقال : « أن الله لا يحب المعتدين » .

وإذا تحدث القرآن عن صفات الله يتحدث عنها لنستمسك بمعانيها الرحيمة ، ونحذر من معاني الصفات الدالة على البطش والجبروت ، فهو سبحانه الودود وهو الجبار وهو الغفور الرحيم وهو شديد العقاب الى آخر الصفات التي تملأ آيات القرآن .

فصفات الله التي اتصف بها في اسمائه الحسنی عرضت في القرآن لتندبر معانيها ونسترشد بمحامدها ، ونحذر وعيدها أن نحن عصينا وسلطنا السلوك الذي لا يرضاه القرآن المعبر الامين عن وحي رب العالمين .

ولننقل بعض الآيات البينات من القرآن الكريم لزيادة توضيح أخلاق القرآن قال تعالى : « وبالوالدين أحسانا أما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا » .

« ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة وساء سبيلا ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق » .

« ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده ، وأوفوا بالعهد ان العهد كان مسؤولا وأوفوا الكيل اذا كتمت وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلا ، ولا تقف ما ليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاداد ، كل أولئك كان عنه مسؤولا ، ولا تمش في الارض مرحا انك لن تخرق الارض ولن تبلغ الجبال طولا ، كل ذلك كان بفئة عند ربك مكسوها » .

« فاجتنبوا الرجس من الاوثان واجتنبوا قول الزور » .

« وان الظالمين لفي شقاق بعيد » .

« يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبا فتبينوا ان تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » .

« يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن أن بعض الظن اثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا » .

« والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وأثماً مبیناً » .

« ولا تاكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتاكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون » .

« اتامرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون » .

« وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم إن الشيطان كان للإنسان عدوا مبيناً » .

« ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم » .

« خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » .
« قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني حليم » .

« ان احسنتم احسنتم لانفسكم وان اساتم فلها » .

« ولا تصاعر خدك للناس ولا تمش في الارض مرحا ان الله لا يحب كل مختال فخور وأقصم في مشيك وأغضض من صوتك ان انكر الاصوات لصوت الحمير » .

« يا أيها الذين آمنوا اذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم واذا قيل انشزوا فانشزوا يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » .

« يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون فان لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم والله يعلم ما تبدون وما تكتمون » .

« فاذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون » ..

« ولا تقولن لشيء أني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله واذكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهدينني ربي لأقرب من هذا رشدا » .

« ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا » .

« يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم باليمن والأذى » .

« لن تنال البر حتى تنفقوا مما تحبون » .

« ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خير لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ولله ميراث السماوات والأرض والله بما تعملون خبير » .

« وثيابك فطهر » .

« قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون وقل للمؤمنات يغضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن » .

« ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالرحمة » .

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » .

« ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين » .

« إنما المؤمنون أخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون » .

« إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير » .

رسالة الأمة الإسلامية

هي رسالة خالدة يجب أن تستمر وتسير لانقاذ البشرية مما آلت اليه .

والمسلمون قد تخلوا عن واجبه المقدس في العمل والبعث بما حل بهم من كوارث وأهوال .

والقرءان لا زال يتلى بين المسلمين ، فلا ينبغي ان يبقى مجرد كتاب مشلول ، بل يجب ان يأخذ مكانته في العمل والبعث والتطبيق حتى يأخذ المسلمون مكانتهم بين أمم الارض كافة .

ويقول القرءان في سورة البقرة : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » .

ولا تكون الأمة الإسلامية أمة وسطا تشهد على الناس الا اذا بعثت بعثة جديدة ملائمة لاهداف الاسلام وتصوراته وأقامت موازين الحكم على العدل والقسطاس والشورى والمساواة واقتحمت ميادين العلم والمعرفة ، ورجعت الى ايمانها تستنجد به فيما حل بها من اندحار وخمول ، وقارنت بين أسباب عزتها في الماضي وأسباب تفهقها في الحاضر والا لما استطاعت ان تؤدي رسالتها التي اناطها بها القرءان الكريم .

وتعبير القرءان عن الأمة الإسلامية بكونها أمة وسطا له دلالات سامية بالنسبة لأمة الاسلام ، فهي وسط باعتبار مركزها الجغرافي وباعتبار تفكيرها واعتدالها وتصوراتها وتشريعاتها وزمانها ، فهي أمة لا تغلو في الجانب الروحي ، كما لا تغلو في الجانب المادي .

وفي سورة البقرة : « كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون » .

فرسول القرءان ليس الا بشرأ هاديا للناس يتلو فيهم آيات الله البينات ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم .

ولن يؤدي المسلمون رسالتهم على وجهها الا اذا ذكروا ربهم واستحضروا بطشه وعفوه ، وهو سبحانه يتفضل عليهم بأنهم اذا ذكروه ذكرهم في ملا خير من ملئهم ، وان شكروه زادهم من نعمه عليهم .

ورسالة المسلمين اليوم شاقة وعسيرة وتحتاج الى مزيد من الصبر والثبات والمجاهدة ، والله سبحانه لا يتخلى عن العاملين الصابرين .

قال رسول الله (ص) : المسلم الذي يخالط الناس ويصبر على اذاهم خير من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على اذاهم .

ولا يظن المسلم انه بمجرد اسلامه سيحقق الانتصارات ، لان الاسلام يقر نوايس الكون ، فلا بد من النصر والهزيمة ، ولا بد من التجربة القاسية التي يتميز بها الخبيث من الطيب . وفي سورة البقرة : « ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الاموال والانفس والثمرات » . والصمود من سمات العظماء ، والتجربة محك الامتحان . فلا بد من البلوى والصبر عليها ، والكفاح في ظلها هو المظهر الاسما لعظمة المسلم وجلده وصبره وصموده ، وبعد ذلك لا بد ان ينتصر ويسمو .

وبالامتحان تفصل النفوس من الشوائب والادران وتستقيم على الحق والهدى . وفي سورة آل عمران : « لتبلون في اموالكم وانفسكم ولتسمعن من الذين اوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين اشرکوا اذى كثيرا وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الامور » .

فكل دعوة لا بد لاصحابها من البلوى والصبر والنضال ، ولا بد ان يؤدي اصحابها ولو كانوا رسلا امتحانا لصبرهم بوصمودهم وعزمهم ، ثم تكون العاقبة نصرا وظهورا والله لا يخلف الميعاد .

واصحاب الدعوة الصادقة والايمان الراسخ لا يتراجعون ولا ينكفئون مهما صادفوا من عقبات ، وقد صادفت الدعوة الاسلامية منذ ظهورها عقبات وعقبات ، ومع ذلك صمد رسولها واصحابه من بعده صمودا مثاليا رائعا الى ان تحقق النصر بعون من الله الذي وعدهم بالنصر والتأييد .

قال تعالى في سورة النحل : « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي احسن ان ربك هو اعلم بمن ظل عن سبيله وهو اعلم بالمهتدين وان عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين واصبر وما صبرك الا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » .

لقد كان النبي (ص) يناضل طوائف شرسة من الكفرة والمنافقين والجاحدين ويلاقي منهم العنت والنكوص ، ويوصيه القرآن بأن تكون دعوته عن طريق الحكمة ، والموعظة والمجادلة والتي هي أحسن ، وهي طريقة ناجحة وسليمة ، ولكنها تحتاج للمثابرة والصبر وتحمل الاذى . وكل صاحب دعوة لم يتسلح بالايمن والصبر والثبات لا يمكن أن يحقق نصرا .

وبالموعظة الحسنة يستطيع الداعية أن يدخل الى القلوب لتعبي ، وإلى العقول لتدرك .

وبالتفاضي عن الجفاء يستطيع الداعية أن يخترق الحواجز والسدود ليربط القلوب ببعضها ويكون منها عصبه قوية لا تهين ولا تخور .

وبالجدل والتي هي أحسن يستطيع الداعية أن يفكك التحجر عن القلوب الصلد وأن يسمح الصدا عن العقول الصم .

والاسلام الذي يقوم على الاخوة الانسانية يخط مسلك الدعوة بدون تجاوز لكونه دين العدل والسلام والاعتدال . فان عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتهم به . فلا تقبلوا الضيم والمذلة والانتكاس ، ولكن العفو عند المقدرة من شيم الدعوة الاسلامية ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين .

والصبر من الصفات المميزة للدعاة المسلمين العافين عن الناس ، فإذا كان في الصبر ما يفيد الدعوة فليكن الصبر ، ولكن في بعض الظروف قد يكون في الصبر والعفو ضرر بالدعوة وأهدأفها ، وحينئذ فيلعل الحديد بالحديد .

وفي سورة الاعراف : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين وأما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه سميع عليم » .

ان تربية الرسول محمد (ص) هي من قبس القرآن الذي أثنى على أخلاقه (ص) في قوله : وأنتك لعلى خلق عظيم ، فكان يواجهه في دعوته جماعات مختلفة من يهود ومشركين ومنافقين ، فلو لم يكن مسلحا بالصبر والاناة والفضائل الرفيعة لما استطاع أن يهدي الكثيرين منهم الى الاسلام حتى أصبحوا بعد عنادهم من دعاة الاسلام وقواده العظام .

فالجاهلية اذا قولت بجاهلية كشرت عن أنيابها لتصطدم بخصيمتها ولكن أخلاق الاسلام ليست من فصيلة الأخلاق الجاهلية ولذلك استطاعت بفضل ليونتها وصبرها وتحملها تقليل أظافر الجاهلية شيئا فشيئا الى أن

هزمتها هزيمة ماحقة وأحلت محلها مبادئ تتسم بالسمو والرفعة والمحبة والأخوة والتسامح .

وكان صاحب الدعوة (ص) لا يجادل إلا بالشي هي أحسن كما أمره القرآن ، ويعرض عن الجاهلية وتعصبها وعنادها . والمراد بالعفو المأمور به في الآية ، الأخذ باليسر من أخلاق الناس عند معاشرتهم ، والعفو عن أخطائهم ونقائصهم .

وكان (ص) لا يغضب لنفسه إلا أن تنتهك حرمانات الله فيغضب لانتهاكها ، وقد أمره الله بأن يامر بالعرف وهو الخير ، وأن يعرض عن الجاهلين الفاوين الذين لا يميزون بين الخير والشر . ومجادلة الجاهلين وهم متمسكون بجاهليتهم الرعناء مضيعة للوقت وقد تؤدي إلى تقولهم بالفحش والامعان في الكفر .

والجاهلي في الآية ليس هو الجاهل الذي لا يميز بين الحق والباطل لركود عقله ، بل يشمل ما هو أعم من ذلك من كل من يتسم بالجفوة والانحراف عن الحق والامعان في الضلال والباطل ولو كان له جانب من المعرفة .

وواقع الحياة يشهد بأن من الناس من يملك من الثقافة أعلاها ، ومع ذلك تجده منطويا على الجاهلية بكل ما فيها من شرور فيرتشي ويسرق ويفسق ويأتي جميع المنكرات .

ولما كان رسول الإسلام بشرا ، والبشر قد ينفذ صبره إذا تعرض للضغط والارهاق فيثور ويغضب ، أمره القرآن عند الضيق والخرج أن يرجع إلى ربه ويستعيز به من نزغات الشيطان .

ويقول النبي (ص) : أن الغضب جمرة توقد في القلب . ولا يتغلب على غضبه إلا أعظم الرجال .

وتقول سورة العنكبوت : « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون » .

وهذا من دعوة القرآن الرشيدة العفيفة المسالمة المتميزة عن غيرها من الدعوات التي سبقتها ، وهي دعوة تقوم على الخير والإصلاح وتسلك مسلك المجادلة بالحسنى .

«ودعوة القرءان التوحيدية تتفق مع جميع الدعوات التي سبقناها ،
ولذلك يريد القرءان ان يجادل أهل الكتاب مجادلة خاصة لكونهم أهل
كتاب .

ثم تقول السورة بعد ذلك : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا
وان الله لمع المحسنين » .

ان المكر لا يترك الدعوة تسيير في طريقها بالتى هي احسن بل يصدها
مما يدعو الى رد العدوان وزجره ، وقد وعد الله المجاهدين في سبيل
دعوته ان يصل بهم ان اخلصوا وصبروا الى النصر وان يهديهم الى اقوم
السبل وان يجازيهم على اعمالهم بالحسنى .

ودعوة الاسلام تعتبر المسلمين امة واحدة وجماعة واحدة لا تفصلها
حدود لكون العقيدة هي الرابط الاسما الذي يربط بين جميع المسلمين ،
وقد حدث ان تفككت هذه الرابطة ، اذ ما كاد عهد الخلافة الراشدية
ينقضي حتى عملت الدسائس على تشتيت وحدة المسلمين ، وما زال
المسلمون الى اليوم لم ينتبهوا جيدا الى ما يحيط بهم من اخطار ان لم
يتحدوا ويتعظوا بما حدث لهم في تاريخهم الطويل من أحداث جسام
هدت اركانهم وطوحت بهم في مجاهل من الكسل والتراجع والخمول .

وجاء في سورة آل عمران : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا
واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم اعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته
اخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذاك يبين الله لكم
آياته لعلكم تهتدون ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف
وينهون عن المنكر واولئك هم المفلحون ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا
من بعد ما جاءهم البينات واولئك لهم عذاب عظيم » .

فالقرءان يبني الوحدة الاسلامية على الاخوة التي يجب ان تكون
متبادلة بين جميع المسلمين ، وهي وحدة لا يمكن ان تبنى الا على التقوى
والايمان دون أي تجمع آخر لا يتوافق مع حبل الله المتين ، هذا الحبل
الذي استطاع ان يوحد العرب بعد تشتتهم ، ثم استطاع ان يوحد بين
مجموعات مختلفة من البشر لم يكن يربط بينها رابط ، بحيث اضمحلت
كل الفروق الجنسية والعنصرية واللونية واللغوية .

وهذه الوحدة جمعت المسلمين حتى كونوا قوة مهابة .

فهل يعتبر المسلمون نداء الله ويراجعوا انفسهم ليعودوا الى وحدتهم التي امرهم بها دينهم ويهدموا الحواجز المصطنعة التي تفصل بينهم ، اذ لا حدود بين دول الاسلام لكون ارض الاسلام هي لجميع المسلمين .
فمتى تزول هذه الحدود ؟

ويريد القراءان من المسلمين المتحدين ان يكونوا دعاة خير واصلاح بين انفسهم وبين الناس ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات .

ولا يسمح بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر لكل فوضوي يريد ان يستغل المشاعر لاشعال الفتن وايقاظ الفرائز ونشر الضلال .

واذا كان المسلمون خیر امة اخرجت للناس فيجب ان يكونوا في هذا المستوى ، وان يرتفعوا عن الضعة والجهالة والضعف والخمول ليتمكنهم ان يحققوا الرسالة التي اناطها الله بهم وجعلهم من دعائها .

ومما يبين ان الامر بالمعروف والنهي عن المنكر من واجبات كل مسلم ما رواه مسلم عن أبي سعيد الخدري قال : سمعت رسول الله (ص) يقول :
من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وذلك اضعف الايمان .

ونرى في هذا الحديث ان التغيير بالقلب من اضعف الدرجات لكونه مجرد تأثر وانفعال ، وأن الدرجة الاولى هي التغيير باليد عند القدرة وبينهما درجة بوسطى وهي التغيير عن طريق القول والكتابة .

وروى الترمذي عن أبي سعيد ايضاً ، قال ، قال رسول الله (ص) : ان من اعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر .

يقول المؤرخ الانجليزي مونتجومري وات في كتابه (الاسلام والجماعة المتحدة) : « وقد تفرد الاسلام بخلق هذه الوحدة بين أتباعه فاشتملت

أمتة على أقوام من العرب والفرس والهنود والصينيين والمغول والبربر
والسود والبيض على تباعد الاقطار وتفاوت المصالح .

ويقول الله تعالى في سورة الحجرات : « وإن طائفتان من المؤمنين
أقتتلا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي
حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله
يحب المقسطين ، إنما المؤمنون أخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله
لعلكم ترحمونه » .

فالإسلام أوجب على المسلمين أن يتحدوا ويتآزروا مهما تباعدت
ديارهم ، وإن وقع بينهم خلاف ، فالقراءان بينهم حكم وعدل حتى لا يجرئهم
الخلاف ويضعف شأنهم ، فإن وقع وتخالفوا واشتد خلافهم حتى أشهروا
السلاح بينهم ، فعلى بقية المسلمين أن يدخلوا بينهم لاصلاح ذات البين ،
فإن وقع الصلح فيجب أن تعود الأخوة إلى صفائها وتعاونها . أما إذا بغت
طائفة ولم تقبل التراجع ، ولم ترضخ للحق ، أو استمر الجنبان معاً في
بغيهما ورفضهما الرجوع إلى حكم الله ، فعلى المسلمين أن يقاتلوا الباغين
حتى يرجعوا إلى حكم الله ، فإن رجعوا أصلح الأوسطاء بينهم بالعدل لكونهم
أخوة في الله يجب أن يسود بينهم الود والصفاء والتعاون .

فهذه الآية يجب أن تكون دستوراً للمسلمين إذا اختلفوا ، ، لأن
الاستعمار والصهيونية يههما أن لا يتوحد المسلمون حتى يستمر
استغلالهم لهم وتسلطهم عليهم ، « فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن
تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب اليم » .

فهرس

الصفحة

| | |
|-----|-------------------------|
| 5 | كلمة أولى |
| 9 | هذا القراءان |
| 31 | القراءان الكريم |
| 63 | المغاربة والقراءان |
| 77 | العقيدة |
| 85 | العبيادة |
| 95 | الاعتدال |
| 99 | الانسان في القراءان |
| 105 | الشرك واليهودية والنفاق |
| 113 | الجهاد |
| 123 | العلوم |
| 147 | العمل |
| 151 | التشريع القرآني |
| 167 | الحكم |
| 179 | المال |
| 189 | نماذج من اخلاق القراءان |
| 195 | رسالة الامة الاسلامية |

تم بحول الله طبع هذا الكتاب
بمطابع « فضالة »
المحمدية (المغرب)

رقم الايداع القانوني : 1982 / 598